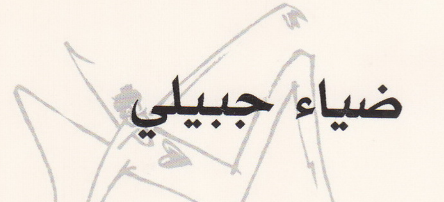
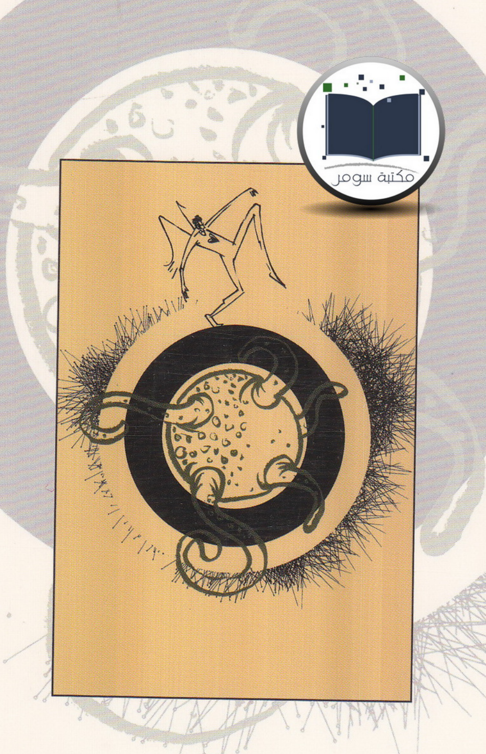
ضياء جبيلي



أسد البصرة

21.8.2017



منشورات الجمل

رواية

ضياء جبيلي: أسد البصرة

ضياء جبيلي

أسد البصرة

رواية

منشورات الجمل

ولد ضياء جبيلي بالبصرة عام ١٩٧٧/البصرة ـ العراق. حائز على جائزة دبي الثقافية عن روايته **لعنة ماركيز** ٢٠٠٧، صدر له: **لعنة ماركيز**، رواية، البصرة ٢٠٠٧؛ **وجه فنسنت القبيح**، رواية قصيرة، البصرة؛ **بوغيز العجيب**، رواية، البحرين ٢٠١١؛ **تذكار الجنرال مود**، رواية، البصرة، ٢٠١٤. بالإضافة إلى العديد من النصوص والمقالات المنشورة في مجلات وصحف عراقية وعربية.

ضياء جبيلي: أسد البصرة، رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه».

حديث نبوي

«ولادتي هي خسارتي».

صيموبل بيكيت

«آه! بالنسبة لنا، نحن الإناث العجائز التعيسات، مضى عمر الإرضاء، حتى للأبرياء، وها نحن نُروّع الأطفال الصغار الذين نشتهي حبهم!».

بودلير / سأم

القسم الأول

(١)

«أغوح على ماريو هو الوحيد يفهمني!».

«غوح على جهنم!».

«أي، أغوح على جهنم...» رد موشي على عمته هيلا بمزيد من الغضب: «هذا أحسن من ما أغوح على إسرائيل!».

أسرع إلى غرفته صافقاً الباب وراءه بقوة. تحمحم قليلاً كأنه يريد الدخول إلى المرحاض، وهي العادة التي لا تفارق كبار السن، وتشبه الإشارة التي يجب أن تُعطى للتأكد أن أحداً لا يشغل المرحاض في ذلك الحين. وقف أمام المرآة، وعلى الرغم من أنه لا يزال متوتراً، لكنه بدأ بمزاولة تمرينه المعتاد منذ ثلاثة أيام، على سرد قصته لماريو فاراغاس يوسا الذي يأمل بمقابلته خلال اليومين المقبلين في بغداد، فجاء صوته مشحوناً بالنبرة الغاضبة نفسها عندما كان يكلم عمته:

«عفواً سيدي!

هلا سَمعتني رجاء؟ لقد قطعت مسافة طويلة جداً، لا لشيء سوى أن أروي لك حكاية، ولا تسألني عن مقدار المسافة تلك، لأني حقاً لا أعرف كم تساوي بالضبط، لكن يمكن القول أنها عبارة عن تلك المسافة التي تمتد من زاخو إلى الفاو، هذا في حال أنك ما زلت مقيماً في

أربيل. وبهذه المناسبة أريد أن أنبهك إلى مسألة مهمة، وهي أنك إذا سمعت في طريقك مثل هذه العبارة (من زاخو إلى الفاو) التي تتردد كثيراً هذه الأيام، أو على الأقل هكذا تقال في القصائد والأهازيج والأغاني الوطنية البائتة والخطب السياسية الرنانة، فلا تصدقها أبداً، فكلها ترهات يتقول بها المطربون والشعراء الشعبيون وشيوخ العشائر وبقاقلة السياسة لدينا، ويريدون منها الدلالة الزائفة على الوحدة الوطنية البائسة واللحمة بين أبناء الشعب الواحد من الجنوب إلى الشمال».

عدّل موشي ياقة قميص النوم المخطط بالأزرق الفاتح الذي كان يرتديه ورتب شعره بيديه كما لو أن ثمة من يوشك أن يلتقط له صورة في تلك الأثناء. سمع عمته وهي تهمهم وتردد كلمات لم تزل تكررها منذ دخول الجيش البريطاني إلى البصرة في نيسان الماضي:

«هيم جيين.. غاح يجون.. هيم بالدغب. أبدالك موشي تال وياي تغا يقتلونك!».

إلا أن موشي لم يسمعها، أو أنه سمعها لكنه لم يعقب كما يفعل دائماً بعد كل مرة تُكلّم فيها نفسها ويظن أنها تشتمه، إنما راح يكمل تمرينه على نحو أكثر جدية، وكأن ماريو ماثلاً أمامه فعلاً ويسمعه:

«حسناً يا سيد ماريو.

سبق أن قلت لك، في الأيام الثلاثة الماضية، إنه لمن المفرح أن تزور شخصية مشهورة وروائياً كبيراً مثلك بلدي، طبعاً برفقة ابنتك مورجانا. ليحفظها الله. الأمر الذي دفعني للتفكير في استغلال هذه الزيارة وألتقي بكَ لأخبرك بقصة غريبة تصلح كمادة خام لكتابة رواية. وذلك لاعتقادي أنه ليس من المناسب أن يدخل روائي حاذق مثلك إلى العراق

ويخرج منه وليس في حقيبته سوى بعض الصور واليوميات والمشاهدات يمكن أن يكتبها رحّالة أو سائح أو ربما جندي محتل.

نعم؟

ماذا قلت؟

هل قلت لماذا لا أكتبها أنا؟

حسناً، سأجيبكَ طبعاً وأرجو أن تأخذ كلامي على محمل الجد وتتأكد أنه حقيقي وليس من قبيل المماراة:

أنا يا سيدي، وأحلف لك بشرفي، لم أكتب من قبل قصة واحدة، حتى تلك التي تتألف من ست كلمات، وسبق أن كان همنغواي أول من كتبها. تلك التي تبدو مثل يرقان يسبح في جوف تفاحة. ولنفترض أني سأكون قادراً على الكتابة، هل تظنّ أني سأنجح؟ نعم، قد أكتب شيئاً مميزاً، لكن من يأبه في النهاية؟ وعلى هذا الأساس يجب أن تثق بأن الأمر سيكون مختلفاً تماماً في حال كتبت أنت هذه القصة. وسأكون مطمئناً بأن العالم سيقرؤها. فأنا يا سيد يوسا رجل بسيط ومتواضع لا أرقى إلى ما وصلتم إليه من قوة البديهة والقدرة العالية على التعبير، وما زلت آمل أن تخرج قصتي إلى النور على أيدي أحد الصناع المهرة للروايات، حتى جئت أنت فتأملت خيراً، وهرعت إلى بغداد للقائك، حيث سمعت في الطريق أنك توجهت من أربيل إلى العاصمة لتكمل هناك كتابة يومياتك عن العراق.

عفواً، هل قلت أنها قصتي؟

نعم بالتأكيد، إنها قصة حياتي يا سيدي. قصة فريدة ومختلفة ستعجبك، وستشعر أنك مدين لي بالشيء الكثير، إذا ما حصل وكتبتها.

وصدقني، لن أطالبك بأي ريع مقابل ذلك. أنا فقط أريد أن يقرأ العالم قصتي العجيبة. وعندما أقول أنها عجيبة، فأنا أعني ذلك حقاً، وليس من قبيل الدعاية أو الترغيب طمعاً في مال أو شهرة.

لا زال المدعو ميغويل ريس بالينسيا، تعرفه؟ يخوض معركة يبدو أنها ستكون طويلة وخاسرة، من أجل إثبات أن «قصة موت معلن» هي نفسها قصة حياته الحقيقية، وأن غابيتو سرقها أو استعارها من دون عقد مسبق بينهما، وابتلع حقوقه فراح يطالب بتعويضه بثروة هائلة فضلاً عن اعتماد اسمه رسميا ككاتب مشارك. أما أنا، فأودّ أن أطمئنك يا سيدي بأني لن أكون مستعداً لخوض هكذا معارك خاسرة وطويلة، ثم أخرج منها بخفيّ حنين، تماماً كما تريد أنت أن تخرج من العراق بحفنة من اليوميات والمشاهدات الصحفية ومجموعة من الصور التي التقطتها ابنتك مورجانا، بينما قصص الألف ليلة وليلة المرعبة على مرمى قدمٍ منك، في حلبجة، وإذا اتجهت جنوباً لرأيت الأفدح، حيث المقابر الجَماعية والأقبية السرية وأطفال اللوكيميا هناك، كلاً منهم يحكي تاريخاً من الدم والحرب. في كل الأحوال، لم يكن صديقك غابيتو ليخسر شيئاً في حال أنه أغلق فم المدعو بالينسيا بالمبالغ التي لا زال ينفقها على المحامين حتى الآن، لكنه رفض الاستسلام، وربما سيصاب بالخرف ويموت في النهاية، وتلك القضية لم تُحسم بعد. عنيد غابيتو هاً هاً هاً! اعتذر منك، لا أريد أن أكون سمجاً، لكن يقال أن الهالة السوداء التي ظهرت حول عين غابيتو في إحدى صوره سببها أنت! تُرى، بماذا استفزك لتلكمه هكذا؟ يقال والعهدة على الراوي أنه همس في إذن زوجتك عندما كنتم جميعكم تشاهدون فيلما في إحدى دور السينما في

المكسيك وقال لها: كيف أمكنكِ احتمال هذا الرجل! هل حقاً حصل هذا يا سيد ماريو؟»

«هيم جيين!» يأتي صوت العمة من وراء الباب ويحطّ في إذنيه بإحساس معتم لم يستطع الإفلات منه: «غاح يجون وأغوح وياهم، سظل ألنا عيشيي بهالعزا مالم، يا حيف على ذيكي الأيام غاحت!».

كان موشي قد صمت وتشتت أفكاره لحظة قاطعه ذلك الصوت الذي كان خفيفاً، كأنه انبعث من آلة وترية، وتخللت نهايته بعض المطبات، حتى صار بإمكانه إيهام السامع في تلك اللحظة أنه صوت ماعز. وما زال على وقفته تلك أمام المرآة، لكنه شبك ذراعيه على صدره ومال برأسه قليلاً، بينما كانت عيناه جاحظتين باتجاه الباب، حيث ترقد وراءه العمة على كنبة متهرئة في الهول. وقد برطم شفته السفلى وقطب حاجبيه، قبل أن يعتق نفسه من حالة الصمت التمثيلي تلك، ويخرج من الغرفة.

اصطدمت نظرته الحانقة بعيني المرأة العجوز.

«ديجون لَكَنْ» سألها وكأنه يسخر

«أي، ما عندي شك!» أجابت هيلا

«ميخالف» قال موشي: «انتظريهم!».

«وأنت دتسافر معاي!» صاحت به هيلا: «غاح تمشي أموراتنا وكل شين يقعد بمكانو».

«ما أغوح على أي مكان» صاح هو أيضاً بصوت حاول ألا يعلو حتى لا يبدو كأنه ينهرها: «غوحي أنتي، أنا اغوح على ماريو. أنا أش أغوح أسوي هونيك؟».

عاد موشي إلى غرفته وأغلق الباب بعنف، ثم اتكأ عليه صامّاً أذنيه بيديه كي لا يسمع عمته وهي تولول بغضب:

«» وي غماد! مندال ما تبقا هوني تال وياي، قتغيد تقعد هوني يذبحونك؟».

لكنه لم يبق على هذا الحال وقتاً طويلاً، إذ رفع يديه عن أذنيه وفتح عينيه وراح ينصت إلى خطوات العمة وهي تنسحب إلى غرفتها ناعتة إياه بالمخبول. في حين عاد هو ليجلس أمام المرآة واستأنف تمرينه السردي الشفاهي، مفترضاً أنه يتحدث إلى ماريو:

«حسناً يا سيد ماريو. هل أخبرك شيئاً؟ أرجو منك المعذرة إذا لاحظتَ أن كلامي يشوبه بعض التلكؤ كأن أُبطئ أحياناً أو أستغرق بالصمت لبضع ثوانٍ ألعق خلالها شفتيّ. أعتقد بل أكاد أجزم أن من حقي أن أرتبك. ولا أظن أن أحداً يمتلك الجرأة ليدعي أنه لا يرتبك أمام ماريو فارغاس يوسا.

نعم؟

ماذا؟

أها! نعم، ماريو بارغاس يوسا.. هكذا أفضل؟ أعتذر منك يا سيد ماريو. خطأ غير متعمد.. أرجو المعذرة. إذن، لا أحد بوسعه عدم الارتباك أمام ماريو بارغاس يوسا، مع أن هناك من صار بإمكانه مؤخراً أن يقف أمامك في أحد معارض الكتب ويقوم بتمزيق كتبك وأنت تنظر إليه بعينين أكلهما الذهول بينما هو يفعل ذلك منتقداً مواقفك السياسية.

أنا أعرف أنك صديقاً حميماً لإسرائيليين. هل تعلم؟ كنت أحتفظ بصورك التي تظهر فيها وأنت تتسلم جائزة القدس في تل أبيب، وصور

أخرى جمعتك مع شمعون بيريز كانت عمتي هيلا قد أزاحتها عن الجدار في غرفتي حيث كنت ألصقها هناك مع صور أخرى متفرقة التُقطت لك في مناسبات عديدة. ثم قامت بتمزيقها قبل أن تلقي بها في سلة النفايات. ولك أن تتصور امرأة يهودية تعيش في بلد مثل العراق وتقع عينها على صورة لشمعون بيريز معلقة على أحد جدران بيتها، في الوقت الذي كان صدام حسين يبحث عن قطعة أرض مجاورة لإسرائيل ليتمكن من إحراقها.

يا إلهي! يبدو أني أسهبت في سرد أشياء غير سارة بالنسبة لك.. هل أسأت الأدب؟ آه، سحقاً لي! أكرر اعتذاري يا سيد ماريو. والآن دعنا نعود إلى موضوعنا الرئيسي.

حسنا.. ليكن..

من أين تريدني أبدأ؟

لكن، قبل أن أبدأ عليَّ أن ألفت انتباهك إلى أني أخبرك بالقصة. أُخبرك إخباراً ولا أروي. لذا عليك الإيمان بضرورة ألا تكون أحداث هذه القصة من نسج الخيال، أو تظنها إحدى تلك الفذلكات التي تتفنون بها أنتم الرواة الأذكياء من أجل إمتاع الناس. فأنا لا أكذب يا سيد ماريو، ولا تظن أني استمتع بإخبارك قصتي العجيبة لكني أؤمن أيضاً بجدوى كتابتها من قبل شخصٍ حاذقٍ وعلى مستوى رفيع من الذكاء والشهرة. روائي مثلك خَبَرَ الحياة والفن بشكل جيد، وترشح للانتخابات الرئاسية في البيرو، واستبدل زوجته بأخرى، وانقلب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ولم يرفّ له جفن، وجاب البلدان وكتب عن الدكتاتورية بوصفها ممحاة لحياة الشعوب. فعلى هذا الأساس أرجو أن

تأخذ ما سأخبرك به على محمل الاهتمام، فأنا في النهاية لست مجنوناً أو أهذي كما يدعون، ولا أؤلف ولا أحب حتى المزاح».

«أما ألعابكم السحرية تلك، التي أذهلت العالم وسحبتم بها البساط من أوربا وأمريكا، كما فعل في إثركم الكتاب المهجنين الذين نقلوا الآداب الأفرو آسيوية إلى تلك البقاع، فلم تدهشني إلى الحد الذي قد أقف عنده عاجزاً عن تقبل فكرة أن تطير ريميديوس في مائة عام من العزلة لماركيز. ربما أدهشتني فعلاً، لكني لم أستغرب، أو أشعر حيالها بحالة قصوى من الانبهار، ما دام أنها تشبه كثيراً تلك التي لدينا، وكنّ يروينها من قبل الجدات، شهرزاداتنا الأميّات اللائي كان بوسعهنّ أن يروين أساطير الأجداد بالطريقة نفسها التي تروون بها أنتم، ويحدث ذلك في الوقت الذي يتشمسن ويصنعن لأحفادهنّ دمى طينية.

لا علينا يا سيد ماريو...

قاربت الساعة الآن أن تكون العاشرة مساء. لا بدّ أنك متعب. سأتركك ترتاح، على أن نستأنف غداً حديثنا.

إلى اللقاء يا سيد ماريو...»

خرج موشي من غرفته بعد إنهاء حديثه الذي من المفترض أن يرويه ليوسا عندما سيذهب للقائه. خروجه من الغرفة كان مشهداً تمثيلياً، أداه على نحو ينمّ إما عن جنون أو موهبة. عاد بعدها بعينين ذابلتين، ويتثاءب.

(٢)

صباح اليوم التالي، أول ما تناهى إلى سمع موشي لحظة استيقاظه، هو خفق نعل عمته المطاط وهمهمتها، بينما هي تقطع المسافة الفاصلة بين المطبخ والباب، بهمة وحماس صارا مألوفين بالنسبة له، على الأقل منذ اجتياح القوات البريطانية البصرة، وشروع بعض عملاء الوكالة اليهودية في البحث عن بقايا اليهود البصريين ممن لم يهاجروا إلى إسرائيل، وما زالوا على قيد الحياة، متخفون أو متوارون عن الأنظار قدر الإمكان.استجمع قواه أخيراً، وقام ببعض الحركات على السرير، ليطرد الكسل وبقايا نعاس ما زال عالقاً في عينيه ويدعوه للعودة إلى النوم. تذكر ما اختلج في فكره الليلة الماضية وأراد قوله للسيد ماريو:

«صباح الخير سيد يوسا

أرجو ألا أزعجك. أدرك جيداً أن الوقت لا يزال مبكراً على الحديث بشأن قصتي العجيبة التي آمل أن تسمعها مني. لكن لا بأس عليك، سأحاول اختصارها قدر ما أمكنني ذلك، في حين ستتكفل مخيلتك البقية منها. أنا لا أشك بأن لك مخيلة عظيمة. لقد قرأت كل أعمالك تقريباً، ولم أكن لألتفت إلى إمكانية أن تكون أنت كاتب سيرتي الشخصية لولا ممثلة إباحية أمريكية تعرفت عليها عن طريق الصدفة، وهي التي نصحتني أن التمس منك ذلك، بعد أن قرأت روايتك ذائعة

الصيت بانتاليون والزائرات. قالت أن لك من القدرة والحذاقة على تحويل الأشياء التافهة والخسيسة إلى فن مقروء وممتع. هلاّ فعلت ذلك لطفاً؟ سيد يوسا؟ هل تسمعني؟ هل حاز الأمر على اهتمامك؟»

«أنت قيعد؟» جاء صوت هيلا رخواً ومتعباً في مثل هذا الوقت من الصباح: «الغيوق حاضغ».

كان يرغب بالاسترسال في تمرينه أكثر لولا أنه وجد في دعوة عمته إلى الإفطار مناسبة جيدة لتحقيق أمرين، الأول إسكات قرقرة البطن التي لازمته منذ البارحة، والثانية إخبار تلك العمة بقراره النهائي بشأن مغادرته البلد معها.

«لا تحاولين تقنعيني، ما اغوح!».

قال لها وهما يجلسان في المطبخ، إلى طاولة صغيرة، مفروشة بقطعة مزهرة من الدانتيلا، بعد إلحاح دام لأكثر من خمس دقائق، كان يغمس خلالها قطع الكعك المحمص في قدح الشاي أمامه، ويأكل بشيء من النهمة.

«غاح تكون وحيد هوني لا شغل ولا عمل».

«واش غاح اشتغل بإسرائيل؟ جندي لو سايق دبابة لو جرّافي؟!».

«لا تصيغ عاطفي!».

«وأنتي هم لا تحلمين لهذا الحد يخليكي تتصورين العيش بإسرائيل غاح يكون جَنّي».

«واش تعتقد أنت أنو العيش بارمينيا مثلاً غاح يكون هو الجَنّي؟ انت غلطان ابن اخوي. ارمينيا دولة مبتئسي وعايشي على المعونات،

والأرمن اللي عيشين خارج أرمينيا أكثغ بكثيغ من اللي عيشين بالداخل. فكر بهذا مليح عزيزي ولا تكون أهبل هيكذ لي هذي الدرجة وتصدق خالتك الممسوسي».

«ومنو قال أنا دغوح على أرمينيا؟».

«وين دتغوح لَكَنْ؟ لا تقول انك دتبقى هوني!».

«قلتولكي عمّي دغوح على ماريو».

«أنت مخبّل ابن اخوي! سمعتوك الليلة الباغحة وأنت تحكي مع نفسك وتقول أشياء تافهة».

«ما كنت أحيكي نفسي، كنت أحكي مع ماريو؟».

«آه ماريو!...» ضربت العجوز بيدها على الطاولة التي ارتجت، فكاد قدح الشاي أمامها أن ينكفأ: «ماريو! ماريو! ماريو! أنت عتهلوس عزيزي وماريو هذا ويحد من أعراض خبالك عزيزي، عتفهمني عزيزي!».

نهض موشي. انصرف على وجه السرعة إلى غرفته، جمع بعض الحاجيات الخاصة به ووضعها في حقيبة، ثم ارتدى ثيابه دون أن ينطق أو حتى يرد بكلمة واحدة على عمته التي ما زالت تواصل الكلام لتثبت في النهاية أنه مجنون، وعليه الرحيل معها إلى إسرائيل، لتلقي العلاج هناك. وبينما هو يرتدي سترته على مقربة من الباب ويهم بالخروج، جاء صوتها الذي بدأ يمعمع ساخراً:

«وين دتغوح؟ على ماريو؟».

«لا..» أجابها حانقاً: «اغوح على خالتي».

يعرف موشي كيف يغيض عمته هيلا. بالذهاب إلى خالته ميساك طبعاً. عدوتها التقليدية التي ما زالت تذمها، كلما تذكرت أن بوسعها التأثير على ابن شقيقتها، ليكون بالتالي ناكراً للجميل، أو هذا ما تظنه دائماً بقولها رداً على موشي حينما يبدي رغبته بزيارتها:

«دخوح عليها لَكَنْ، هذيك الحقودي، حتى تعلمك النذالي ونكران الجميل، غوخ!».

كانت الساعة قد اجتازت التاسعة بقليل حينما خرج موشي من بيت عمته. كان حانقاً غاضباً، لكنه اعتاد مؤخراً مثل تلك المماحكات العائلية، وفضل ألا يشغل نفسه بإلحاح عمته هيلا، ومعالجته بالهروب من البيت لتفادي أي مواجهة تنتهي بهزيمته، ومن ثم التفكير بجدوى بقائه في العراق، وذهابه للقاء شخصية شهيرة مثل ماريو فاراغاس يوسا، ربما لا يعبأ في النهاية بقصته.

كان بوده، بينما هو في الباص، ممارسة مرانه المعتاد على الكلام الذي من المفترض أن يقوله حينما يقابل السيد ماريو، إلا أن قصر المسافة بين البصرة القديمة والعشار حيث تقطن خالته ميساك في محلة العزيزية منعه من ذلك. الأمر الذي تعتبره العمة هيلا ضرباً من الجنون أو الهذيان الذي بدأ يتغلغل في ابن شقيقها شيئاً فشيئاً، وربما ينال منه يوماً ما.

(٣)

«اوف ايه؟» (من الطارق؟)

«يسم موشي» (هذا أنا موشي)

في كل مرة يزور بيت الخالة في محلة العزيزية، ينسى التعريف بنفسه على نحو ما اتفق بشأنه مسبقاً مع خالته ميساك، وهو أن يردد اسمه الأرمني واسم أمه. مما يضطر الخالة إلى إعادة السؤال عليه مرات عديدة قبل أن يتذكر الإجابة الصحيحة التي يمكن أن تشعر حيالها بالأمان فتفتح له الباب:

«نيروغوتيون يسم خاتشيغ آنتي» (هذا أنا خاجيك يا خالتي)

«تو فسداه ايس تو خاتشيغن ايس؟» (أنت متأكد أنك خاجيك؟)

«آيو آنتي!» (نعم خالتي)

«اوريمن اسيه ايندزي مامابيت آنونه؟» (إذن قل لي ما اسم أمك؟)

«نوفا».

لم يتقن خاجيك اللغة الأرمنية بشكل جيد، ولا يكاد يتحدث مع خالته ميساك بها إلا نادراً، كما حدث عندما سألته عن كلمتي السر، اسمه واسم أمه، قبل أن تفتح له الباب. ويحصل ذلك دائماً في كل مرة

يزورها، منذ الاحتلال البريطاني للمدينة، وتفشي ظاهرة السرقة والسطو المسلح على المنازل. فكان يطلب منها دائماً أن تكف عن محادثته بالأرمنية، مفضلاً بذلك اللهجة المحلية في حواراتهما المنزلية. إذ لم يجد خاجيك سبباً كافياً بعد لتعلم الأرمنية، ومن ثم التحدث بها مع خالته كما هو الحال بالنسبة لأغلب الأرمن. فهو عندما يتكلم مع جاره بالعربية العامية البصرية ويلتفت في الوقت نفسه إلى خالته ليتكلم معها بالأرمنية، يشعر بأنه يضطهد جاره الذي قد تبدو له بعض مفردات تلك اللغة مثل ألفاظ نابية، فيظنّ في حينها أنه يشتمه. على العكس من عمته هيلا التي يئست هي الأخرى من جدوى تعليم ابن شقيقها اللغة العبرية، لكنها نجحت في استقطاب اهتمامه إلى التكلم بلهجة اليهود العراقيين القريبة إلى حد التطابق من اللهجة الموصلية، مكتفياً بذلك، ومن دون أن يعبأ بكونه لا يجيد التكلم باللغة العبرية على نحو تام في حين أنه ينحدر من أب يهودي.

يسمع خاجيك خالته وهي تدير المفاتيح في الأقفال الثلاثة التي تضعها على الباب، فيضطر إلى تدخين سيجارة بينما هي تفعل ذلك. تطل بعدها من وراء الباب الخشبي السميك، وتمعن النظر إليه بعينين تتبدى فيهما الريبة على نحو واضح. تدخله، وتعود لتقفل الباب وتكتفي بقفل واحد، وتسأله بينما هو يخطو نحو غرفة الاستقبال في آخر الممر:

«أنت متأكد محد تبعك؟».

«نعم..».

«وشلونها عمتك الحيزبون، بعدها تمص دم البني آدمين؟».

«لا، تقاعدت من زمان».

«أها؟» قالت ميساك وهي تدعو خاجيك إلى الجلوس على الكنبة، في حين جلست هي على كرسي خشبي على يمينه، وتناولت مخرزين من على المنضدة في الزاوية، إلى جانب صورة العذراء الصغيرة التي يكاد الغبار أن يحجب ملامحها، وراحت تكمل ما بدأت بحياكته منذ الصباح الباكر: «ولك هاي المرأة شريرة ما أعرف شلون مِتقبّل فكرة تعيش مع مصاصة دماء!».

لم يتكلم خاجيك. فكّر برهة بالكلمات الأكثر تأثيراً ليقولها علّه يحوز في النهاية الحاجة التي جاء من أجلها، فراح يتمتم مع نفسه. حينئذ سألته ميساك:

«تشكي من شي عزيزي؟».

«أبداً!» انتبه خاجيك والتفت إلى خالته.

«زين، خلي أحضر لك شي تشربه».

نهضت بصعوبة، وبان لخاجيك أثناء ذلك أنها بلغت من العمر حداً ربما سيكون من غير المستحسن أن تعيش لوحدها في القابل من الأعوام. وبينما هي تعد له القهوة في المطبخ وتتكلم بصوت واطئ بالكاد يسمعه، لكن دون أن يفهمه، خطر له معاودة التمرن على الحديث إلى السيد ماريو في تلك الأثناء. لكنه علم أن تحضير فنجان من القهوة لن يستغرق وقتاً طويلاً يمكن من خلاله أن يبدأ حديثه المفترض مع كاتبه المفضل. لكنه، وعلى الرغم من ذلك قد بدأ فعلاً:

صباح الخير مرة أخرى سيد يوسا..

أنا سعيد جداً لأنك تجد الوقت لسماعي، على الرغم من أنك

شخصية مهمة والوقت لديك تكيله بمكيال، لكن هذا لا يهم ما دام أني أخبرك بقصة عظيمة..

«إحم!» أخيراً قطعت ميساك عليه حديثه: «أنتَ بخير عزيزي؟!».

انتبه خاجيك، وراح ينظر إلى خالته بعينين متوقدتين، هازاً رأسه برضا: «طبعاً أنا بخير».

«تفضل» ناولته فنجان القهوة بيدٍ مرتجفة، في حين ألقت إلى جانبه على الكنبة مجموعة من قصاصات ورقية كانت قد اقتطعتها من بعض الجرائد في وقت سابق، وعادت لتجلس في مكانها على الكرسي الخشبي.

«شنو هذي خالة؟».

«اقرأ وراح تعرف».

رشف خاجيك من قهوته قليلاً، وتناول واحدة من تلك الأوراق وقرأ فيها:

(اغتيال مترجمين أرمنيين من قبل ميليشيات في البصرة)

ثم تناول قصاصة ثانية وقرأ فيها أيضاً:

(مقتل مسيحي وشقيقته والاستيلاء على دارهما في البصرة)

القصاصة الثالثة كان فيها صورة لفتاتين، حين سأل خاجيك خالته عنهما قالت أنهما مسيحيتان إحداهما أرمنية كانتا تعملان في القاعدة البريطانية في المطار، قُتلتا أيضاً ورميت جثتيهما في مكب للنفايات أمام دائرة الطب العدلي. وعدا ذلك، أطلعته على أخبار مقتل بعض الأرمن في أماكن متفرقة من العراق، وقد وثّقت ميساك تلك الأخبار وظللتها

يسمعها أحد:

«لازم تطلع من العراق!».

«وين يعني؟» سألها وثمة لمحة استياء بانت على وجهه.

«تعال وياي لأرمينيا، هناك منظمة سرية للهجرة اسمها «منظمة إيسوس» مهمتها مساعدة الأرمن اللي يحسّون أن حياتهم بخطر بالخروج من العراق. اتصلوا بي أكثر من مرة، وعرضوا عليّ الفكرة بحال كنت أشعر بالتهديد، فوافقت وراح أطلب منهم يخلوك مرافق معي».

نهضت ميساك من على الكرسي الخشبي، وجلست إلى جانب خاجيك (بدت ضئيلة بعد أن غارت مؤخرتها الهزيلة في مقعد الكنبة العتيقة) واسترسلت بينما هي تضع يدها على كتفه:

«مهما يكون أنت ابن أختي ومحسوب علينا، وما أريدك تبقى هنا لقمة سائغة للمتطرفين.. لازم تروح وياي، فهمت ابني؟».

«بس منو قال أنا أرمني؟» أردف خاجيك بعد أن دلق ما تبقى من قهوته في فمه، وهمّ للإفصاح عن سبب زيارته، إلا أن ميساك التي أغضبها ما تفوه به قمعت همّته فجأة بقولها:

«أها! وشنو تظن نفسك يا ولد؟ لا تقول أنك أسلمت أو تهودت وصارت نيتك تروح وي مصاصة الدماء لإسرائيل!».

وبحركة عصبية ومتوترة أخرجت ميساك قصاصات أخرى وناولتها لخاجيك قائلة:

«تفضل اقرأ».

عندئذ راح خاجيك يقرأ باهتمام:

- ***أحد تلاميذ مدرسة دينية يهودية يبصق على الصليب أثناء مسيرة عيد الصليب التي نظمتها الطائفة الأرمنية في البلدة القديمة من القدس.***

- ***الحكومة الإسرائيلية ترفض المصادقة على اختيار بطريرك جديد للأرمن في القدس.***

- ***رهبان وراهبات أرمن يتعرضون لمختلف أنواع الإهانات كالبصق والشتم وتحطيم الصليب من قبل متطرفين يهود في القدس.***

- ***تقرير يقول أن كل راهب أو راهبة من الطائفة الأرمنية يتعرض للبصق يومياً.***

- ***عائلة أرمنية مهددة بالطرد من القدس في إطار سياسة الترحيل الإسرائيلية (الترانسفير) الهادئ.***

«إذا تروح مع ذيك الحيزبونة قسماً بالعذراء المقدسة أتبرأ منك!».

«مثل ما تبرأتِ من أمي، مو هيج خالة؟» قال خاجيك وقد ألقى على خالته نظرة استهجان آلمتها ودفعتها للبكاء:

«أنا ما تبرأت منها، هي راحت برجليها. سحقت كل شيء أمامها وراحت للموت برجليها!» وطفقت ميساك تبكي بصوت عال لكنه متعب، ثم مسحت دموعها بكم ردائها الأبيض، في حين عقب خاجيك بهدوء:

«ما راح أغادر. ولا تخافين لأني ما راح أرافق عمتي هيلا. وإذا اريد

أروح فأروح لناس يفهموني ويحسون بألمي. أما أنتم فكل همكم تحافظون على ما بقى من أعماركم بهذي الطريقة السخيفة».

«أنتم؟...» كأنما تلقت شتيمة وها هي الآن تحاول الرد عليها: «من تقصد بأنتم؟».

«أنتِ...» أجاب خاجيك بجملة مقتضبة تنم عن تظلم بدأ يشعر به مؤخراً: «أنتِ وعمتي هيلا.. الله... والعالم!».

«ولك أثول!» زعقت ميساك بوجه ابن شقيقتها: «بيك عرق من أبوك وعمتك المشعوذة...» بصقت أمامها على الأرض المفروشة بسجادة كاشان قديمة ومغبرة: «ابقى هنا لعد، خلي ينهش من لحمك المتطرفين!».

«تحكين عن التطرف ولا كأنك تعرفينه!» قال خاجيك بلهجة متهكمة.

«صه!» قالت ميساك بنبرة تأديبية، ووضعت سبابتها على شفتيها المرتعشتين المتغضنتين: «أطلع من بيتي!».

جلبت مكنسة وراحت تطوّح بها وراءه والزبد يتطاير من فمها، بينما هي تشيعه إلى الباب شاتمة أباه وعمته. وما أن وصل خاجيك إلى الباب حتى تذكر الغاية التي جاء من أجلها، فراح يلتمس من خالته العذر ويطلب منها أن تقرضه مبلغاً من المال:

«وشنو تسوي بيه؟ تعطيه لعمتك الشمطاء؟».

«لا، أريد أروح لماريو».

لم تقاوم ميساك السحنة الطافية على وجه خاجيك، والتي ذكرتها

بشقيقتها نوفا. تظن أنه يشبهها ولم يأخذ من أبيه سوى أنفه المعقوف. فدخلت وهي تجر خطواتها بصعوبة وعادت بعد دقائق وسلمته رزمة من الأوراق المالية، دون أن تسأله من هو ماريو هذا:

«فكر زين ابني، بعد أكو وقت، راح أطلب منهم تقدير حالتك وظروفك اللي مريت بيها، وأنا متأكدة راح يساعدونك. ما لنا عيشة بالعراق ابني. انتبه لنفسك ولا تنسى تشيل الجنسية بجيبك».

وأغلقت الباب.

غادر خاجيك وفيه شيء من غبطة، فقد حصل على المبلغ الذي سيعينه على الذهاب إلى بغداد لمقابلة يوسا، في وقت كان يعاني من ضائقة مالية. ومنذ أن نبهته ميساك وأوصته أن يحمل هوية الأحوال المدنية معه وهو يضع يده على جيب قميصه، ويتفقدها كل حين. قد يخرجها أحياناً ليقرأ في الوجه الثاني منها:

«الديانة مسلم!».

(٤)

تعرف مائير شلومو داود بنوفا سركيس دودوكَيان أول مرة في بهو القنصلية البريطانية على ضفة شط العرب حيث كانا يعملان هناك، هو بصفته مترجماً وهي طباخة. ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى أُغرما ببعض من أول نظرة ألقاها مائير على نوفا بينما هي تدس خصلة من شعرها المشرب بشقرة خفيفة خلف أذنها الصغيرة، وتعيد الكرة كلما انزلقت الخصلة مائلة على عينها اليمنى بينما هي تنظر إليه، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة كان من الصعب تجاهلها دون الشعور بإحساس غامر كما لو أن حقلاً من الياسمين بدأ ينمو على مقربة منه.

بمرور الأيام تطورت العلاقة بين الاثنين. أهدى مائير لنوفا كتاباً، هو رواية الفنار لفرجينيا وولف، وبادلته هي بهدية كانت عبارة عن اسطوانة لريتشارد فاغنر اشترتها من محل عبد الرحمن للاسطوانات في بداية سوق المغايز. كانا يخرجان بشكل يومي بعد انتهاء الدوام الرسمي في القنصلية. يتمشيان معاً على امتداد الكورنيش حتى الجسر الذي يصل بين حنّا الشيخ والداكير. يعبران الجسر باتجاه جامع المقام، يجتازان خطوة الإمام الرضا، قبل أن يدلفان عبر ممر ضيق إلى سوق التجار. ومنه عبر دربونة صغيرة يدخلان إلى سوق المغايز الذي يفترقان عند نهايته من جهة نهر العشار حيث ساعة سورين. يركب مائير الباص إلى البصرة

القديمة في حين تعبر نوفا الجسر إلى الجهة المقابلة، وتمشي بمحاذاة النهر حتى تعبر الشارع وتدلف إلى أحد الأفرع التي تفضي إلى محلة العزيزية، حيث تسكن هناك مع والدها وشقيقتها الصغرى ميساك في بيت العائلة.

وفي الوقت الذي كانت نوفا تقرأ رواية فرجينيا وولف، وتبدي انزعاجها من الصور المليئة بتخييلات كئيبة ومرعبة: جمجمة الخنزير المعلقة على الحائط. الجثث الملقاة على العشب. العظام البيضاء المحترقة. غطاء النعش. التراب. الكفن. الورود العمياء المخيفة. وغيرها من الأشياء والصياغات السوداوية اليائسة. فضلاً عن الطريقة البشعة التي انتحرت خلالها السيدة وولف، عندما أغرقت نفسها بالقرب من منزلها في سسكس. كان مائير في تلك الأثناء يستمع لموسيقى فاغنر المدوية، التي تنبعث من الغرامفون في غرفة المعيشة، لتصل في النهاية إلى أذني شقيقته هيلا بإحساس مروّع طالما أيقظها من النوم، وجعلها تتخيل جثث آلاف اليهود في معسكرات أوشفيتز ٢ وبلزاك وجيلمنو وماجدانيك وسوبيبور وتريبلنكا وهي تتفحم في أفران الغاز النازية على إيقاع موسيقى الفالكيري لفاغنر.

بعد حوالي شهرين قرر مائير التقدم لخطبة نوفا.

لكنهما لم يتزوجا إلا بعد مرور أربعة أعوام اضطرا في السنة الأولى منها إلى ترك العمل في القنصلية بعد تدهور العلاقات مع بريطانيا عقب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وكان طلب مائير ليد نوفا قد جوبه بالرفض القاطع من قبل سركيس والد نوفا الذي مرض في إثرها على نحو وصلت فيه حالته الصحية إلى مرحلة خطيرة. وكانت نوفا في تلك الأثناء

تتبادل مع مائير رسائل يائسة أشبه بمفاوضات عقيمة تبحث جدوى خروج كلٍّ منهما من طائلة الضغوط الدينية والعرقية والقومية التي كان يمارسها والد نوفا وشقيقتها من جهة، وهيلا التي كانت تقف كالسكين في خاصرة شقيقها مائير من جهة أخرى. كان كل شيء آنذاك يتجه إلى الفشل الذريع. كادت القصة أن تُنسى حين بدأ مائير يشعر باليأس ويفكر بالهجرة إلى لندن، لولا موت سركيس والد نوفا الذي لفظ أنفاسه الأخيرة بينما هو يردد أبيات كيفورك إمين:

أنا أرمني.. قديم.. قدم أرارات

قدماي.. لا تزال رطبتين

من مياه الطوفان.

بعد ستة أشهر من حداد نوفا على والدها وجملة من العوائق والتعقيدات المملة التي واجهاها بعد ذلك طوال عام لم تكفا خلاله المرأتين هيلا وميساك من الضغط باتجاه إفشال هذه العلاقة، لجأ الاثنان إلى الزواج المدني، وسافرا إلى قبرص لعقد قرانهما هناك. وبذلك تخلت نوفا عن حلمها بإقامة حفل زفاف كنسي تزينه أكاليل الورد وتيجان ورق الغار وأزهار الكاردينيا، واكتفت بزفاف متواضع خالٍ من بهرج الأعراس وأضواء النيون والموسيقى، وهالات القديسين، وتراتيل القساوسة وأيقونات العذراء.

لم يرق الوضع لهيلا وميساك شقيقتا مائير ونوفا. فقاطعت ميساك أختها بشكل نهائي ولم تعد تسمع عنها شيئاً، في حين انتقلت هيلا إلى بغداد للعيش مع خالتها في محلة حنون صغير، حيث عملت هناك مدرسة لغة فرنسية في مدرسة فرنكي عين وسط العاصمة. لكنها سرعان

ما عادت إلى البصرة بعد إغلاق المدرسة وتلقيها خبر اختفاء شقيقها مائير ثم زوجته نوفا في ظروف غامضة، تاركين وراءهما طفلاً في المستشفى. لبثت هيلا بعد ذلك في بيت العائلة لأكثر من عام كانت تتردد فيه على قبر خطيبها وبيت العائلة التي تبنت ابن شقيقها مائير، إلى أن تقدم لخطبتها رجل يدعى عبد العزيز الحجام فوافقت وانتقلت للعيش معه في مكان آخر من البصرة القديمة.

هاتان المرأتان (هيلا وميساك) في رأس كل منهما هولوكوست فظيع. وبعيداً عن الآثار الجسيمة للنيران النازية ورصاص البنادق العثمانية التي تحملها ذاكرة كلّ منهما، ثمة عداء تاريخي بين المرأتين لكنه عداء صامت على أية حال ويمكن تداوله عائلياً مع الطعام والشراب، أو على الأقل اختصاره بمقولتين هما:

(السبت يأتي بعده الأحد) و(لم يغلب دهاء اليهودي سوى الأرمني).

وقد حملت المقولة الأولى تلك النظرة المستقبلية طويلة الأمد لليهود بعد تهجيرهم من العراق، والتي تنبأت بإخراج المسيحيين بالطريقة نفسها التي كانت السبب وراء خروج الطائفة الإسرائيلية منذ عام ١٩٤١ وحتى آخر وثيقة خروج صادرة من الوكالة اليهودية تنوي هيلا شلومو التوقيع عليها في عام ٢٠٠٣. في حين يبين المثل الثاني ذو الطابع التجاري ربما، عن الإمكانية الهائلة التي يمتلكها الأرمني في التغلب على ما اصطلح عليه بالدهاء اليهودي، وهو مثل شرقي يردده الأرمن في الشرق، خصوصاً في العراق ومصر ولبنان وسوريا.

لقد رافق إرث المذبحتين تلكما المرأتين على نحو وجد كلٌّ من مائير ونوفا نفسيهما مدعوان هما الآخرين إلى الانغماس الكلي في ذلك

الإرث وبشكل لا يغتفر. ومع أنهما ـ مائير ونوفا ـ لا ينكران ما حصل لليهود والأرمن من إبادة عرقية ولا زالا يتذكران ذلك بمزيد من الحزن واللهجة الشديدة كلما سنحت الفرصة وكانت هناك مناسبة ليعبرا عن ذلك، لكنهما من ناحية أخرى، من المحتمل أنها لا تصب في رغبة المرأتين هيلا وميساك، يرفضان فكرة إحياء تلك الذكريات الأليمة بإحساس يظهرهما كما لو كانا يفخران تارة أو يتاجران بذلك تارة أخرى.

ليس ثمة شيء يمكن أن يقع ويؤدي إلى كارثة ليكون بالتالي مدعاة للتفاخر. وبرغم ذلك، لم تكن هيلا تقبل بأقل من ستة ملايين ضحية كعدد مهول للقتلى اليهود على أيدي النازيين بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥. كانت تتعامل مع هذا الرقم على نحو تبدو فيه كمن يشرف على عقد صفقة تجارية. رقم قياسي لم يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق. وبالتالي هي غير مستعدة للتنازل عن قتيل واحد أو حتى تفصل بين من كانوا يهوداً فعلاً وبين من هم شيوعيون وشهود يهوه ومثليون جنسياً ومعاقون عقلياً وجسدياً والمجانين وغير المرغوب بهم وبنات الهوى والمجرمون والأعراق الأخرى أو تلك المتداخلة. أولئك الذين حرص هتلر على إبادة أكبر عدد منهم لتنقية العنصر الجرماني في عصر الرايخ الثالث.

الحال نفسه، أو أغلبه إن لم يكن بحذافيره، ينطبق على ميساك التي لن تغفر لأحد قوله إذا ما ألمح من خلاله إلى أن عدد القتلى الأرمن كان أقل من ثلاثة ملايين ضحية، من دون أن تضع في حسبانها أو تحاول الإصغاء إلى من يقول أن من بين أولئك الضحايا مئات الآلاف من السريان والكلدان والآشوريين واليونانيين البنطيين ممن شملتهم المجزرة العثمانية. فكلتا المرأتين تتحدثان بهذا الشأن وهما تشعران بما يشبه

التفاخر، أو ربما يكون بالفعل هو ذلك النوع النادر من التفاخر المصحوب بنبرة تراجيدية، تريد وبسبيل ينم عن رغبة في التباري، أن تنقش على حجر النصب القائم في ذاكرة كل منهما معلومة تحتمل الصواب والخطأ مع عدم وجود إمكانية لتصويب الخطأ، معلومة مخيفة من قبيل: نحن الأمم الأكثر شتاتاً في العالم! نحن أكثر الأمم المبادة عرقياً! قبل أن تبدأ كل واحدة منهما باستعمال أصابع يديها وقدميها لتعداد الكوارث التي حلت على البلاد. تماماً كما قُيّض لامرأة فلسطينية من سكان حيفا أن تفعل ذلك، فتبدو في تلك الأثناء كما لو أنها تنافس أحداً لتثبت في النهاية أن لا شتات يوازي الشتات الفلسطيني. تفعل ذلك بينما هي تحصي الحوادث الجسيمة في قائمة تضم نحو ثمانين مجزرة حدثت بين عامي ١٩٣٧ و١٩٤٨ وكان ينقل أخبارها الشغيلة والمزارعون الفلسطينيون ووسائل الإعلام المتاحة. إلا أنها لم تكن تستعين في إحصائيتها بذكر التواريخ والأيام، إنما كانت تستعمل المظاهر الطبيعية للفصول الأربعة وما يرافقها من مواسم الزراعة والحصاد والقطاف والجدب والمطر وموجات الحر والبرد والعواصف، حتى جاء اليوم الذي أصبحت فيه قريتها التي تقع إلى الجنوب من حيفا على ساحل البحر المتوسط رقماً في تلك القائمة، ورأت بعينيها كيف قتل أفراد من الكتيبة ٣٣ التابع للواء ألكسندروني خمسة من أفراد أسرتها، في حين تمكنت هي من الهرب مع زوجها وولديها، وانتهى بهم المقام في البصرة ضمن أول موجة هجرة فلسطينية إلى العراق تتكون من ٢٠٠٠ لاجئ من سكان حيفا ويافا والبلدات العربية المحيطة بها.

ووفقاً لحسابات هذه المرأة فقد حدثت مجزرة كفر قاسم في موسم

قطف الزيتون. وعلى الرغم من أن الخبر أُذيع على نطاق واسع إلا أنها لم تسمع به إلا في وقت متأخر، حين أُبلغت من قبل الشرطة العراقية أن أحد أولادها قام بطعن شخص وأرداه قتيلاً في أحد المقاهي.

حدث ذلك في نهاية تشرين الأول ١٩٥٦، بما سمي وقتها بأيام النكبة، كانت هيلا تُحيي مع عدد من النساء اليهوديات ذكرى الـ «شاوه»[١] حين أذيع خبر إقدام حرس الحدود الإسرائيلي على قتل تسعة وأربعين مزارعاً فلسطينياً في كفر قاسم. وكان الخبر نفسه سمعه حسقيل خطيب هيلا عندما كان يحتفل مع أصدقائه في أحد مقاهي البصرة القديمة قبيل موعد زفافه بليلة واحدة، وصادف أن تواجد هناك عدداً من الشباب الفلسطينيين من لاجئي عام ١٩٤٨ فنشب جدال بين الفريقين على نحو ساد فيه التوتر بشكل حاد ومستفز أدى في النهاية إلى عراك عنيف تلقى فيه حسقيل طعنة سكين مميتة من أحدهم.

وتُعد هيلا السيدة اليهودية الوحيدة المتبقية في البصرة (حسب إحصائيات الوكالة اليهودية) والمرأة الأخيرة في (نظر ميساك دودوكَيان) التي تنتمي إلى سلالة مصاصي الدماء، كناية عن اشتغالها في مهنة الحجامة التي تعلمتها من زوجها المسلم عبد العزيز الحجّام.

لم تضطر هيلا إلى اعتناق الإسلام حين تزوجت من هذا الرجل، فقد كان متسامحاً إلى حد أذهل هيلا نفسها، إلا أنها ولدواعٍ أمنية أخذت نصيحته بإشهار إسلامها بشكل ظاهري على محمل الجِد، في حين سيكون بمقدورها ممارسة طقوسها العبادية بحرية تامة في البيت.

---

(١) شاوه هولوكوست.

تعلمت هيلا مهنة الحجامة من زوجها بعد أن كانت تشعر بالتقزز من فكرة معالجة الناس بهذه الطريقة. إلا أنها وبمرور الوقت أصبحت تتقنها بشكل جيد، مما جعلها تُعرف كأفضل امرأة بهذا الصدد في البصرة القديمة، حيث أن أكثر زبائنها من النساء والأطفال الذين صار بوسعها معالجتهم عن طريق الحجامة العربية. وقبل ذلك، لم تكن هيلا تملك سوى أمنية واحدة هي أن يكون لها فسحة في هذه الأرض بحجم قبر تُدفن فيه إلى جوار خطيبها في مقبرة اليهود في السعدونية. خطيبها الذي آثرت البقاء لأجله بعد هجرة عائلتها (باستثناء شقيقها مائير) لكنها وفي نهاية تشرين الأول ١٩٥٦ فوجئت بخبر مقتله. وبفقدها خطيبها عاشت هيلا أسوء أيام حياتها، لكنها لم تفكر باللحاق بعائلتها المهاجرة، على الرغم من الإلحاح الشديد الذي كانت تتلقاه بين فترة وأخرى من خلال الرسائل التي تصلها من أبويها وأقربائها.

وبالإضافة إلى الحجامة، كانت هيلا تصف الأدوية العشبية لباقي الأمراض التي لا تحتاج إلى حجامة، وخصوصاً الأدوية التي تعالج مشاكل النساء الصحية. لكنها تقاعدت هيلا في السنوات الخمس الأخيرة، واقتصر عملها على طب الأعشاب وتقديم النصائح. إذ لم تعد تملك القدرة على معالجة مرضاها بالطريقة نفسها التي كانت تتفنن بها قبل أكثر من عقدين من الزمن. أضف إلى ذلك انتشار مهنة الحجامة على نحو أكثر من ذي قبل، مما جعل عدد الزبائن يتقلص إلى حد كبير حتى صار من الصعب الوثوق بقدرة امرأة مسنة مثلها على الاستمرار بممارسة مهنة لا تخلو من أخطار جسيمة في حال حصول خطأ قد يفقد أحدهم حياته بسببه، الأمر الذي لم يعد لها القدرة على تحمله وهي في مثل هذه السن.

أما ميساك، فقد كانت ميساك امرأة عصابية نوعاً ما أو هكذا أصبحت منذ أن بلغت الخامسة والأربعين ولم تتزوج. كانت تؤمن على نحو لا يخلو من تطرف كما هو ديدن غالب الأرمنيات في الشتات، بضرورة أن لا تخرج المرأة من نساء جلدتها عن إطار الجيتو الأرمني في ما يخص الزواج. وعلى الرغم من ذلك لم يحالفها الحظ بالزواج، عازية السبب إلى سوء الطالع وهجرة الرجال الأرمنيين وعزوف آخرين عن الزواج. كانت تعمل في حياكة السجاد وهي المهنة البيتية التي تعلمتها من والدتها آنوش، بالإضافة إلى الخياطة والتطريز وعمل المنمنمات بطريقة جميلة ومتقنة، بأناة وصبر، وعلى نحو قربها من صورة إحدى تلك النساء اللواتي وصفهن تولستوي لغوركي وهما يتحدثان عن قصة «الحبوبة» لأنطون تشيخوف. العوانس العفيفات نساجات الدانتيلا اللواتي يفرغن في الزخرف حياتهن وأحلامهن السعيدة، الحالمات بالحبيب الغالي بينما هنّ يعملن الزخارف وينقلن إلى الدانتيلا كل مشاعرهن الطاهرة والمبهمة.

وكما لو أنها ورثت تلك الكدمات وآثار أعقاب البنادق العثمانية على جسد والدتها، كانت ميساك تحيي ذكرى المجزرة في الرابع والعشرين من نيسان من كل عام، جرياً على عادة أغلب الأرمن البصريين في المدينة وخصوصاً والدتها. فتروي للصغار حكاية الرحلة العصيبة التي امتدت من مدينة أرزنجان في شرق الأناضول حتى أقصى الجنوب العراقي. وتفعل ذلك كما لو أنها أفلتت رقبتها للتو من حبل إحدى المشانق هناك وجاءت لتتحدث عن تلك الفظائع من عالم الموتى مستشهدة بأرشيف من صور الضحايا التي علقتها على جدران غرفة المعيشة. أما والدها فكان سليل أولئك الأرمن الذين لم يكملوا رحلتهم

إلى الهند هربا من المضايقات التي تعرضوا لها في أصفهان بعد وفاة الشاه عباس الذي جاء بهم من أرمينيا أبان احتلاله لها فاستقروا في البصرة وأسسوا أقدم ابرشية هناك.

كانت ميساك نسخة من والدتها حتى على مستوى الإيمان، فقد كانت أرثوذوكسية مؤمنة، على العكس من نوفا التي تكاد أن تكون ميولها أنجيلية مع تحفظها الشديد على كتاب المؤسس مارتن لوثر التحريضي ضد اليهود حتى قبل أن تتعرف إلى مائير. وربما لهذا السبب فشلت ميساك حين حاولت فيما بعد استخدام ذلك الكتاب بالإضافة إلى مصادر عديدة أخرى كوسيلة ضغط كانت الغاية منها دفع شقيقتها للعدول عن قرار اقترانها بمائير.

على العموم، تبدو ميساك امرأة طيبة، على الرغم من تعجرفها أحياناً وغلوّ أحاسيسها الدينية والقومية. لكنها لم تكن تملك في فترة معينة من حياتها، إزاء الدفق العاطفي الذي كانت تمضي به شقيقتها نوفا قدماً من أجل الارتباط بمائير، سوى أن تقوم بمقاطعتها. من دون أن تكون ثمة حاجة أو ضرورة تصل بها إلى البراءة منها في النهاية. على الأقل ربما كانت ستقاطعها لأكثر من عشرين عاماً قادماً، قبل أن تكتشف أن هذه الفترة ستكون كافية بما يرضي ضميرها القومي لتشعر بالرضا من أنها أدت واجبها تجاه عرقها الهندو أوربي. كانت ستفعل ذلك في نهاية المطاف، لو لا أن نوفا اختفت فجأة، أو ربما ماتت، انتحرت فعلاً.

لم تكن ميساك تطمح أن تكون أكثر مما كنَّ البقية من مواطناتها الأرمنيات البصريات يطمحن إليه. كانت ذات شخصية وقدرة وكفاءة

طالما أهلتها إلى أن تكون ربة بيت ممتازة، تحسن تربية أولادها، وتبدي حرصاً منقطع النظير قلما يوجد مثله لدى نساء الأقليات الأخرى، بشأن المحافظة على التقاليد المتوارثة والسعي إلى الاقتران برجل أرمني تحترمه وتسهر على خدمته والمحافظة على شرفه، ولا تستعيض بآخر من غير ملتها بدلاً عنه حتى وإن كلفها ذلك البقاء عانساً بقية حياتها، وهو ما حصل فعلاً لتكون بذلك نموذجاً على غرار النساء العانسات نساجات الدانتيلا.

القسم الثاني

(١)

لم يأبه جمال لاعتراض منظم بطاقة الأحوال الشخصية على اسم «أمل» إذ قال إنه اسم علم مؤنث، ولا يجب تسمية الذكور به:

«لكن هذا اسم بنت يا أخي ليش تدمر مستقبل الولد؟!».

لقد عانى جمال ولأكثر من سنة، كان يتردد خلالها على دوائر الشؤون الاجتماعية، إلى أن أتم معاملة التبني الخاصة بأمل. لذا، لم يبدِ استعداده لمناقشة هذه المسألة، وما إذا كان الاسم لائقاً بذكر أو لا. كان مأخوذاً برغبة زوجته، فأومأ للموظف قائلاً:

«لا عليك.. أنت أكتب فقط».

«ماذا أكتب؟».

«أكتب: أمل.. أمل جمال سعدون».

هناك روايتان بشأن ولادة أمل، لكنه لا يستطيع التعويل على إحداها، في حين يهمل الأخرى، خشية أن تكون هي الرواية الحقيقية. وأحياناً، يعتقد أن الأمر لا زال سراً مجهولاً، مما دفع العمة هيلا والخالة ميساك، ومنذ فترة طويلة، إلى تلفيق تلكما الروايتين، لا لأجل شيء، سوى أن تحمل إحداهما قريب الأخرى المسؤولية، والسبب وراء النهاية المؤلمة لقصة مائير ونوفا. فـ«هيلا» تقول أن شقيقها مائير

اعتقله الحرس القومي في عام ١٩٦٣، وأُعدم بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي العراقي، ثم تبعته زوجته ناديا بفترة قصيرة، وكانت وقتها في الشهر التاسع من الحمل، وعلى ما يبدو، حسب روايتها، أنهم أمهلوها حتى ولدت طفلها، ثم اقتادوها إلى الإعدام. في حين تنفي «ميساك» أن تكون شقيقتها نوفا يسارية، وتؤكد أن مائير هجرها إلى إسرائيل، وتركها تواجه مصيرها لوحدها، فأقدمت على الانتحار. ألقت نفسها في أحد الأنهر. إلا أن نفر من الصابئة المندائيين، كانوا يؤدون طقوس الليلية أنقذوها. وحدث، أثناء ذلك، أن لفظت طفلها تحت الماء، فحُملت بعدها إلى المستشفى، لكنها عادت لتختفي بعد ثلاثة أيام، تاركة وراءها طفلها. ربما عادت إلى النهر وأكملت ما بدأته في تلك الليلة، فألقت نفسها في النهر ثانية، بعد أن أثقلت جيوبها بالحجارة، كما فعلت مسز وولف من قبل. وعلى ما يبدو أن محاولتها الانتحار نجحت هذه المرة. الأمر الذي لم تكن ميساك لتشكّ في حدوثه، بل وتقسم على صحته، كما لو أنها رأت ذلك بعينيها.

ولمّا كان من الصعب على ميساك الاحتفاظ بالطفل، لأسباب كثيرة منها جهلها في تربية الأطفال، والقطيعة التي ستنشأ مع أبناء جلدتها، كون الطفل الذي ستربيه هو في الحقيقة سليل ملّة أخرى، فقد رأت، ومن قبيل الشعور بالمسؤولية، أن من المناسب جداً، في مثل هذه الظروف العصيبة، لو تأخذ هيلا على عاتقها الاعتناء بذلك الطفل، ما دام أنه ابن شقيقها. إلا أن هيلا تفاجأت بالأمر. فكانت صدمة عنيفة بالنسبة لها، صدمة أن يولد طفل لشقيقها مائير في هكذا ظرف عصيب، صار من شبه المستحيل على البقية الباقية من اليهود تسجيل أولادهم

كعراقيين، في حين لا يزال قرار إسقاط الجنسية عنهم ساري المفعول في تلك السنة من حكم الرئيس عبد السلام عارف.

بعد ثلاثة أسابيع، صار من الملح بالنسبة للمرأتين أن تجدا جهة ثالثة محايدة (باستثناء دار الأيتام) يكون بمقدورها الاحتفاظ بالطفل. زوجان لا ينجبان ويتوقان لتبني طفل يتيم، كما يحدث دائماً في القصص الواقعية، خصوصاً وأنه طفل مبارك، كما يقول كبير الصابئة الذين أنقذوا نوفا أول مرة، على لسان ميساك. ولم تكن هيلا تطمح بأكثر من بقاء ابن شقيقها على قيد الحياة، فكانت الأكثر حماساً لفكرة الجهة الثالثة المحايدة. في حين لا زالت رغبة الاحتفاظ بالطفل تنازع ميساك، حتى أدركت أخيراً أن ذلك يعني تحملها مسؤولية جسيمة، مأزق سيؤدي إلى عزلها في النهاية. وإلى أن تم العثور على تلك الحاضنة المحايدة، كانت ميساك قد تخلت تماماً عن رغبتها بالاحتفاظ بالطفل الذي حصل أخيراً على أبوين، وهما زوجان مسلمان ودودان يعملان في التمثيل، كانت تربطهما صداقة حميمة بحسقيل خطيب هيلا، فوافقت ميساك على مضض، وأصبح التبني لهذين الزوجين مسألة ملحة، خصوصاً الزوجة وتُدعى حنان التي فقدت ثلاثة مواليد ذكور في السنوات الثماني الماضية، جميعهم ماتوا في سن الثانية بسبب المشاكل الجينية المتعلقة بزواج الأقارب. فما أن رأته حتى ترقرقت الدموع في عينيها. أشفقت عليه. أحبته. وكما لو أنه ولد تواً طلبت من جمال أن يؤذن في أذنه اليمنى ويقيم في أذنه اليسرى، وعقت عنه بذبيحة وزعت لحومها على فقراء الحي. أطلقت عليه اسم «أمل» الذي جمعته من الأحرف الأولى لأطفالها المتوفين. وفضلاً عن ذلك، بادرت إلى ختانه، الأمر الذي أزعج هيلا وميساك كونه تم من دون علمهما.

كانت كلاً من هيلا وميساك تتفقدان «أمل» بشكل مستمر، ومن دون

أن يكون هناك تدخلاً مباشراً في حياته مع تلك الأسرة، عدا أنهما كانتا ترسلان بعض المعونات المالية بين فترة وأخرى، وتشتريان له الهدايا واللعب. كان من دواعي شعورهما بالاطمئنان هو رؤيتهما المرونة الحميمة التي أبدياها الزوجان تجاه زياراتهما التفقدية لـ «أمل»، من دون أن يزعجهما تعلّق «حنان» به إلى درجة لن يستطيع أحداً بمكان، التمييز عما إذا كانت تلك المرأة أمه الحقيقية أو أمه بالتبني. إلا أنهما أبديا، ولفترة محدودة، امتعاضهما من مسألة الإبلاغ عنه كطفل مجهول الأم والأب، مما سيوفر إمكانية تسجيله باسم جمال في بطاقة الأحوال الشخصية. لكنهما أدركتا في النهاية ضرورة أن يكون له مثل تلك البطاقة ما دام أنه من أب يهودي أسقطت عنه الجنسية. على الأقل لتنجب المتاعب التي ستقف في طريق تقدمه بالدراسة والعمل والسفر، ولكي لا تضيع حقوقه المدنية مستقبلاً. كان لا بد أن يحدث ذلك في النهاية، مع الاحتفاظ بحق كونهما قريبتاه من الدرجة الأولى، فتلك عمته وهذه خالته. إضافة إلى إفساح المجال له بالتعرف إليهما على هذا النحو منذ نعومة أظفاره، لكي يعتاد على ذلك مستقبلاً. وهو ما حرصتا على تحقيقه منذ بلوغه الثانية من عمره، إذ بدأتا بجرح أبوة جمال وأمومة حنان، وذلك بعرض صور مائير ونوفا عليه، وتلقينه الحقيقة القائلة بأنهما أبويه الحقيقيين. الأمر الذي لم يستسغه الزوجين، لكنهما في الوقت نفسه، لم يبديا اعتراضهما عليه، إذ لا بد في النهاية أن يتعرف «أمل» على تلك الحقيقة، مهما طال الزمن وظلت غائبة عنه.

كانتا تأخذانه إلى بيتهما في الأوقات التي يكون الزوجان منهمكين في العمل، قبل أن ترى حنان ان من الملائم حقاً، أن تتناوب تلكما المرأتان على الاعتناء به، خصوصاً في الأوقات التي تكون مشغولة

بتأدية أحد أدوارها المسرحية. ففي النهاية هو قريبهما. وقد سبق له التعرف عليهما في فترة مبكرة جداً، حين كان لا يزال عمره أيام فقط. فألف وجودهما، من خلال الزيارات المستمرة التي كانتا تقومان بها طيلة أيام الأسبوع، وراح يتعرف عليهما بشكل أتاح له بعد ذلك هضم حقيقة أن هذه عمته وتلك هي خالته، من دون مفاجآت أو تداعيات نفسية، كانت ستحصل في حال لم يخبره أحد أنه ابن بالتبني لكل من جمال وحنان، وأن والديه الحقيقيين فُقدا في ظروف غامضة. وبالتالي، فإن تقضية الوقت برفقة هاتين المرأتين سيكون أقل بؤساً من الذهاب بصحبة حنان إلى بروفات وعروض المسرحيات. إذ لم يخفِ أمل رغبته بأن يكون محط اهتمامهما في تلك الأثناء، ما دام أنهما تتعاملان معه بتدليل وسخاء طالما سعد به، فكانتا تطهوان له أكلاته المفضلة، وترويان له حكايات مسلية، وتشتريان له اللعب، وتقرآن له آيات من التوراة والأنجيل. وعندما بلغ الخامسة، بدأتا بتلقينه بعض التعاليم التلمودية والمسيحية، وتعلمانه اللغتان العبرية والأرمنية، وتحفظانه الصلوات وتحيطانه علماً بالحلال والحرام، حسب ديانة كل واحدة منهما، وتناديانه كلاً بالاسم الذي اختارتاه منذ البداية: موشي وخاجيك.

شيئاً فشيئاً، بدأ «أمل» باكتشاف عالم المرأتين الوحيدتين الغامضتين. كان كأغلب الأطفال، شديد الانتباه، كثير السؤال والتوق إلى تقصي ما وراء الأشياء، والالتفات إلى أمور لم تكن مألوفة له من قبل، فصار يسعى إلى فتح مغاليقها كغرفة المعالجة في بيت هيلا، التي دخلها خلسة في أحد الأيام، وتعرف إلى كل ما يمت لمهنة الحجامة بصلة، خصوصاً ذلك الترتث العلاجي الذي ورثته عمته من زوجها عبد العزيز الحجام، أدوات وآلات وكتب قديمة. مخططات توضح مواضع إخراج الدم من

جسم المريض، صور مستنسخة لرسوم ونقوش فرعونية في مقبرة «توت عنخ آمون» ومعبد «كوم أمبو» لكؤوس تستخدم لسحب الدم من الجلد، رسوم أخرى لكؤوس زجاجية فيها دماء مستلّة من كتاب الإمبراطور الأصفر الصيني العائد إلى آلاف السنين، رسوم لهنود يمصّون بأفواههم الدماء من ظهور المرضى بواسطة قرون حيوانات مجوفة مقطوعة الأطراف. تخطيطات أخرى إغريقية ورومانية وشرقية وآشورية، توضح العملية نفسها بطرائق وأدوات مختلفة منها أكواب الفخار والخزف والبامبو والزجاج.

أيضاً لاحظ «أمل» وجود أدوات محفوظة كتحفيات في خزانة خشبية عتيقة، بدت مخيفة حين اقترب منها وراح يمعن النظر إليها من وراء الزجاج: قرون مجوفة، كؤوس فخارية وخزفية متنوعة، كؤوس زجاجية عادية، وأخرى سميكة لكنها قديمة، برطمانات ضيقة الفم واسعة البطن، تقترب في شكلها من الرمانة الصغيرة. وفضلا عن ذلك هناك عدة الحجّام وهي عبارة عن كؤوس بشفاطات، وكؤوس أخرى بلاستيكية مجهزة بمضخات يدوية وصمامات، كؤوس مزودة بمضخات كهربية، برطمانات صغيرة بفوهات مغطاة ببالونات مطاطية وتحتوي على ثقوب في جوانبها، موصولة بخراطيم ذوات محابس. قناديل، شموع، أقماع ورقية سهلة الاشتعال، معقمات طبية، قفازات ملطخة بالدم، شفرات، مشارط متنوعة: ما يقارب خمسة عشر نوعاً، منها مشرط بزرّ جانبي للضغط ذي ثلاث شفرات وآخر بثمان شفرات، قطن، شاش، زيت زيتون، زيت نعناع، فازلين، شفاطات ذات خراطيم يتم من خلالها سحب الدم، سرنجات، معقمات، أمواس حلاقة، بخاخ للجروح، بولسترات، مكبس يبدو كسرنجة كبيرة.

حين رأى «أمل» تلك الأشياء أول مرة انتابته قشعريرة كتلك التي يحدث، في مكان ما، أن يشعر بها الأطفال بينما هم يحاولون تخيل الأقبية المخيفة في قصص الجنيات والساحرات. وباستثناء تلك الغرفة، لم يكن شيئاً في بيت هيلا يستثير في داخله الشعور بالقرف. كان كل شيء طبيعي ونظيف تقريباً، خصوصاً غرفة المعيشة التي تبدو مرتبة جداً، وقد غُلّفت جدرانها بالورق المقوى وزُينت بالعديد من الصور: صورة لحسقيل خطيب هيلا وهو في الجامعة، بوجهه الضاحك وشعره المصفف بعناية على طريقة الخمسينين، يرتدي قميصاً رفع كميه إلى المرفقين وبنطلون جارلس يكاد يخفي حذاءه الذي لم يظهر منه سوى بوزه الطويل. صورة جماعية للعائلة قبل هجرتها إلى إسرائيل التقطت في عيد البوريم، وتظهر فيها هيلا بعمر الثالثة عشرة أو أكثر بقليل، بضفيرتين أهملتا خلف ظهرها. صورة لعبد العزيز الحجّام زوج هيلا المسلم لم يمض الكثير من الوقت حينما علقتها إلى جانب المكتبة الصغيرة التي تضم مجموعة من الكتب والاسطوانات الموسيقية. وعلى مقربة من تلك المكتبة إلى الأسفل ثمة غرامفون مهمل على طاولة حُشرت في الزاوية بين كنبتين.

هناك أيضاً صورة معلقة على أحد الجدران، لم يسأل أمل عمته يوماً عن صاحبها ذو الوجه القمحي، الذي يرتدي نظارات طبية صغيرة يمكن رؤية عينيه الصافيتين السوداوتين بوضوح من خلل زجاجها اللماع. كأنه يريد بذلك تلافي المزيد مما دأبت هيلا على الإيغال به، وهو جرح قناعته المبكرة، كلما عرضت عليه صورة لشقيقها مائير قائلة، لتبدو في تلك الأثناء كأنها تحاول استمالة بقال، لكي يبيع لها بثمن أقل:

«هذا أبوك! أبوك الحقيقي».

وربما للسبب نفسه، كان ينظر إلى صورة المرأة الجميلة المعلقة على أحد جدران غرفة المعيشة في بيت ميساك، بين الورود الاصطناعية الملونة، وأيقونات العذراء، والصلبان، والطيور المحلقة، والرموز المسيحية الأخرى، من دون أن يفكر بسؤال خالته من تكون تلك المرأة، ما دام أنه تعرف عليها في صور أخرى عرضت عليه مراراً، وفي كل مرة كان يقال له: «هذه أمك الحقيقية.

كان يسأل عن الشخص ذو اللحية السوداء والنظرة الساهمة، الذي يجلس إلى طاولة بجوار نافذة تطل على ترعة خضراء، يحمل بيده ربابة، بينما تستريح يده الأخرى على دفتي دفتر فوق الطاولة، وثمة ريشة للكتابة بين أصابعه النحيلة. وإلى جانب تلك اللوحة المعلقة على الجدار هناك أيضاً سجادة من عمل ميساك ويظهر فيها جبل بقمتين صغيرة وكبيرة يغمرهما الثلج. رمز يحاكي شكل سمكة وهو عبارة عن قوسين متقاطعين يمتد طرفاه بعد نقطة التقاطع ليكونا في المؤخرة ذيل السمكة[١] صليب نحاسي متوسط تحفه طيور خشبية مثبتة على الجدار بشكل دائري. دودوكَ[٢] وضع بشكل مائل على مسمارين ناتئين. صورة سركيس والد ميساك ونوفا وهو يعزف على الساكسفون في إحدى الحفلات. صور مختلفة خصصت ميساك لها جداراً لوحده تظهر فيها حشود كبيرة من الأرمن المهجرين في عام ١٩١٥. جثث أطفال متناثرة على الطريق. جثث لنساء أرمنيات عاريات ومصلوبات على صلبان كبيرة، وأخرى متدلية من أعواد المشانق. صورة نوفا في حديقة مرتدية

---

(١) السمكة: شعار استخدمه المسيحيون الأوائل قبل اعتماد الصليب.

(٢) دودوك: مزمار، آلة موسيقية أرمنية.

قميصا أبيض بأكمام طويلة ودانتيلا حول الرقبة وتنورة سوداء قصيرة، وكانت ترفع يدها قليلاً لتطول برتقالة متدلية من شجرة على يمينها في حين استقرت يدها الثانية على كتف امرأة إلى جانبها لم يظهر منها سوى جزء من جانبها الأيمن. هناك أيضاً كتابة مبروزة استقرت تحت لوحة الشخص حامل الربابة، وعلى ما يبدو أنها أبيات شعر بالأرمنية.

«منو هذا أبو شوارب؟».

«هذا شاعر ومغني».

«شنو اسمه؟».

«سايات نوفا».

«وهذا؟» يشير «أمل» إلى السجادة المعلقة على الجدار فتجيبه ميساك قائلة:

«هذا جبل أرارات».

وحين سألها أين يقع هذا الجبل (كحال أغلب الأرمن، حين يتعلق الحديث بأرارات فإنهم يعودون في حديثهم إلى أرمينيا التاريخية، قبل «تتريك» الجبل من قبل العثمانيين) قالت ميساك مؤكدة:

«في أرمينيا طبعا».

وكما لو أن الدماء الأرمنية التي تجري في عروقه هي التي استحثته، سأل «أمل» ميساك عن قصة جبل أرارات:

«هل ترى تلك القمة الكبيرة؟» قالت ميساك وهي تشير بسبابتها المرتعشة إلى صورة الجبل القديمة: «هذه تُدعى ماسيس الأكبر. وتلك، هل تراها؟ إنها ماسيس الأصغر.. لقد اشتق أجدادنا اسم هاتين القمتين

من اسم ملك يُدعى أماسيا وهو ابن حفيد هايك كبير الأرمن وسليل أبانا نوح الذي رسى بسفينته العظيمة على جبل أرارات أثناء الطوفان».

صمتت ميساك برهة ثم سألت أمل بنبرة من اكتشف شيئاً:

«هل سمعت بقصة نوح؟».

هز الولد رأسه نافياً، فبدأت ميساك تروي له القصة منذ أن شرع نوح ببناء السفينة حتى رسوها بين قمتي جبل أرارات. لكن شيئاً ما لفت انتباه «أمل» في تلك الأثناء، وتحديداً في منتصف الحكاية، عندما لم يتمالك رغبته في الحصول على الدودوكَ الذي يستقر ومنذ فترة طويلة، على المسمارين المثبتين في الجدار. إلا أن ميساك لم تجد، وحتى وقت متأخر، سبباً يدعوها للتفريط بتلك الذكرى العزيزة والوحيدة المتبقية من والدها.

وتزامناً مع بلوغ «أمل» عامه الخامس حدث خطأ من تلك الأخطاء التي يرتكبها الأزواج الذين تتجاوز أعمارهم الأربعون، ثم ينسبونها إلى جملة الأخطاء الغير متعمدة. الخطأ الشائع نفسه الذي يرتكبه زوجان كانا قد اتفقا مسبقاً على عدم الإنجاب، إما لاكتفائهما بعدد لا بأس به من الأطفال، أو لأسباب معيشية، أو مرضية، وكانا قد أشاعا ذلك في أوساط العائلة والأقارب والأصدقاء. ثم، هناك، وعلى حين فجأة تكتشف المرأة أنها حامل، فتشعر بالاستياء المبالغ به، وتبدأ بإلقاء اللائمة على الرجل المغفل الذي سيردّ التهمة عنه بإلقائها مجدداً على الزوجة الغبية، لأنها تهاونت في ابتلاع الحبوب المانعة للحمل، في حين تعود الزوجة لتدعم اتهاماتها عازية السبب في حملها إلى إهمال الزوج الأبله، أو ربما بخله الذي دفعه إلى استعمال واقيات ذكرية من النوع الرديء. أو أنه، في أقل التقديرات، تكاسل عن إزاحة نفسه عن

زوجته في لحظات الذروة، تلك التي يبدو فيها المرء وهو يمارس إفراغه البهيمي السعيد والمرتجف، كما لو أنه تعرض إلى صعقة كهربائية طيرت له عقله، وجعلته يتخبط في النهاية بشكل ينم عن شعوره بالبلاهة. عندئذ، لا بد أن يعلق شيئاً من حيانمه في فرجها، ليؤدي بالتالي إلى هذه النتيجة التي يدعي أنها تخالف رغبته، ليبدأ بعدها بالاعتذار، كما يعتذر لشخص كان قد أفرغ عليه طشتاً مليئاً بالقاذورات من فوق البالكون. وعلى الرغم من ذلك، لم تشأ «حنان» أن تجهض جنينها، وكانت تأمل أن تُرزق هذه المرة بطفل يتمتع بأسباب العيش الكافية، بعيداً عن لعنة الموت المبكر.

وبعد معاناة تسعة أشهر، كادت أن تجهض خلالها الجنين لأكثر من مرة، واضطرت إلى الاستلقاء على ظهرها فترات طويلة ومملة، أنجبت حنان بنتاً أسماها والدها نسرين، في حين دخلت هي في غيبوبة لم تفق منها إلا في صباح اليوم التالي، لتستأنف بعدها حياتها وتبدأ بتربية الطفلين، من دون أن تشغلها فكرة الإنجاب مرة أخرى. وأصبح «أمل» الأخ الأكبر لنسرين بالرضاعة بعد أن رضعت الأخيرة من اللبن نفسه الذي غذاه منذ كان عمره شهراً واحداً.

كان «أمل» يكبر نسرين بخمسة أعوام حين ولدت هي في يوم من أيام تموز ١٩٦٨، عندما كان حزب البعث يضع يده على مقاليد الحكم في العراق، لتمتد بعد ذلك إلى أكثر مما كان يتصوره الشيوعيون والإسلاميون، وحتى البعثيون ممن حملوا مبادئ البعث الأولى، قبل أن يبدأ صدام حسين سلوكه الفاشيستي تجاه هؤلاء، ثم يشرع بتصفيتهم على مدى خمس وثلاثين عاماً ابتدأت في تلك السنة وانتهت بالاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق عام ٢٠٠٣.

نسرين، بعينيها العسليتين، وبشرتها المائلة إلى اللون القمحي، والأنف المستوي، والشفتين المملوءتين بعض الشي، اللتان تسترعيان الانتباه على نحو جاذب، حين تستجيب لمناغاة أبويها وهي في الأشهر الستة الأولى من عمرها، حازت ومنذ الأيام الأولى قدراً وافراً من الاهتمام والتدليل، فكان ذلك مثاراً لاستياء «أمل» الذي لاحظ الأبوان انحدار سلوكه نحو العزلة، فبدءا بمحاولة تقريبه بالشكل الذي يضمن له عدم المساس بكونه الابن البكر والمدلل، وفي المحصلة لن تكون نسرين سوى دميته الجميلة الوادعة والفاتنة التي توجب عليه الاعتناء بها: هذه دميتك فلا تؤذها!

في البداية، لم يعترض «أمل»، لم يسأل أبويه لماذا عليه امتلاك دمية أنثى وهو الولد الذي من المفترض أن يُغرم بلعب الذكور، بالطيارات والقطارات وسيارات السباق، القرود التي تقرع الطبول، الكرات والحيوانات البلاستيكية والبطات المطاطية ومسدسات الماء. تقبل الأمر، وراقت له فكرة أن ذلك الكائن الحي الجديد والمسمى نسرين (صار بوسعها الآن أن تبتسم وتكشف عن لثتيها وتعضعض أصابع قدميها وتكركر حينما يدغدغها أحدهم من إبطيها) ليست سوى دمية. لكنه سرعان ما عاد ليبتأس من جدوى أن تكون نسرين على هذا النحو، خصوصاً وأنها بللت ثيابه بينما كان يجلسها في حجره ويلاعبها كما لو كانت دمية حقاً، في حين كانت هي تبحث عن حلمتي ثدييه لتقرصهما أو تعبث بهما بأصبعها كنوع من التسلية الباعثة على شعورها بالدهشة، وشعور المقابل بالقشعريرة والدغدغة في آن معاً. منذ ذلك اليوم وهو يتحين الفرص ليفعل شيئاً يوقف هذه المهزلة، في وقت أصبحت الأم تعي فداحة ما قد يقوم به ولن يكون بمقدورها اعتباره، فيما بعد عندما تحصل الكارثة، عملاً طائشاً ارتكبه طفل في الخامسة من عمره، ما دام

أن هناك من حاول إيهامه أن ذلك الشيء الذي صار بوسعه التبول في حضنه وقرص حلمتي ثدييه ليس سوى دمية، دمية وقحة صُنعت بشكل سيء أتاح لها أن تبلل ثيابه.

على هذا النحو، وحين يضيق الطفل ذرعاً بدميته التي أصبحت، هكذا ومن دون سابق انذار قادرة على التبول والعبث بحلمتيه، فإنه، وكإجراء يعلن من خلاله عن تمرده، يسعى إلى العنف. ينزع ذراعيها وقدميها ويفصل رأسها عن جسدها، ويقوم بركلها، أو يدوس عليها بعنف كي تكفّ عن اصدار ذلك الصوت الذي ينبعث من مشبك صغير في سرتها، ثم يطلب من أمه أن تشتري له دمية جديدة.

وفي الوقت الذي يكسر ملايين الأطفال في العالم لعبهم ويمزقون الدمى (ليعطوا لذويهم انطباعاً سديداً بأنهم أطفال أسوياء، إذ يمكن الدلالة على ذلك من خلال ساديتهم تجاه أشياء لن يكون بمقدورها أن لا تكون مملة في النهاية، ما دام أنها لا تتطور) ويفعلون ذلك لسبب وجيه، بالنسبة إليهم على الأقل، هو عدم قدرة تلك اللعب والدمى على النمو، لا تزال دمية «أمل» تثبت العكس، فقد كانت تنمو وتكبر وتبلل ثيابه، تصرخ من فمها وليس من سرتها، وربما ستنمو أسنانها وتشرع بعضّه، فيبدأ هذا الجانب الوحشي والغير محبب في عالم الطفولة يثير غضب الأخ الأكبر سناً، حين يكون بمقدور شقيقته أن تقتطع لحمة من ذراعه أو رقبته أو ثدييه.

وفي أحد الأيام، بينما كانت حنان تنشر الغسيل فوق سطح الدار، سمعت ابنتها تصرخ بصوت طالما احتجّ «أمل» على الطريقة البغيضة في خروجه من سرتها وليس من فمها، كلما حاول إيذاءها. فربما عضها في تلك الأثناء، أو حاول انتزاع رأسها، أو إحدى يديها، قبل أن يفكر أن

يخنقها بالوسادة. فحين رأته حنان وهو يفعل ذلك، وقد نشب أسنان فكه العلوي في شفته السفلى، بينما هو يضغط على رأس ابنتها بالوسادة، بقوة تضاهي قوة نملة وهي تحرك صخرة ثقيلة، بحقد الطفل الذي كذبوا عليه، وقالوا له أنها دمية فلا تؤذها. لكنه، ولكي يحصل على دمية بدلاً من الأخرى، التي إن كان هناك شيء يدل على كونها أصبحت مستهلكة، فذلك هو بولها الكريه الذي بلل ثيابه، عمد إلى تحطيمها، أسوة بأقرانه من الأطفال الذين يحطمون عشرات اللعب والدمى. حينما رأته «حنان» وهو يخنق ابنتها بالوسادة، كان أول شيء أرادت فعله هو الصراخ، لكنها لم تستطع، كأن شيئاً مجهولاً تواطأ مع تلكما اليدين اللتين ما زالتا تضغطان على وجه نسرين لتنهيان حياتها. آه لو انطلقت صرختها. كانت ستنهي محاولة «أمل» بالفشل. كانت ستخيفه فيترك الوسادة من يديه ويهرع إلى الخارج أو يتسلق شجرة ويقضي وقته بالبكاء هناك، ومثل أي طفل يفعل فعلته المشينة كان سيختبئ تحت السرير أو في خزانة الثياب أو يهرب إلى سطح الدار. أليس هذا ما يفعله الأطفال دائماً؟

تركت حنان غسيلها وهرعت إلى الأسفل، وقفت عند باب الغرفة. كانت المسافة بينها وبين «أمل» لا تتجاوز ثلاثة أمتار، إلا أنها رأت، وعلى نحو مخيف، أن تلك الأمتار الثلاثة لم تكن في نظرها حينذاك، سوى تلك المسافة الشاسعة والمرعبة والمحفوفة بالمخاطر التي تُضرب بها الأمثال للدلالة على استحالة الوصول إلى شيء ما. كانت على وشك الانهيار وهي تحاول عبثاً تحريك قدميها نحو كاروك ابنتها، في لحظات فاصلة كانت تنظر إلى قدمي نسرين الصغيرتين وهما ترفسان في الهواء بحركة أصبحت واهنة في تلك اللحظة، مما يدل على أنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

فجأة.. توقف كل شيء.

ما أن رأى «أمل» أمه بالتبني، وهي تحاول أن تصدر صوتاً لم يخرج منه سوى حشرجات متقطعة، حتى أزاح الوسادة عن نسرين ووضعها جانباً، كمن يفعل ذلك خلسة. ثم حشر نفسه في الزاوية القريبة، لكنه لن يبدأ بالبكاء إلا بعد ساعات، في وقت كانت نسرين لا تزال راقدة في المستشفى، تعاني من صعوبة بالتنفس وخلع في كلتا يديها وإحدى قدميها، فضلاً عن آلام في بطنها وسرتها ورقبتها.

بمرور الوقت، بدأ الأخوان بالتعرف على بعضهما على نحو، كان من المفترض أن يلتفت إليه جمال وزوجته منذ البداية، ويتصرفان على أساسه، لكنهما أساءا التقدير، وأبلغا ابنهما المتبنى، أن ذلك الشيء الناعم، اللطيف، البالغ الجمال، الذي يتحرك في الكاروك، وبدأ بالمناغاة مؤخراً، ما هو إلا دمية. كما لو أنهما أعطياه سكيناً، وقالا له بصريح العبارة، التي لم ينطقا بها، لكنه سمعها على هذه الشاكلة: هيا يا بني، اذهب ومزق تلك الدمية اللعينة! حتى أنهما لم يتركا له الفرصة ليكتشف الأمر تلقائيا، فيضع نفسه، بمرور الايام، أمام واقع بات يجابهه اغلب الاطفال الأبكار، واقع أن ثمة طفل آخر سيشاركه الأحضان والدلال وكلمات التحبب والحب والرعاية والاهتمام، لكنهما، وللأسف الشديد، أخبراه أنها دمية كأغلب الدمى التي لا بد أنها ستبعث على الملل في نهاية الأمر، فانتكست قناعته التي كان يحفزها في الوقت نفسه عدم شعوره بالملل وهو يراها تنمو.

(٢)

كان «أمل» وفي فترة مبكرة من حياته، حين بلغ عمراً أتاح له تسمية الأشياء بمسمياتها، وبدأ، مثل الكثير من الأطفال، بطرح الأسئلة المدهشة التي قد تدفع الآباء إلى الكذب. كان قد انتبه إلى وجود ثلاثة صور مبروزة ومعلقة على أحد الجدران في الصالة، في فترة صار بوسعه التفكر بما حوله من الأشياء، ومعرفة أن ذلك الشيء الذي كان يختبئ تحته، بينما جمال يلعب معه الغميضة في أوقات فراغه يُسمى سرير. وأن الشيء الذي يعكس صورته فيرى نفسه فيه هي مرآة. وأن الشيء الآخر المعلق في السقف، ويدور في أغلب الأحيان في فصل الصيف إنما هي مروحة، وهكذا هو الأمر بالنسبة لباقي الأشياء في البيت. وكان على حنان في تلك الأثناء أن تختبره بين فترة وأخرى، لترى إن كان لا يزال يحفظ مسميات الأشياء التي تعلمه إياها، فكانت تشير إلى التلفاز وتسأله: ما هذا؟ فيجيبها بأنه: تلفاز. وهذه ماماتي؟ مزهرية. وتلك؟ خزانة. لكنها لم تفكر يوماً أن تسأله من هم هؤلاء المعلقين على الجدار، الموشاة صورهم بأشرطة سود، فيجيبها هو مثلما علمته هي مراراً بأنهم طيور في الجنة. وهي الفكرة السائدة عن الأطفال الذين يموتون في فترة مبكرة من حياتهم.

حين بلغ «أمل» عامه السادس والتحق بالمدرسة، كانت صور طيور

الجنة المعلقة على الجدار في الصالة لا تزال تؤرقه. كان يبحث عن إجابة تشفي قناعته التي لم تزل مجروحة منذ أن أوهموه أن نسرين دميته وليست أخته. كان يبحث عمن يقول له وببساطة أنهم أطفال موتى، مع تحمل القائل التبعات الناتجة عن هذه الإجابة، والتي عادة ما تأتي على شكل أسئلة تقليدية مزعجة يطرحها الطفل ليشبع نهمته إلى معرفة الأشياء الغامضة، أسئلة من قبيل: لماذا؟ كيف؟ اين؟ وهو في أغلب الأحيان يريد إجابة صادقة تتناسب مع قناعته كطفل غير مستعد لتقبل فكرة أن هؤلاء طيور في الجنة، ولمجرد أنهم كذلك تُعلق صورهم على الجدران، كما لو يفعل المرء ذلك لجلب البركة، أسوة بصور الأولياء الصالحين والقديسين. يريد «أمل» أن يرضي قناعته، فطرته التي ترى أن أصحاب هذه الصور هم أطفال، وليس كما يقال دائماً أنهم طيور في الجنة. اما لماذا هم موتى، فهذا بالضبط ما يجب أن يتعامل معه الأبوان بطريقة تجنبهما المزيد من المعوقات في إفهام ابنهما لماذا وكيف وأين ماتوا اخوته من الرضاعة، بدلاً من التعويل على قول أنهم طيور في الجنة فحسب. هكذا ومن دون سابق انذار، وكأنهم، ومن دون سبب واضح، تحولوا إلى طيور في الجنة. استيقظوا في صباح أحد الأيام ليجدوا ان ثمة أجنحة كانت تنمو على أكتافهم طوال الليل، واكتملت في تلك الساعة، مما جعلهم يطيرون بها إلى السماء من دون رجعة. عندئذ، بدأ «أمل» يرى طيور الجنة تلك في أحلامه التي سرعان ما كانت تتحول إلى كوابيس. ثم راح يتخيل أشباحهم في البيت. إنهم يخيفونه ولا يعرف سبباً يجعلهم يكررون تلك الزيارات الكابوسية التي غالباً ما تدفعه إلى التخييل أثناء يقظته، الأمر الذي طالما جعله يعيش أوقاتاً غاية في الإرهاق، ولم يكن ليفوت الفرص التي تجمعه بجمال

وحنان ليسألهما عن طيور الجنة، إلا أن أياً منهما لم يسعفه بإجابة سوى تلك الإجابة التي ما زالت تؤكد على أنهم طيور في الجنة.

وفي صباح أحد الأيام، فوجئت حنان بمشهد تهشم زجاج صور الطيور الثلاثة الواجمة على الجدار، دون سقسقة أو رفيف. وعلى ما يبدو، أن هوس «أمل» بمعرفة من هم هؤلاء وصل إلى حد مرضيّ اعاد ذاكرة حنان إلى كذبة أن نسرين ليست سوى دمية. تلك الكذبة التي تُصنف على أنها بيضاء، دون الالتفات إلى إمكانية أن لا تكون سوى كذبة في النهاية، سواء كانت بيضاء أم سوداء أو حتى برتقالية، ما دام أنها ستؤدي في النهاية إلى ردة فعل عنيفة وخطيرة، تصل إلى شروع طفل في الخامسة من عمره بخنق اخته بالوسادة.

كانت الأضرار طفيفة هذه المرة، مجرد زجاج صور تمكن الولد من أن يطالها بسهولة كونها معلقة على الجدار، تحت تخت خشبي صار بإمكانه الصعود عليه وتهشيم زجاج تلك الصور بعصا أو مطرقة، وكأن ثمة طيور محبوسة هناك حقاً وأراد إطلاق سراحها. لكن، وعلى ما يظهر، أن ثمة أضرار أخرى تبدو أخطر من كون الأمر يقتصر على تهشيم زجاج صور لأطفال موتى يقال أنهم طيور ترفرف بأجنحتها في الجنة. انتظرت حنان حتى عاد «أمل» من المدرسة. أجلسته إلى جانبها على السرير في غرفة النوم، وأخبرته أن أصحاب الصور الثلاثة، طيور الجنة المعلقين على الجدار هم أخوته، لكنهم أموات، وكانت قد بدأت كلامها بمقدمة تعزو فيها الاسباب التي تجعل الأطفال الموتى طيوراً في الجنة إلى كونهم دونما خطايا، وأنهم أبرياء من كل دنس وأنقياء إلى درجة السمو، لذلك يرفعهم الله إلى مرتبة الملائكة. فهم طوافون دائماً

بأجنحة جميلة وناعمة، هناك في السماء حيث لا مكان يلائم لطافتهم سوى الجنة.

هنا سأل «أمل» أمه بالتبني:

«كيف ماتوا؟».

ربما كان عليه أن يعرف في البداية ما هو الموت، لكنه كعادته في كل مرة يركز على الاسباب، وعدا ذلك ليس ثمة شيء بالنسبة له وهو بعمر السادسة يمكن أن يؤدي إلى الغياب ولا يكون موتاً. وبدلاً من أن ترتكب خطأ جديداً هذه المرة، أو حتى تحدث شرخاً في قناعة «أمل» حاولت حنان الابتعاد عن الإجابات التي تبدو فيها وكأنها تعزي نفسها. الإجابات التي انتحلتها من مواساة الآخرين لها. فعندما يموت طفل في سنته الأولى أو الثانية، سيكون من دواعي التهوين على الأم أن يُطلب منها أن لا تحزن، لسبب مفرح هو أن طفلها الآن عبارة عن طير في الجنة، يجوب السماء بجناحين من زغب ملون.

بعد تلك المقدمة القصيرة التي تعنى بالأطفال المزعجين الذين يحشرون أنوفهم في كل شيء، قالت حنان:

«لأن هذا هو بالضبط ما يجب أن يحصل».

تبدو إجابة غامضة من تلك الإجابات التي يورط المرء نفسه فيها بدلاً من نسبة نفسه إلى الجهل، وهو استغباء واضح ربما من غير الملائم أن يكون هدفه طفل في السادسة من عمره يريد أن يعرف كيف مات أخوانه من الرضاعة.

«لماذا؟».

أيضاً لماذا. هذه الكلمة الباحثة أبداً عن الاسباب. السؤال الأزلي

الذي ينقش نفسه على حجر كل زمان وفي كل مكان: لماذا نشرب الشاي؟ لماذا سمي البحر الميت؟ لماذا تخليت عني يا أبتاه؟ لماذا نحب؟ لماذا لون السماء أزرق؟ لماذا خلقنا الله؟

«لا أعرف...» ثم جذبت أمل إليها وأكملت كما لو أنها توشك على البكاء: «حقاً أنا لا أعرف!».

لم يعقب أمل. قطّب فقط دون أن ينظر إلى أمه. جحظ بعينيه وهو محدودب في جلسته، وقد شبك أصابع يديه وحشرهما بين فخذيه. نهضت حنان من مكانها على السرير وفتحت خزانة صغيرة ركنت في إحدى زوايا الغرفة، فسمعها بينما هي تحاول أن تخرج شيئاً من هناك، سمعها تقول بصوت طري يدل على شفقة وحنين، أن الله هو الذي أعطاهم وهو الذي أخذهم.

أيضاً، لم يسأل «أمل» إلى أين أخذ الله الأطفال الثلاثة، فقد كان منبهراً في تلك الأثناء وهو يرى حنان تفرغ أمامه مجموعة من اللعب والدمى العائدة لأطفالها الثلاثة الذين لم يسعهم الوقت لتحطيمها. لم تتفوه بحرف واحد، أو حتى توصيه بأن يحافظ عليها، وكأنها ارادت مبررا لكي تتخلص من هذه التركة والعبء التذكاري المرير الذي ارقها كثيراً، وها هي الآن تسلمه إلى محطم الدمى الذي ربما لن يستغرق وقتا طويلاً ليلهو بها، قبل ان يبدأ بإتلافها. لكنه لم يحطمها، أو أن الوقت لم يسعه لفعل ذلك، فقد اختفت فجأة، ولم يعثروا لها على أثر في البيت. فتشوا في كل مكان تقريباً لكن دونما جدوى.

بعد مرور ثلاثة أيام، عثرت حنان على تلك اللعب والدمى عندما كانت تنشر الغسيل فوق سطح الدار. وجدتها هناك مصفوفة كما لو أن

أحداً هيأها لتقلع إلى مكان ما، فقد أخذت الدمى المجسمة أماكنها في سيارات الحمل، ومن لم يسعها المكان ألصقت بالطائرات بواسطة شريط لاصق. لم تشك حنان أن «أمل» هو الفاعل فأخبرت زوجها بالأمر، وبدءا بمراقبته ولمدة ثلاثة أيام متتالية كان قد تغيب خلالها عن المدرسة بداعي المرض، وقد اضطرب نومه، ولم يعد يتغذى بشكل جيد. فلاحظا أثناء ذلك إكثاره من الصعود إلى سطح الدار في ساعة مبكرة من صباح كل يوم، ولاحظا أيضاً أنه عندما كان ينزل من السطح يكون الاستياء والغضب قد أخذا منه كل مأخذ.

في صباح اليوم الرابع، ظهرت بوادر الانفراج واضحة على «أمل» وهو ينزل من سطح الدار بعد تفقده اللعب والدمى هناك. لم يكن فرحاً ولا مستاء، إنما ظهر بهيأة من أزاح عن صدره هماً كان قد أرّقه طيلة الأيام الثلاثة الماضية. كان يشعر بالامتنان لنفسه كما لو أنه قدم خدمة لأحدهم أو اصلح عطلاً أو صحح خطأ ما وقع في وقت سابق فهرع لتصحيحه ما أن أحس أن الآوان قد حان ليفعل ذلك.

بعد أيام فقط، سألته حنان للمرة المائة عن اللعب والدمى أين اختفت، فأجابها، وكأن ذلك هو ما حدث حقاً:

«أخذها الله!».

وكما لو أنها نسيت أن تفعل ذلك في المرة السابقة، عادت الملائكة لتأخذ أليهم اللعب والدمى، فأولئك الأطفال، طيور الجنة، هم أحوج إليها منه. ولعلهم أيضاً، يكفوا عن إخافته بزياراتهم المتكررة في أحلامه.

كانت حنان على وشك إخبار «أمل» بأن الله لا ينسى، أو تكتفي

بقولها أنه لا يُسمح للأطفال الأموات اصطحاب اللعب والدمى إلى العالم الآخر، مثلما تمنع دار السينما اصطحابه إلى صالة العرض، لمشاهدة فيلم مرعب، أو كتلك التي لا تخلو من مشاهد العري. لكنها لم تفعل ذلك. لم تجرح قناعته مجدداً، قناعته التي كانت قد عززتها بجمعها تلك اللعب والدمى في كيس كبير، في الليلة التي سبقت صباح اليوم الرابع، وإعطائها لزوجها، الذي حملها بدوره إلى مكان مجهول، أو ربما وهبها لمجموعة من الأطفال الأيتام، أو رماها في الشط، أو في أقرب حاوية أزبال، ليتقاسمها عمال البلدية في صباح اليوم التالي. فعلت ذلك ليبدو الأمر في النهاية، بالنسبة لأمل، كما لو أن الله أرسل ملائكته فعلاً، لتأخذ اللعب والدمى إلى أولئك الموتى الصغار، طيور الجنة التي لا تملك لنفسها الحد الأدنى من القدرة على نقر الزجاج المحبوسة خلفه، مما جعله يعمد إلى تكسيره في محاولة بائسة لإطلاقها. ففي النهاية لا بد أن يكبر الصبي ويعرف أن الاعوجاج في الموز هو اعوجاج طبيعي، كما في الأضلاع والهلال، وليس ثمة قرود تقوم بثنيه في الموانئ ليصل إلينا بهذا الشكل، كما يتندرن بذلك العجائز الخاملات. وأن الـ «التايد» هي ماركة لمسحوق غسيل وليس كل مساحيق الغسيل تسمى «تايد» وليس كل المناديل الورقية تسمى «كلنكس» وليس كل الرز يسمى «تمَّنْ» وليس كل مشغلي الأفلام في دور السينما في البصرة عوران. كذلك لابد أن يأخذ «أمل» مسألة أن الله لا ينسى على محمل الجد في تلك الأثناء.

لم يلفت انتباه «أمل» من معالم المدينة في ذلك الحين شيئاً أكثر من مجسم أسد بابل، في الفلكة المسماة باسمه منذ العهد الملكي. وهو

نموذج مزيف قام بعمله نحات عراقي في عام ١٩٣٧ وحاكى به أسد بابل الأثري في مدينة الحلة.

المرة الأولى التي رآه فيها كان في السادسة من عمره، حينما اصطحبه جمال إلى السوق، ليشتري له حذاء من محلات باتا في شارع الوطن. فأبهره شكل المجسم، مما دفعه إلى التلفت والتوقف كل حين لإشباع نظره، من دون أن يعير لتوبيخ جمال اهتماماً، فقد كان مأخوذاً بالمشهد، وتمنى لو امتطى ذلك الأسد.

لقد بدا واضحاً أنه أسد، لذا لم يكلف «امل» نفسه عناء السؤال، والتأكد عما إذا كان كذلك، أم أنه مجسم لخنزير بري. وكما هي عادة الأطفال في مثل هذا العمر، حين يرغبون بامتلاك ما يروق لهم، حتى لو كان ذلك فيلاً أو تنيناً أو حتى ديناصور، ويتعلقون به ذلك التعلق الطفولي اللجوج، طلب «أمل» من جمال أن يشتري له أسداً. الأمر الذي أضحك جمال، فقال له مفاكهاً: عندما أذهب إلى أفريقيا سأشتري لك أسداً. منذ ذلك الحين وهو يحلم أن يمتطي أسداً. لا يهم إن كان أسد بابل أو غيره، لا يهم إن كان أسداً خشبياً أو حديدياً أو من الحجر، إنما المهم أن يكون أسداً فحسب.

لم يلحظ «أمل» الكتلة الحجرية التي ترزح تحت رحمة الأسد إلا بعد سنتين، ذلك الآدمي الذي لا يبدو أنه ميتاً، إنما خانعاً مستسلماً، لا يلوي على شيء، سوى انتظار عضّة الرحمة التي ربما يفكر ذلك الأسد البابلي بمنحها إياه أخيراً، بينما هو يجثو على صدره وينظر إلى البعيد كما لو أن طريدة أخرى، رومان أو مصريين، جذبت انتباهه في تلك اللحظة المتحجرة من الزمن. عندما سأل جمال عن تلك الكتلة، قال أنه

رجل يرمز إلى الإمبراطورية الفارسية في ذلك الوقت، في حين يرمز الأسد إلى عظمة وبطش الإمبراطورية البابلية، وتمكنها من عدوها التقليدي بتلك الصورة التي طالما أثارت حفيظة الإيرانيين حتى وقت متأخر. في حين ادعت هيلا أن هذا المجسم ليس بابلياً، إنما هو غنيمة غنمها البابليون من الحيثيون.

ازداد تعلق الصبي بالأسد خلال السنتين الماضيتين على نحو مرضيّ. صار يراه في أحلامه، ويرسمه في درس التربية الفنية ويعلق صوره على الجدران، ويحفظ اسماءه وصفاته ويقلده. يطلب من حنان وهيلا وميساك أن يروين له حكايات عنه، فتضطر الأخيرتان أن تختلقا قصصاً لتتخلصا من إلحاحه. وأحياناً يجبر جمال على محاكاته بينما هو يحمله على ظهره، زائراً مثل أسد، الطريقة التي طالما أضحكت حنان، وشعرت نسرين إزاءها بالخوف. حتى عندما يُسأل في المدرسة عن أمنيته في المستقبل يقول غير عابئ بسخرية أقرانه التلاميذ: أتمنى أن أصير أسداً! وقد وصل هوسه إلى درجة الإدعاء أمام زملاءه أنه من مواليد برج الأسد، ودائماً ما يلقي باللائمة على أمه لأنها لم تلده في الفترة بين ٢١ تموز و٢١ آب، فتوبخه ميساك قائلة بينما تشير بأصبعها إلى صورة نوفا على الجدار، بين ايقونات العذراء والزهور الاصطناعية:

«إنها أمك يا ولد!».

ثم تبين له أن ليس كل صفات الأسد محمودة، فهو في النهاية يأكل أبناءه حين يجوع. فيرد عليها قائلاً بأنه لن يجوع، حتى لا يضطر لفعل ذلك.

«ليس هناك كائن بفم ومعدة وثقب يتغوط منه لا يجوع!» تقول له.

«لن أتزوج إذن» يرد عليها

«الأفضل أن تفعل» تقول ميساك متهكمة: «لأنك ستأكل جيرانك!».

في الليل، تأرق أمل من هذه المعلومة، بالكاد استطاع أن ينام ساعتين، قبل أن يذهب إلى المدرسة خاملاً مستاء، حيث تسنى له أن يسأل هناك معلم العلوم عما إذا كانت تلك المعلومة صحيحة، فزاد هذا من همه قائلاً أن الأسد حيوان اتكالي، ينتظر من اللبؤة أن تصطاد له ليأكل، وأنه تنبل كثير النوم، غير رومانسي، وغير اجتماعي أيضاً. وعلى الرغم من كل تلك المساوئ، لم يكن «أمل» يرى في كل ما سمعه كافياً ليكره الأسد. وكان لا يزال يؤمل نفسه تلك الأمنية الطفولية بأن يكون أسداً في أحد الأيام، حتى روت له عمته هيلا قصة بشأن الشخص الذي يرقد تحت الأسد البابلي.

فعدا ذلك التفسير الذي سمعه من جمال يوماً، لم يكن أمل يتوقع أن ثمة حكاية أخرى تكمن وراء ذلك الوضع المخزي، الوضع الذي يرجح أن يكون خليعاً، أكثر منه معنياً بالصيد، بالافتراس، بالعدوان الغريزي، أو ذلك المعني بالعدوان من أجل البقاء، أو صراع جبابرة، ورغبة الحضارات التنكيلية، المتوحشة، في قضاء بعضها على البعض الآخر. ولم يمض وقتاً طويلاً حتى عثر «أمل» على تفسير ذلك الوضع في المخيال الشعبي، فهذه هي عمته هيلا تقول له، أن الأسد كان ملكاً من ملوك بابل، زنى بأخته، فمسخه الله أسداً متحجراً. عندئذ، كان بوسع «أمل» أن ينفر من أمنيته الساذجة تلك، ويشعر بالكراهية تجاه الأسد البابلي ويود لو ينسفه ويحيله إلى أشلاء انتقاماً لأخته المسكينة. كان يراه كل يوم تقريباً، في طريق ذهابه وعودته من المدرسة، يعترضه

بتلك النظرة البعيدة الجامدة، المتصيدة، فلا يتحاشى النظر إليه، بينما هو يخبر زملاءه بتلك الأسطورة الصغيرة المشاعة عنه، والتي تؤيدها نظرية العجائز القائلة بالانمساخ. كان وقتها في الحادية عشرة من عمره، وقد تغيرت فيه نظرة طفل السنوات الست، عندما كانت تحدوه الرغبة بامتطائه، ظناً منه أنه لعبة ملصوقة عنوة، وبشكل شاذ في وسط المدينة، ولم يدر في خلده أنه ربما يكون تمثال لمسخ يحرسه رجل عجوز، حتى حدثته عمته هيلا عن تلك الخرافة.

«لكن لماذا أسداً؟» «يسأل أمل مستغرباً» فتجيبه هيلا قائلة:

«وما عساه أن يُمسخ الراعي؟».

«إلى خروف!».

ليلاً، استلقى أمل على سريره، شبك أصابع يديه ووضعها تحت رأسه، وراح يحدق بالسقف، يفكر بجدوى أن يحول الله شقيقة الملك البابلي إلى جماد من حجر البازلت الأسود الصلب، ويبقيها أبد الدهر، متمددة تحت ذلك الحيوان المفترس، شرس الطباع، العضّاض، كما لو أنها عاهرة وليست ضحية. رفع رأسه والتفت إلى يمينه، حيث ترقد أخته نسرين، أصغى لأنفاسها المتلاحقة. أعاد نظره إلى السقف، نفس التفكير: لماذا يا ترى؟

«لا تفكر بالأمر» فاجأه صوت بداخله: «ستُمسخ إلى كلب!».

نهض من مكانه على السرير وراح يخطو على أطراف أصابعه باتجاه نسرين المستلقية على قفاها. تسلل إلى سريرها بهدوء. جثا فوقها على أربع. وفجأة استفاقت على صوته بينما هو يقلد زئير الأسد وبدأت بالصراخ. هرع كلا من جمال وحنان إلى الغرفة. ذُهلا من المشهد الذي

لا يزال قائماً حتى لحظة دخولهما، حيث «أمل» يجثو فوق أخته من الرضاعة ويزأر على نحو سيء، هيستيري، لكنه مصطنع لم يخرج منه ألا بصفعة تلقاها من جمال الذي أنزله من على السرير، فركض هذا ليختبئ وراء أمه بالتبني. فكانت تلك الحادثة سبباً دفع الأبوين إلى فصل «أمل» عن نسرين ليصبح لكل واحد منهما غرفته الخاصة.

في السنة اللاحقة، حدث وأن دخن «أمل» أول سيجارة في حياته. أغلق على نفسه باب المرحاض، وراح يشفط من دخان سيجارة كان قد سرقها من علبة جمال الذي ضبطه في ذلك اليوم وهو يفعلها، فأمسكه من أذنه اليمنى وراح يجره وسط تهديد وتوبيخ وتعنيف، حتى وصلا إلى الصالة حيث أجلسه على أحد التخوت الخشبية، وظهر كما لو أنه يريد معاقبته على فعلته تلك، إلا أن «أمل» أفلت منه واختبأ في خزانة الثياب في غرفته، فسمعه جمال وهو يردد من هناك وقد أوشك على البكاء:

«أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك».

وفي السنة التي تلتها، عثرت حنان في جيبه على صورة لامرأة شبه عارية، بينما هي تفتش ثيابه جرياً على عادة النساء قبل غسل الثياب. وبينما هي تهدده بتسخين السكين على نار الطباخ لتلسعه بها كان هو يصم أذنيه بسبابتيه تحت السرير ويردد:

«خلّصنا الآن نتوسل إليك يا إلهنا».

عندئذ، ومن خلال هاتين الصلاتين، انتبه جمال وحنان إلى حجم الضغط الديني الذي تمارسانه هيلا وميساك على «أمل»، تلك لتهويده وهذه لتنصيره. ومنذ ذلك اليوم، وهما يحاولان إضفاء الصبغة الإسلامية، التي لا يكاد يظهر منها سوى نسخة وحيدة من القرآن رُكنت على رف، في زاوية من زوايا الصالة منذ فترة طويلة. ولم يمضِ سوى

يوم واحد حتى جلب جمال صوراً متفرقة، منها صورة للكعبة أثناء الحج، وصورة للمسجد النبوي، ورسوم تمثل بعض الأولياء الصالحين، ألصقها على جدران الصالة، إلى جانب صور الأطفال الموتى الثلاثة. وفضلاً عن ذلك بدأ بتحفيظ «أمل» آيات الحفظ وقصار السور والمعوذات، في الوقت الذي كان من المفترض أنه حفظها في المدرسة عن ظهر قلب، لكنه، وهذا ما اكتشفه جمال وحنان فيما بعد، كان يخرج من درس الدين بداعي أنه غير مسلم، تماماً كما كانت هيلا وميساك توصيانه بذلك. أما حنان، فقد اقتطعت من وقتها واستغلت موسم عاشوراء في تلك السنة، فبدأت تروي له قصة الطف وتصحبه معها إلى مجالس العزاء النسوية، حينما كان لا يزال بوسع الشيعة تأدية طقوسهم في ذلك الوقت من عام ١٩٧٣.

خلال السنوات الخمس اللاحقة تعقدت علاقة «أمل» مع الأسود، وصار يضحك من أمنيته أن يصبح أسداً في يوم ما، من دون أن يزول عنه الكره الطفولي الذي كان قد نما في داخله منذ أن روت له عمته هيلا الحكاية التي كانت وراء مسخ الملك البابلي على تلك الشاكلة حينما كان على وشك أن يغتصب اخته. وبين فترة وأخرى، يمر بسوق القصابين، ليس بعيداً عن أسد بابل، يخوض في النفايات مع زميلين له يكبرانه بثلاثة أعوام، وسط أمعاء الذبائح والروائح الجائفة، يستخرجون محتوى معدات الخراف، ومصارين الدجاج، ويضعونها في أكياس، يتجهون نحو مجسم الأسد، يرشقونه بتلك القذارات، ويلطخون جسده بالروث. يشتمونه ويبصقون عليه: «مسخ، شيطان، زاني، تفوو على أمك!» يغضب الحارس ويتوعد باقتلاع خصيهم إذا ما أعادوا الكرة. لكنهم، في اليوم التالي، يرتقون قاعدته، ويبولون عليه: «خذ، اشرب،

تسمم، تفوو، ابن القحبة!» كانوا يغافلون الحارس، أو يستغلون غيابه وقت الغداء. يدخلون إلى الحديقة، يرشقونه بالطماطم والبيض الفاسد، وهم يكيلون له أقذع الشتائم: «ساقط، منيوك، أنت أسد أنت؟ تفوو» وعندما بلغوا سن المراهقة وعجز الحارس عن إيقافهم، صاروا يستمنون عليه: «خذ، تلقف، ابتلعها، الآن، الآن، آي!».

مات الحارس بسكتة قلبية، ولم توظف البلدية بديلاً عنه، ولا يزال «أمل» وزميلاه يمارسون تلك السادية الخرائية ضد الأسد الرابض على فريسته فوق القاعدة الكونكريتية طوال السنوات الماضية، وفي كل مرة تتاح لهم الفرصة يتبولون في بالونات ويقذفون بها وجهه، أو يتغوطون تحته: «خذ، هيا، كُل.. كُلّها!».

عندما بلغ «أمل» السادسة عشرة من عمره، صار بإمكان حنان الاعتماد عليه في بعض الأمور، كالتسوق، وايصال نسرين إلى المدرسة والاعتناء بها حينما لا ترافقها إلى المسرح في الأوقات التي تكون الأخيرة منشغلة بالتحضير لدروسها المدرسية. في حين سيكون جمال في تلك الأثناء منشغلاً هو الآخر أو مسافراً أو في المقهى. وحدث في ذلك العام أن جرّب «أمل» تذوق طعم الكحول لأول مرة في حياته، برفقة زميليه وشريكيه في عمليات التنكيل المستمرة بتمثال الأسد الرابض عند مدخل شارع الوطن. ثم ما لبث أن شرب خلال الأيام التالية أول كأس من زجاجة عرق كان زميلاه قد اشترياها ودعياه إلى مشاركتهما الشرب خلسة، في مكان ما أسفل ضفة شط العرب. وكان ذلك الكأس كفيلاً بجعله يترنح حينما صار في طريقه إلى البيت بعد غروب ذلك اليوم. وكان قد توقف في ساحة أسد بابل عندما أحسّ أن هناك من يتعقبه، ربما شرطياً يبحث عن السكارى ممن لم يبلغوا السن

القانونية ليتعاطوا المشروبات الكحولية، أو أحد متصيدي الغلمان الحلوين في المغارب. اختبئ في الحديقة الصغيرة عند مدخل شارع الوطن، ولاذ بتمثال الأسد لعدة دقائق. وما أن شعر بزوال خطر الملاحقة حتى ارتقى قاعدة التمثال وحاول امتطاء الأسد الحجري لكنه لم يستطع. راح يضرب على مؤخرته ويستحثه على العدو، بينما هو يشتمه ويبصق عليه. ففتح سحاب البنطلون وأفرغ ما في مثانته من بول، بينما هو يشتمه ويبصق عليه.

«سحقاً لك من أسد، ألا تشرب؟!».

أكمل بعدها طريقه. وخشي أن يكون أبويه بالتبني في البيت فيفتضح أمره، في وقت كان من المفترض أن يكون جمال في المقهى التي اعتاد ارتيادها في مثل هذا الوقت من كل يوم، وحنان تؤدي أحد أدوارها البائسة على خشبة المسرح وربما تكون نسرين برفقتها في تلك الأثناء. فكر بالذهاب إلى عمته هيلا أو خالته ميساك ليتلافى مواجهة ابويه بالتبني، لكنه وجد نفسه يسلك الطريق إلى محلة البجاري. لم يجد أحداً هناك سوى نسرين. أطل عليها في غرفتها ورآها مستلقية على سريرها. وعلى ما يبدو أنها نامت بينما هي تراجع فروضها المدرسية: «لا بد أنها تحلم بهوليود هأ هأ» قال «أمل» ورفع كتاباً كانت تضمه إلى صدرها. فعل ذلك بهدوء وهم بالخروج بعد أن ألقى نظرة على وجهها الساكن. فبدت كما لو أنها أكبر من أن تكون في الحادية عشرة من عمرها. تجشأ، وخطرت له فكرة أن يستحم ويجبر نفسه على التقيؤ ليغادر حالة السكر التي هو فيها. ومن ثم ينقع ثيابه بالماء والصابون لكي لا يثير الشبهة. لكنه كان أقل قدرة على فعل ذلك ما دام أنه لا يزال ثملاً بليداً ولا يقوى على السير خطوتين بشكل مستقيم. عندئذ، لم يعد أمامه

سوى أن يغلق على نفسه باب غرفته ويستغرق في النوم. تصور ردة فعل ابويه بالتبني في حال اكتشفا أمره. ثم استثنى جمال من ردة الفعل تلك بما أنه سيعود هو الآخر ثملاً، ولن يكون بوسعه تمييز ما إذا كانت الرائحة التي تنبعث من فمه إذا تكلم هي رائحة عرق أم شيء آخر. لهذا قرر أن ينام مبكراً قبل مجيء حنان التي سيكون بإمكانها تمييز تلك الرائحة بسهولة، كما في كل مرة حين تكتشف أن جمال ثمل، فتجبره على النوم في غرفة المعيشة.

عاد «أمل» إلى غرفة نسرين ليلقي عليها نظرة أخيرة قبل أن يذهب إلى النوم. رآها على ما كانت علية أول مرة باستثناء أنها كانت تثني إحدى ركبتيها. وكان من المفترض أن تكون نظرة خاطفة يطمئن من خلالها إلى أن كل شيء على ما يرام. إلا أن ثمة شيء أوقفه في مكانه عند الباب وجعله يطيل نظره باتجاه نسرين. قدحت في ذهنه صورة أو لقطة سرمدية مجتزأة من مشهد متحجّر كان قد رآه من قبل، لكنه بحاجة إلى أن يتذكر أين ومتى حدث ذلك. اقترب من نسرين حتى صار على مقربة من سريرها. كل شيء كان طبيعياً ما عدا أن تلك البنت تبدو، وكما رآها آخر مرة، أكبر من عمرها بسنوات. أضف إلى ذلك الانثناء الرهيب، أو هكذا رآه، في ركبتها. لم يسبق له أن رآها تثني ركبتها من قبل بينما هي مستلقية على ظهرها وتغط بالنوم. فجأة، تذكر تلك الانثناءة المسترخية للكتلة المتحجرة الجاثمة تحت سطوة وخيلاء أسد بابل الاسطوري، كانت قريبة جداً إلى انثناء ركبة نسرين في تلك الأثناء. اقترب منها أكثر. انحنى عليها. لم يستطع تمييز رائحتها. ربما رائحة تفاح أو مشمش. ابتسم. خطرت له ذكرى تلك الليلة قبل ثماني سنوات حينما حاول أن يقلد أسد بابل وأرعبها بزئيره. فكر أن مقلباً مثله ربما ستكون عواقبه وخيمة هذه المرة.

خلال لحظات كان «أمل» يجثم فوق أخته من الرضاعة على أربع ويزأر.

انصرف بعدها إلى غرفته. أغلق الباب، استلقى على سريره. استغرق بالتفكير حتى نام. استيقظ بعد ثلاث ساعات على صوت حنان وهي تطرد جمال السكران إلى غرفة المعيشة. ثم عاد لينام مجدداً، ويستيقظ في ساعة متأخرة من الليل. يوقظه صراخ نسرين التي كانت تنادي والدتها على نحو خال معه أنها ربما رأت كابوساً أفزعها. لم ينم بعد ذلك حتى أشرقت الشمس. كان يسمع شخير جمال النائم على الكنبة في غرفة المعيشة، وصوت حنان وهي تقرأ المعوذات والبسملات.

«لا تخافي يا ابنتي» تقول لها بينما هي تحتضنها وتحاول تهدئتها: «ستعتادين على ذلك».

يستفيق جمال ويهرع إلى غرفة نسرين، وقد تلاشى أثر السكر في رأسه. يرى بقعة دم على فراش نسرين التي غادرت السرير متثاقلة باكية ومتشبثة بوالدتها.

«ما بها؟» يسأل جمال.

«كابوس» ترد حنان بقلق مبالغ في محاولة فاشلة لإخفاء الأمر: تقول أنها رأت أسداً!».

تصحب الأم ابنتها إلى الحمام. البنت تشكو من حرقة بين فخذيها والأم تصبّرها قائلة:

«لا بأس عليك يا حلوتي، إنها المرة الأولى».

(٣)

كان جمال يعمل في مديرية الإشراف التربوي، ويؤدي أدواراً مسرحية هنا وهناك. في حين كانت حنان لا تزال تؤدي أدوارها الثانوية في مسرحيات شكسبير، وتصطحب نسرين معها، الأمر الذي أثّر فيها وجعلها تهوى التمثيل منذ فترة مبكرة جداً، فكانت ترى في والدتها النموذج المناسب الذي طالما وضعته أمامها، كمثار للإعجاب والاحتذاء كلما راودها حلم أن تكون ممثلة. وكانت تجيب دائماً على كل من يسألها من المعلمات في المدرسة والأقارب وأصدقاء العائلة عما تطمح أن تكون عليه في المستقبل، فتقول:

«أريد أصير ممثلة مثل أمي».

الأمر الذي يسترعي دائماً انتباه حنان لتفخر به على نحو زائف، وهي تعرف أن أدوار الخادمات في مسرحيات شكسبير لا تستأهل كل ذلك القدر من المباهاة، بحيث يثير فيها الشعور المسلّي بلذة الإنجاز الذي لن يكون في النهاية، أكثر مما كان عليه منذ عشرات السنين، حينما كان شكسبير يزج بمسرحياته تلك الشخصيات الهامشية، التي تؤدي أدواراً بالكاد ينتبه إليها القارئ والمشاهد، مما يُحجِّم تأثر الآخرين بها وبكونها نموذجاً يُحتذى به.

بمرور الوقت، بدأت نسرين تقلل من أهمية أن تكون والدتها على

ذلك المستوى من الحرفية، بحيث تمني النفس أن تكون على شاكلتها، ممثلة مغمورة تؤدي دور الخادمات والمنظفات والنادلات في مسرحيات شكسبير. ومع ازدياد وعيها بأن والدتها لم تكن في الحقيقة سوى تلك الصورة النمطية للشخصيات الثانوية التي لا يكاد يعبأ بها، كرهت نسرين أن تكون على ذلك النحو الذي ربما يجلب لها المزيد من السخرية الصامتة مما لم يلحق بوالدتها بعد، فراحت تبحث عن مثال آخر تقتفي أثره ليكون بالتالي نموذجها المفضل الذي تطمح أن تكون عليه مستقبلاً.

لقد أبدت نسرين تفوقاً في المسرح المدرسي، أو كما اصطلح عليه في وقتها بالمسرح التربوي، وبالتالي، كانت العروض القليلة التي قدمتها بهذا الصدد مثار إعجاب الأبوين اللذين لم يشكا أن ثمة موهبة تتمتع بها هذه الفتاة، وليس من المنصف قول أن الأمر يقتصر على كونهما يشكلان العاملين المؤثرين فحسب. فمنذ البداية، حينما كانت في السادسة من عمرها، ونسرين تظهر ميولها بهذا الاتجاه، على نحو لافت. إذ لم تبد أمنيتها في أن تصبح ممثلة أمنية طفولية تنطوي على سذاجة الأطفال وتقلبات أمزجتهم في اختيار مهنهم المستقبلية. فخلال السنوات الماضية غيرت زميلاتها في المدرسة أمنياتهن لعشرات المرات، ولا زلن يتخبطن في اختيار النموذج الذي يأملن أن يصلن إليه. فالفتاة التي كانت تطمح أن تكون طبيبة في المستقبل عدلت عن أمنيتها وصارت تمني نفسها أن تكون مهندسة. والفتاة الأخرى التي كانت تتطلع أن تكون رسامة أصبحت ترى أن من اللائق جداً أن تصبح عارضة أزياء. أما التي كانت ترى مستقبلها في الرياضة فقد جنحت بأمنيتها نحو الفن. وحدها نسرين لا تزال مصرة على أن تصبح ممثلة، لكن ليس كوالدتها التي بدأت تنفر من كونها تؤدي الأدوار المعيبة، مما أثار استياء حنان

التي لم تكن تطمح إلى أكثر من ذلك، في وقت لم تملك ما يؤهلها لمنافسة باقي الممثلات على أدوار رئيسية مثل دور دزدمونة في مسرحية عطيل، وأوفيليا في هاملت.

ولعل ما زاد من طموح نسرين وعمّق من ولعها بالتمثيل هو ارتياد السينما، فقد دأبت العائلة على الذهاب إلى السينما مرتين في الأسبوع، حيث تعرفت نسرين هناك على كلاوديا كاردينالي وإليزابيث تايلور وصوفيا لورين وبريجيت باردو وكاترين دينوف التي شغفت بها في وقت مبكر، وعلى نحو بات من الصعب أن تتجاوزه حنان لكي لا تشعر بالغيرة.

وفي الوقت الذي كانت نسرين في الحادية عشرة عمرها عام ١٩٧٩ تشق طريقها نحو عالم التمثيل من خلال المسرح المدرسي، كان «أمل» ذو الستة عشر عاما يواظب على زيارة المرأتين في بيتهما، يستمع إلى سيتا هاكوبيان وموسيقى آرام خاتشادوريان في بيت ميساك، يقرأ أشعاراً لسايات نوفا وكيفورك أمين وهوفهانيس تومانيان ويبدأ محاولاته الأولى في العزف على الدودوك وتعلم اللغة الأرمنية وقراءة تاريخ أرمينيا والاستماع إلى آيات من الإنجيل والقصص المهولة عن مجزرة عام ١٩١٥. في حين كانت هيلا تبذل جهداً مضاعفاً وهي تتبارى مع ميساك في تحبيب أكثر الأشياء قرباً إلى نفسها لتنال حظوة لدى «أمل» تلك الأشياء التي ترتبط بشكل أو آخر بكونها امرأة تريد أن تعبر عن يهوديتها من خلال الاستماع إلى أغاني فلفل كَرجي وسليمة مراد وموسيقى غوستاف ماهلر وجاك أوفنباخ وقراءة أشعار شالوم شبّازي وابراهام شلونسكي وروايات شالوم أليخم وشموئيل يوسف عجنون وقصص ديبورا بارون وزلمان شنيؤر، ومحاولة تلقين «أمل» المفردات العبرية

وفقرات من التوراة وسرد فصول من رحلة السبي البابلي والمحرقة النازية.

كان يدعوهما باسميهما دونما ألقاب وكنى، في حين كانتا هما تنادیانه بـ موشي وخاجيك من دون أن يتضايق هو من تلكما التسميتين، إنما على العكس كان يشعر بشيء من الزهو أو ربما التميز حين يُنادى عليه بثلاثة أسماء تبدو جميلة في آن معا. وبالتالي ليس ثمة داع للاستنكار طالما أن المرأتين قريبتاه ويروق لكل منهما مناداته باسم خاص.

لم تفوت المرأتان ـ هيلا وميساك ـ فرصة تواجد أمل بينهما في فترة مبكرة من حياته، لتبثا ما تحملانه من ضغائن تاريخية، ما زالتا تتبادلانها منذ سنوات مضت. فمنذ أن بلغ أمل الثانية عشرة من عمره، وصار راغباً بالتعرف على والديه الحقيقيين على نحو أقرب، وهما تحاولان إظهار من الذي أودى بحياة الآخر، نوفا أم مائير؟ وكما هي العادة حينما يتعلق الأمر بهذا الحديث، لا بد أن يكون هناك روايتان مختلفتان بشأن مصير هاتين الشخصيتين، وعليه أن يصدق إحداهما في النهاية، أو هذا بالضبط ما تطمح إليه كلٌ من هيلا وميساك اللتان بلغتا في مجهودهما من أجل استمالته حداً لا يُطاق، وهو الحد الذي ستضطر كل واحدة منهما إلى استخدام أساليب ربما لم يعد من اللياقة أن تنتهجها امرأتان بالغتان مثلهما، لا لشيء سوى إثبات أن الطرف الآخر هو الذي أملى على الظروف أن تنتهي تلك النهاية المفجعة، متناسيتان أن الطرفين اللذان تحاول كل واحدة منهما إلقاء اللائمة عليه هما في النهاية نوفا ومائير والدا «أمل» الذي يريد أن يعرف عن حياتهما وقصة حبهما

وتاريخ عائليتهما وماذا كانا يعملان، لا أن يعرف أيهما كان السبب في نهاية الآخر، ليقرر بعد ذلك من منهما سيكون موضع كراهيته ونقمته.

مع تقادم الأعوام، وحين بلغ السادسة عشرة من عمره، أصبح «أمل» يشعر بالانزعاج من التدليل الزائف الذي صار يتلقاه من عمته هيلا وخالته ميساك وأبويه بالتبني. أحسّ كما لو أنه يحتضر ويريد هؤلاء إحاطته بالرعاية ما دام أن هذه هي أيامه الأخيرة. أو أنه على وشك أن يفقد عقله ويرغب الآخرون في الحيلولة دون وقوع ذلك. في حين لا زال هو يتمتع بذلك القدر الفعال من القناعة التي تقول أن الأرض كروية ولا زالت تدور وأن الحياة فيها مستمرة وفيها الكثير من متعة الحصول على المزيد من صور العري ونجمات البورنوغرافيا الجذابات التي صار يحرص على اقتنائها منذ أن بلغ سن المراهقة.

في تلك السنة التي سبقت الحرب، وشهدت استيلاء صدام حسين على مقاليد الحكم بعد تنحي الرئيس أحمد حسن البكر، واندلاع الثورة الإسلامية التي قلبت نظام حكم الشاه في إيران، ومحاولة تصدير تلك الثورة إلى العراق من خلال أية الله محمد باقر الصدر الذي قُتل في إثرها مع شقيقته في سجون السلطة التي شنت بعدها حملة اعتقالات وإعدامات وتصفيات واسعة ودامية في صفوف الشيوعيين والإسلاميين الشيعة. في تلك السنة تحديداً، ازدادت محاولات هيلا وميساك، من أجل استقطاب «أمل» إلى جهتين، كل واحدة منهما تنافر الأخرى في كثير من الوقائع والمعتقدات، ومن ثم جذبه بواسطة العاطفة الدينية، اليد التي صارت تؤلمه كثيراً، في وقت كان ما يزال بوسعه الاستمرار بشعوره الفطري، الذي ألفه منذ أن كان صغيراً، في حال قام جمال

وزوجته بتدعيمه وبث روح الإسلام الشعائرية فيه: صوم، صلاة، حج، عبادات. لكنهما في المقابل لم يكونا متدينين، إنما كانا مثل الكثير من افراد الطبقة الوسطى المدينيين، لا يعبؤون بالطقوس والشكليات. في حين كانت هيلا من جهة، وميساك من جهة أخرى تستعملان من أجل استمالته كل ما تريانه متوفراً ويملك القدرة الكافية لحيازة ميوله ومشاعره الدينية والقومية والعرقية. فعمته كانت تستميل فيه عرق الأسباط الأربعة من بني إسرائيل، وتحاول ميساك أن تمسكه من عرق أمه الهندو أوربي. كما لو أنهما قطعتا شوطاً في سلخه من ظاهره العربي الإسلامي، ثم تفرغتا بعد ذلك للتباري من أجل كسبه. وكما أنه لم يخرج من شق في الأرض كذلك توجب عليهما بذل المزيد من الجهد من أجل إيصال فكرتين، وإن اختلفت إحداها عن الأخرى، إلا أنهما وفي كل الأحوال تركزان على انحداره من أصول غير تلك التي وجد نفسه مرتبطاً بها بواسطة أبويه بالتبني المسلمين. وهو أمر لم يكن «أمل» لينكره، لكنه من جهة أخرى أو هكذا يبدو، بدأ يتعامل مع الأمر بالشكل الذي يضمن له أن يكون بمنأى عن قيوده، ومن دون أن يرغم نفسه، حتى وإن تخلى عن كونه مسلماً بالفطرة، على اعتناق أي وجهة من وجهتي النظر الدينيتين اللتين ما زالتا ـ هيلا وميساك ـ تبرزان المزيد من المزايا الطامحة لاجتذابه إليها.

في تلك الأثناء، كان «أمل» يعرف أن هيلا يهودية وميساك أرمنية. يعرف ذلك فحسب، من دون أن يفكر في المعنى الداعي إلى أن يكون مثلهما، ولماذا وكيف ومتى عليه أن يكون كذلك، إذا كان هناك فعلاً ما يستدعي ويكون ضرورياً، لينتهي بالتالي إلى حالٍ من تلك الأحوال التي كان يرى هيلا وميساك عليها منذ طفولته المبكرة. كان ينفذ طلبهما في

الخروج من حصة الدين الإسلامي في المدرسة، دونما معرفة مسبقة في جدوى أن يفعل ذلك، سوى أن سيتلافى خوض امتحان الدين في نهاية السنة، مع أن المرأتين كانتا تحاولان على مدى السنوات الماضية إفهامه وعلى نحو أقرب إلى المنافسة أن هذا هو بالضبط ما يجب أن يكون عليه. فهذه تريده أن يكون يهودياً وتلك تريده أن يكون مسيحياً حسب مفهوم الأقليات المؤثرة، لذا تحاول كل واحدة منهما تشذيب وجهة نظرها لتكون في النهاية متسقة ومرنة إلى حد ما تجعلها محط القبول والاستحسان. بينما أبواه بالتبني يريدانه ان يكون مسلماً حسب مفهوم الأكثرية الذي كلما أرادا أن يدلا على أنه لا يكترث بمنظور الأقليات لوّح أحدهما ببطاقة الأحوال المدنية. هيلا تريده أن يكون إسرائيلياً وميساك تريده أن يكون أرمنياً وفق ما يمليه مفهوم الجاليات عليهما، بينما يتحدث كل من جمال وحنان من منطلق أهل البلد، إذ ما يزال مصطلح السكان الأصليين يفتقر إلى الكثير من المصداقية إذا ما عُني به غير أولئك الذين استوطنوا بلاد ما بين النهرين قبل آلاف السنين.

في أيلول ١٩٨٠، كانت الحرب مع إيران قد أُعلنت بشكل رسمي لم يعد يجدي معه نفعاً سعي الأمم المتحدة في إيقاف العنف الدائر على الحدود بين البلدين اللذين كانا يبالغان بداية في تقدير خسائر الطرف الآخر جراء الضربات الجوية المتبادلة، أو هذا ما كان يسخر منه البعض منذ أن أُذيع خبر في التلفزيون العراقي يفيد بإسقاط نحو ٦٨ طائرة حربية إيرانية أثناء الغارات التي شنها سلاح الجو الإيراني في الأيام العشرة الأخيرة من شهر أيلول ١٩٨٠ رداً على الهجوم الذي بادرت به المقاتلات العراقية على القواعد الجوية في العمق الإيراني قبل ذلك بيوم واحد.

كان «أمل» في حينها يسمع أخبار الحرب ويحاول أن لا يكترث.

يلهي نفسه بالقراءة، والتدخين، والهروب من المدرسة إلى السينما، ومطالعة صور العاريات التي يتبادلها مع أصدقاء يصحبونه لفترة من الزمن، ثم سرعان ما يختفون. كان، كأغلب العراقيين في ذلك الحين، يظن أو يحاول تصديق ما يردده الأهالي بشأن ما كان يحدث في وقتها، على أنه حدث مؤقت بسبب خلاف حدودي وسينتهي قريباً، قبل أن يعود كل شيء عمته الفوضى إلى مكانه المعتاد قبل أزمة إلغاء العراق لاتفاقية الجزائر المبرمة مع إيران، ثم سرعان ما سيتبادل البلدان الأسرى فيما بينهم، ثم وعلى حين فجأة يتبارى فريقاهما الوطنيان لكرة القدم، وتعود المجلات الخلاعية بالتدفق من جديد. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث إلا بعد مرور ثمان سنوات، إذ كانت الأمور تزداد سوءاً وتنذر بقيام أعنف حرب شهدها القرن العشرون منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية، خصوصاً مع زحف القوات العراقية نحو خوزستان الإيرانية وعبورها شط العرب وتقدمها نحو الشرق بعد عبورها نهر كارون واحتلالها مدينة خرم شهر قبل أن توقف تقدمها قبالة مدينتي ديزفول والأهواز. في الوقت الذي كانت الدفاعات الإيرانية تقاوم الهجوم العراقي في قواطع كَيلان غرب ومندلي وقصر شيرين والشوش، في حين كان الجانب الإيراني يتقدم في الجنوب نحو ميناء البكر النفطي قبالة السواحل العراقية ويحتله قبل أن يستعيده الجيش العراقي بعد يوم واحد.

كان «أمل» يسمع عن قرب احتلال المدينة تزامناً مع كل هجوم تشنه القوات الإيرانية التي تخترق الدفاعات العراقية في أحيان كثيرة، وتدخل إلى عمق يتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ كيلو متر، حيث يكون بإمكان المدفعية الإيرانية أن تطال بقذائفها أكبر مساحة ممكنة في الداخل، خصوصاً

البلدات المتاخمة لشط العرب ومنها مركز المدينة، قبل أن تقوم القوات العراقية باستعادة تلك الأراضي المحتلة، وتجبر الإيرانيين على التراجع خلف الشريط الحدودي بين البلدين، لتمر بعدها المدينة بفترة هدوء نسبي يتخلله الحذر من مباغتة الإيرانيين بهجمات وموجات قصف جديدة.

وبعد كل قذيفة تسقط في الجوار كان «أمل» يراقب ذويه وانفعالاتهم وردود أفعالهم، حنان على وجه الخصوص التي كانت تقرض أظفارها بأسنانها وهي تردد بصوت متهجد: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً....) كما لو أن موجة من البرد أثّرت في ترديدها لكلمات تلك السورة القرآنية وجعلتها تقطعها وتنتهي عند الحد الذي يشي بأنها، ومن فرط الخوف والتوتر، لم تعد قادرة على تتمة البقية من الآيات، فيكملها جمال بصوت جهوري متوتر يحاول أن يُظهر بعض الشجاعة التي من المفترض أن يتحلى بها الرجال، لا سيما رب الاسرة، في مثل تلك المواقف. لكنه، وعلى الرغم من ذلك، يبدو أقل حنكة حتى وهو يحاول أن يثبت، لنفسه على الأقل، أنه لم يكن يرتعش من الخوف بينما هو يردد: (فأغشيناهم فهم لا يبصرون...).

على أية حال، لم يكن الأمر يستأهل من المرء كل ذلك الجهد في إظهار أنه ليس خائفاً، فمجرد سماع صفير القذائف وهي تشق طريقها في الهواء قبل أن تسقط لتخلف عدداً من القتلى أو تشيع الدمار في بيت أو شارع أو مدرسة أو جسر على نهر من أنهار البصرة الكثيرة، ودائماً ما يحدث ذلك ويُشار على أنه أقل التقديرات، سيكون كافياً لأن يتخلى المرء عن بسالته المزعومة. فالقذائف لا تقاتل ولا تعير للمواجهة أهمية

تذكر، بقدر ما تمتلك تلك القدرة المُفاجِئة على القتل العشوائي الذي لن ينفع معه ما يتردد عن شجاعة الفرسان الذين ينتظرون الموت خلف السواتر الأمامية.

ويتكرر دائماً ترديد الآيات التوراتية والإنجيلية في بيتي هيلا وميساك حينما تتعرض المدينة إلى القصف ويتزامن ذلك مع وجود «أمل» في بيت إحدى المرأتين اللتين لم تخالفا عادات البصريين (ممن لا تتوفر في بيوتهم السراديب والملاجئ) بالاحتماء تحت السلم. إلا أن هيلا كانت تهز رأسها إلى الأمام والخلف وهي تترنم بتراتيل عبرية، وقد أغمضت عينيها وشبكت أصابع يديها إلى صدرها، حتى أنها تبدو في كثير من الاحيان كما لو أنها تمارس صلاتها عند حائط المبكى. وأما ميساك فقد كانت تصلي صامتة وتغمض عينيها ايضاً أثناء ذلك، وقد تتحرك شفتيها أحياناً، وعدا ذلك لا تفعل شيئاً سوى رسم علامة الصليب بين دقيقة أو أخرى.

كانت حنان أكثر فرد في العائلة فزعاً في تلك الأوقات، فما أن تتناهى إلى أذنيها البوادر الأولى لموجة قصف جديدة حتى تهرع مسرعة وتختبئ تحت السلم الصاعد إلى السطح، المكان الذي طالما لاذ به البصريون كلما تعرضت المدينة إلى القصف أثناء الحروب. ومن هناك، تبدأ بمناداة «أمل» ونسرين وزوجها الذي لم يكن ليحتمي بذلك المكان ما لم يتأكد أن موجة القصف تلك ستكون عنيفة حقاً، فعادة ما يلتحق بأفراد أسرته تحت السلم مع القذيفة الثالثة أو الرابعة من القذائف التي تسقط على مقربة من البيت.

لقد تشوّه منظر أصابع حنان في سنوات الحرب الأولى، وكانت

تدميها في بعض الأحيان بينما هي تقرضها بأسنانها حينما تكون هناك موجة قصف، في حين لم تصل ابنتها نسرين إلى الحد الذي يجعلها تفعل ذلك، لكنها كانت تصم أذنيها فقط، وتفعل ذلك بسبابتيها، وتبدي حاجتها إلى من تتشبث به في ذلك الحين. كانت تشعر بالاستياء من والدتها لأنها دائماً ما تكون عاجزة عن فعل شيء سوى قرض أظفارها وترديد آيات من سورة يس على نحو متخبط، فهي لا تحتضنها مثلاً، كما تفعل الأمهات في مثل تلك الأوقات العصيبة التي يحتاج فيها الأصغر سناً من بين أفراد الأسرة إلى من يشعره بالأمان. لم تكن تهون عليها الأمر أو تحاول التقليل من وطأة ما كان يشعرها في تلك الأحيان بأن حياتها ستنتهي في غضون ثوان ستكون كافية بالنسبة لقذيفة إيرانية أن تجعل منها أشلاء مبعثرة تحت ركام السلم. ومثلما كانت حنان تبين عجزها عن احتضان نسرين في تلك الأوقات، كذلك يبدو جمال الذي صار معروفاً لأفراد عائلته السر وراء تركه المكان تحت السلم أثناء القصف، فقد كانت معدته تضطرب ويتجمع البول في مثانته على نحو لا يُحتمل، وتحديداً في تلك الأوقات التي يفضل فيها الموت على أن يفعلها في مكانه تحت السلم أمام أفراد أسرته، فيهرع إلى المرحاض غير آبهٍ بصراخ حنان التي ما أن علمت بالأمر حتى كفت عن توبيخه كلما عاد وقد انجلت الصفرة عن وجهه، وبدا كأنه صار مستعداً للموت في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى يكون فيه ميتاً وسرواله مبللاً. لذا لم تجد نسرين، وهي الفتاة الأصغر سناً بين أفراد الأسرة والأحوج من غيرها إلى من يرعاها ويضم رأسها إلى صدره أو يحشره بين ذراعيه، لم تجد سوى أخيها الذي يكبرها بخمسة أعوام. أخوها من الرضاعة الذي أرادوا إيهامه حينما ولدت من أنها دمية فكاد أن يقتلها.

وكان يحملها أو يجلسها بمواجهته في حضنه وهي بعمر ستة اشهر فيزعجه عبثها الدائم بحلمتي صدره. ها هي الآن تزحف على ركبتيها في عتمة المكان وتستلقي عليه فيحتضنها ويطوقها بذراعي الأخ الذي يبدو حينئذ كما لو أنه خائف هو الآخر وربما أكثر منها حاجة إلى شخص يلتصق به، في وقت كان يخيّل إليه أنه على وشك السقوط من علوّ شاهق بينما هو يسمع كلمات الآيات القرآنية المتعثرة التي تغرغر في فم والدته كشهيق المحتضر، ويفكر بجدوى أن يفضل والده الموت بطريقة بشعة في المرحاض على أن يبلل ثيابه ويتغوط أمام عائلته تحت السلم.

كان «أمل» يجذب نسرين إليه بقوة مؤلمة. لا قوة النخوة التي عادة ما يميل الأخ الأكبر إلى إظهارها في مثل تلك الأوقات ليشعر أحدهم بالأمان، وإن يكن ذلك على نحو يبدو فيه المرء مرائياً أكثر منه ملبياً لدعوة النجادة، إنما هي قوة الخوف الذي يجتاح الصغير والكبير على حد سواء ويجعله بحاجة إلى من يكون لصقه في ذلك الحين، يسمع نبضه ويشم رائحته الآدمية ويشعر بحرارة الدم الذي يجري في عروقه، الأمر الذي يبدو أن الاثنين كانا بحاجة إليه في الوقت نفسه. فكانت نسرين تسمعه يردد كلمات مبهمة عدا الآيات القرآنية التي كانت واضحة. ربما هي كلمات الآيات التوراتية والإنجيلية التي تعلمهما من هيلا وميساك في فترة سابقة وكان يرددها في الأوقات التي يكون فيها متوجساً من شيء ما. كانت تشم رائحة التبغ الممتزجة بالعطر في ثيابه ولا تفكر بالوشاية به أمام أبويها. تشعر بنبضه على أصابعها وهي تتشبث برقبته، وتسمع قرقرة بطنه في صمت اللحظات التي تعقب انتهاء كل موجة قصف، وتنعم بدفء صدره وملمس يده التي يمسح بها على شعرها كنوع من التطمين. وأحياناً، كانت تشبك أصابع يدها اليمنى بأصابع يده

اليسرى وتستمتع بذلك الشعور المبهم الذي دائماً ما يترك أثره الدافئ في روحها. حتى أنها صارت تتمنى مؤخراً لو ازدادت حدة الانفجارات ليزداد معها ضغط أصابعه على كفها ليصل بالتالي حد الإيلام. وكانت كلما شعرت بقرب انتهاء موجة القصف تغفو على صدره، بينما يبدو واضحاً لـ «أمل» أنها تتصنع النوم في تلك اللحظة، إذ كلما أرخى أصابعه ليعتق يدها تضغط هي على يده بشدة وتجذبها إلى صدرها، كما لو أنها تقول له لا تتركني. تفعل ذلك على نحو ما تفعله طفلة تتأرجح بين اليقظة والمنام، وحين تشعر أن ثمة من بدأ يسحب دميتها من بين ذراعيها تتشبث بها أكثر وتحتضنها بقوة، ثم تفتح عينيها الناعستين لتلقي نظرة اعتراض قبل أن تعود لتغفو ثانية وهي غير مطمئنة بشأن تلاشي خطر أن يكون هناك من يريد أن يسلبها دميتها، وكما لو أنها اعتادت على ذلك، صارت تفتقد تلك الحميمية حينما يكون هو غائباً عن المنزل أو في بيت هيلا أو ميساك فتكتب له الرسائل، عشرات الرسائل التي تجد طريقها إلى جيوبه يومياً. كانت تشتاق إلى ضمته المؤلمة وضغط أصابعه على أضلعها، فلا تفعل شيئاً سوى صم أذنيها بسبابتيها وإغماض عينيها لكي لا ترى انشغال والديها بنفسيهما، هذه تقرض أصابعها وتتلو المعوذات بصوت مرتجف، وهذا يتحين الفرص للذهاب إلى المرحاض لكي لا يبول على نفسه وتحدث الفضيحة. حتى أنها صارت تلجأ مؤخراً إلى غرفته، تشم ثيابه أو تتطفل على أشيائه المبعثرة هنا وهناك، وتترك في جيوب ملابسه المعلقة على الشماعة رسائلها التي دائماً ما تجد طريقها إلى سلة النفايات بعد أن يقرأها ويمزقها ويندب حظه مراراً لأن فتاة مراهقة تسكن معه في البيت نفسه، ومن المفترض

أنها أخته، تظن أنها مغرمة به، من دون أن تعي معنى أن يكونا أخوين بالرضاعة.

كانت نسرين تندس في فراش «أمل» وتعانق وسادته. قد تغفو أحياناً، وأحياناً أخرى تتصنع ذلك كما تفعل تحت السلم أثناء القصف، حينما تسمع الجلبة التي يحدثها بمجيئه فتواصل إيهامه بأنها نائمة، حتى يوقظها ويصرفها بهدوء واحيانا يضطر إلى حملها إلى غرفتها. وفي أحد الأيام، حين أرادت نسرين مغادرة غرفة «أمل» أحست أن ثمة شيء يخشخش تحت الوسادة. كانت تلك صورة خليعة مجعدة، حين رأتها نسرين ذُهلت وشهقت ووضعت يدها على فمها وبدت كما لو أنها تكتم صرخة وشيكة. إذ لم يحدث أن رأت من قبل جسد امرأة عارٍ سوى جسدها الذي صارت راغبة في الفترة الأخيرة برؤيته والعبث به أمام المرآة، أو في الحمام منذ أن بدأت تزيل الزغب النابت فيه. وكانت تلك الصورة ما تزال رطبة وثمة رائحة انبعثت منها وأثارت فضول نسرين، فقربتها من أنفها وشمت رائحتها.

لم تعثر نسرين على صورة أخرى، إذ اعتاد «أمل» على إتلاف كل ما يحصل عليه من مواد إباحية، ودائماً ما يفعل ذلك في فورة من ندمه، أو حينما يشعر بتلك الطمأنينة الضئيلة التي يوفرها له إقدامه على التوبة. لكنه، وكما في كل مرة يهجر فيها عاداته المشينة تلك، سرعان ما تعود الصور الخليعة لتخشخش في جيوبه أو تحت وسادته.

لم يكن من السهل على «أمل» الحصول على تلك المواد من مرئيات: صور، أفلام فيديو، صور موديلات عارية، لكنه واستجابة لرغبة تبدو واضحة المعالم إذا ما أُريد تصنيفها على أنها رغبة قهرية في

اقتفاء المواد الإباحية ومشاهدتها، ويحصل ذلك عادة بشكل إدماني طالما أهله لأن يكون أحد ضحايا الفكر الجنسي، كان يبذل جهداً استثنائياً من أجل الوصول إلى المصدر، وكان يصل بالفعل، عن طريق أصدقاء ووسطاء وخبرة كانت قد تراكمت منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره، حيث بدأ مشواره بجمع الصور شبه العارية للممثلات وعارضات الأزياء والسيقان والأفخاذ والصدور العارية في مغلفات الجوارب والثياب الداخلية النسائية وثياب النوم. وكان ينفق في سبيل ذلك المال، علاوة على الوقت الذي أخذ يقتصر أغلبه على مطاردة ومشاهدة تلك المواد أكثر من ذي قبل، عندما كان يقضي أوقاتاً متفرقة مع العائلة وفي ممارسة هواياته وواجباته المدرسية والبيتية. كان يشعر أن ثمة شيئاً يوخز مقدار الاتزان الذي من المفترض توفّره في شاب بلغ السادسة عشرة من عمره، لكنه لا يزال يظن أن حياته ستنتهي عند الحد الذي يكون فيه عاجزاً عن الحصول على صورة خليعة أو فيلم بورنوغرافي جديد. وإضافة إلى كل ذلك هناك الوازع الأخلاقي الذي كان يتحرك في داخله ويقاومه بالتسامح والاعتياد البليد على تعاطي الإباحية، الوازع الذي دائماً ما يترك أثره بعد فوات الأوان، ليبدأ «أمل» بتمزيق واتلاف كل ما حصل عليه، ويمضي أياماً لا يلتفت فيها إلى شيء سوى العيش دونما إسراف لا أخلاقي ينافي حقيقة أنه إنسان سوي، والتركيز على التوبة التي عادة ما تكون، وبعد مضي تلك الأيام، هشة إلى حد يشعر فيه بذلك الخطر الذي يشبه أو يقترب كثيراً من الخطر المحدق بشخص يحتضر لكي يتلافى الموت توجب على أحدهم أن يأتي له بعشبة سحرية تبرأه مما هو فيه من مرض. العشبة السحرية التي، وفي كل الأحوال، تكون عبارة عن صورة خليعة أو فيلم بورنو

يتشفى «أمل» من خلاله بشيء مجهول قد تكون نفسه أو عقله الباطن الرافض لسلوكه البهيمي المنفلت، ودائماً ما يحدث ذلك بمدد غريب وإيعاز خفي يستفزه على نحو قسري يجعله يعتقد مراراً أنه يحتاج إلى المزيد من تلك المواد الإباحية والمزيد من التنوع وبطريقة أكثر شيوعاً وتتابعاً من أجل الحصول على قوة الاندفاع نفسها.

هكذا، وفي كل مرة يهجر فيها «أمل» عاداته السيئة، يعود إلى ممارستها على نحو يبدو أخطر مما كان عليه سلوكه في المرات السابقة، إلى درجة أنه، ولكي يحصل على مبتغاه، لم يجد بأساً في سرقة المال من هيلا وميساك وأبويه بالتبني ليوفر بذلك أثمان المنتجات الإباحية التي تجد، في كل زمان ومكان وكحال الكثير من الممنوعات كالمخدرات، من يروج لها بشكل سري ويوصلها إلى المستهلكين ممن هم على شاكلة «أمل» الذي صار يعاني من فرط الرغبة التائقة لحيازة مثل تلك المنتجات المحظورة في بلدان الشرق العربي، لكنه لم يترك يوماً شيئاً يدينه بهذا الصدد، على الأقل منذ أن بدأ يعي معنى عثور أحدهم على صورة خليعة تجدد شعوره الفادح بالخيبة الناتجة عن الفعل التنكيلي، عندما يجد المرء أن ثمة من صار يرغب في إحداث ذلك الجرح الغائر في كرامته من خلال اقتحام خصوصيته.

(٤)

كانت البصرة، ومنذ السنوات الأولى على بدء الحرب مشروع احتلال دائم من قبل الإيرانيين، وقد تعرضت إلى العديد من الهجومات كان أبرزها بعد استعادة إيران لمدينة خرم شهر، وتحديداً في شهر يونيو ١٩٨٢، عندما حشد الجانب الإيراني قوات الباسيج والباسداران في واحدة من أكبر المعارك البرية شراسة منذ عام ١٩٤٥، وكانت المدينة قد تعرضت أثناء ذلك إلى أكثر موجات القصف عنفاً من قبل المدفعية الإيرانية، وعلى الرغم من ذلك لم تترك عائلة جمال مكان إقامتها في محلة البجاري. كذلك ميساك التي كانت تقطن بيت العائلة الكائن عبر النهر في محلة العزيزية. أما هيلا فلا تزال تسكن في تلك الأثناء بيت زوجها المتوفى في البصرة القديمة، بعد أن صادرت السلطات بيت العائلة مع ما صودر من ممتلكات اليهود البصريين منذ عام ١٩٤٨.

صادف دخول «أمل» إلى الجامعة في تلك السنة، بالكاد أدخله ما حصل عليه من معدل في الامتحانات النهائية إلى كلية الآداب، قسم اللغة الإنكليزية، ليس كما أراد له أبواه بالتبني خصوصاً حنان التي كانت تطمح إلى دخوله كلية الفنون الجميلة. في حين لم تجدا كلٌ من هيلا وميساك بأساً في كونه وصل إلى هذه المرحلة، ما دام أن ذلك سيحول دون سوقه إلى الجندية في وقتٍ كانت الحرب قد بلغت ذروتها. أما

نسرين فكانت قد بلغت الرابعة عشرة في تلك السنة، وكان طموحها أن تختصر الطريق والتخلص من أعباء الدراسة في الأعوام الأربعة القادمة بدخولها معهد الفنون الجميلة في السنة المقبلة، وقد ازداد ولعها بالتمثيل ووصل طموحها في أن تصبح ممثلة مرموقة إلى درجة كبيرة جعل شعورها بالخجل يزداد من كون والدتها ممثلة ثانوية لا تجيد سوى أدوار الخادمات في مسرحيات شكسبير. فقد كانت تتخيلها كما لو أنها خادمة حقيقية تجوب البيوت بثياب متسخة رثة تفوح منها رائحة الثوم والتوابل وبول الأطفال الرضع، في يدها مكنسة أو طنجرة ويعلو الغبار شعرها كما تبدو في إحدى الصور التي التقطت لها في إحدى البروفات ونشرتها صحيفة محلية في حينها، ووافق أن وقعت نسخة من تلك الصحيفة في أيدي زبونة متطفلة في صالون الحلاقة الذي كانت تتردد عليه حنان برفقة نسرين بين فترة وأخرى.

كانت المرأة تنظر إلى حنان ثم تبحلق في الصحيفة من جديد لتتأكد أن صاحبة الصورة هي نفسها المرأة التي تجلس أمامها وتنتظر دورها أثناء ذلك.

«عفواً...» قالت المرأة بإلحاح: «هذي أنتِ لو انا متوهمة؟».

أدارت المرأة الصحيفة كأنها ترفع لافتة في مظاهرة. عندئذ، رأت حنان صورتها ولم تصدق. ناولتها المرأة الصحيفة وقد بدت كأنها تدعوها لتجرب فعل شيء لتصدق أنه حقيقة، فتناولتها حنان التي كانت لا تزال مرتابة من الأمر وراحت تمعن النظر في صورتها بالأبيض والاسود وتمرر سبابتها على ملامحها لتتأكد ما إذا كانت تلك هي فعلاً. كانت مندهشة وهي تقول لنسرين المتذمرة من وجودها في مكان يعج بالنساء المهذارات:

«شوفي ماماتي هذي أمك؟».

اغتاظت نسرين كثيراً وهي ترى صورة والدتها التي كانت ترتدي ثياب الخادمة وتمسك مكنسة بيدها وتبتسم للمصور. ودت لو أنها تمزق الصحيفة وترميها بوجه حنان موبخة إياها على ردة فعلها التي بدت كردة فعل امرأة ظنت نفسها ميريل ستريب في فيلم كرايمر ضد كرايمر وليست ممثلة بائسة لم يزل دور إيميليا خادمة دزدمونة في مسرحية عطيل أهم أدوارها المسرحية منذ أن قررت أن تصبح ممثلة.

لم تأبه نسرين لكل ذلك، وقد أبدت امتعاضها بشكل واضح، وأشاحت بوجهها ناحية أخرى بينما هي تعلك لباناً وتعمل منه بالونات وتفرقع بها بوجوه نساء الصالون بطريقة إن دلت فإنها تدل، بالنسبة لتلك النسوة على الأقل، على وقاحتها، لكن في الحقيقة أن نسرين كانت متوترة. حدث ذلك من دون أن تشعر حنان بعدم اكتراث ابنتها للأمر، فقد كانت لا تزال تنعم بغبطتها على نحو ساذج كان أقرب إلى ما يظهر عليه الأطفال عادة حينما يجدون من يُفاجئهم بشيء مفرح، وقد شاركنها نساء الصالون بلاهتها، وكن يعلمن أن ذلك سيوفر المتعة التي من شأنها أن تطرد الملل حتى يحين دور كل واحدة منهن. في حين ستبقى حنان في نهاية الطابور، إذ ما زالت مبهورة بصورتها التي اقتطعتها من الصحيفة وبروزتها وعلقتها على أحد الجدران في غرفة النوم، غير آبهة باعتراض نسرين التي لم تحتمل أكثر من ذلك الغيظ الذي يكاد يشق صدرها. فصرحت في لحظة غضب أمامها أنها تكرهها. ومنذ ذلك اليوم وعلاقتها بأمها تشهد توتراً واضحاً من النادر العثور عليه بين أم وابنتها على هذا النحو الذي لاحظ جمال أنه وصل إلى درجة خطيرة لا يمكن

التغاضي عنها، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع الحيلولة دون تأزم تلك العلاقة. في حين كانت علاقة نسرين بـ «أمل» تتطور وتزداد حميمية خصوصاً في الأوقات التي تتعرض فيها المدينة للقصف وتكون هي لصقه تحت السلم متشبثة به تشبث القارب بالمرسى. إلا أن «أمل» بدأ يبعدها عنه في الفترة الأخيرة ويوبخها بقسوة كلما وجدها نائمة في فراشه أو عثر على رسالة منها في جيبه. كان ينأى بنفسه بعيداً عن جو العائلة. أطلق لحيته وصار انطوائياً على نحو مفاجئ، لا يأكل كثيراً ويغلق على نفسه باب غرفته طيلة الفترة التي يكون فيها في البيت.

* * *

منذ أن بلغت نسرين الخامسة وحنان تتعامل معها كما لو أنها صديقتها، وتحاول أن تنشئ علاقة خلاف ما هو متعارف عليه في العلاقات الأسرية. لهذا، كانت تظن أن ما تمر به ابنتها هي غيرة فتاة مراهقة مغرورة ومتعجرفة، إذ يحدث، وإن يكن ذلك على سبيل الندرة، أن تغار البنت من أمها في مثل هذا العمر، من دون أن يكون لصلة القرابة بينهما تدخل يحد من غرور الابنة التي ربما صارت ترى في والدتها تلك الصديقة الحقودة التي تريد أن تسرق منها بريقاً بدأ يلمع مؤخراً. ففي الفترة التي أعقبت ذهابهما إلى صالون الحلاقة وعثور حنان على صورتها المنشورة في الصحيفة، في صفحة الأخبار الفنية، حدثت عدة أمور لم تكن نسرين تستطيع إبعاد أصابع الاتهام التي كانت تُوجّه إليها في تلك الأحيان، بل بدت متعمدة في إظهار إنها هي من رفعت صورة الخادمة في غرفة النوم وألقتها على الأرض مما أدى إلى تهشم زجاجها، وقامت بقص حمالات الصدر العائدة لحنان وتشويه صورها

باقتطاع منطقة الصدر أو إخفائها بقلم أحمر شفاه أو طلاء أظافر، وفضلاً عن ذلك، كانت نسرين قد رسمت أمها من دون ثديين قبل أن تشيع بين زميلاتها في المدرسة أن والدتها مصابة بسرطان الثدي وأن الأطباء استأصلوا ثدييها، وهذا بالضبط ما سمعته حنان من أم صديقة لنسرين كانت تسكن على مقربة منهم، وسمعته من أخريات في اجتماع الآباء والأمهات في المدرسة.

كل تلك التصرفات، وحنان لا تزال تظن أن الأمر لا يعدو عن كونه تصرفات حمقاء وغير واعية نابعة من غرور وحسد طفولي مهما بلغ من بشاعة لكنه يبدو بريئاً إذا ما أُخذ عمر نسرين بعين الاعتبار، وما تمر به من مراهقة لا تبدو طبيعية وهي تعمد إلى قص حمالات صدر والدتها وتمني النفس في استئصال ثدييها. لهذا، قررت حنان أن تعالج الأمر بما تقتضيه الحكمة التي من المفترض توفرها في أم واجهتها ابنتها بقول: أنا أكرهكِ! وقد رأت أن ثمة مكروه سيقع في النهاية، حين ستزداد غيرة نسرين وتحاملها عليها، إن لم تضع حداً لكل ما يحدث بينهما.

بدأت حنان في تلك الأثناء تتعامل مع نسرين وفق مبدأ «خذ المرء على قدر عقله» غير مدركة أن ابنتها بلغت عمراً صارت تعي معه معنى الأشياء خلاف ما كانت تفهمه أو حتى تتوهم أنه الحقيقة قبل ذلك بسنوات. وبمعنى آخر، كانت نسرين لا تزال ـ في نظر حنان على الأقل ـ تلك الطفلة الرعناء التي وصلت شقاوتها إلى حدٍّ لم تجد عنده ما يجعلها تستحي بينما يعتمل صدرها غيظاً وغيرة من والدتها التي عززت صورتها المنشورة في الصحيفة مؤخراً زيف ما كانت تفاخر به بشأن كونها ممثلة مرموقة. حتى وهي تحاول تقريب المسافة الآخذة بالابتعاد

بينهما، لم توضح حنان، وإن يكن ذلك على سبيل الاحتيال، أن لا شيء يمكن أن يكون ذا قيمة حقيقية في حياتها وتحبه إلى درجة أنها ستكون مستعدة دائماً للتضحية من أجله ولا يكون ذلك الشيء نسرين نفسها. وأما التمثيل فهو في النهاية ليس سوى وسيلة من وسائل كسب العيش، وليس سعياً منها إلى النجومية ما دام أنها لا تزال تراوح في المكان نفسه الذي وقفن فيه الخادمات في مسرحيات شكسبير ينظفن البلاط من الوساخة. لم تفكر حنان على هذا النحو، أو حتى تسأل نفسها عما إذا كانت المشكلة مقتصرة على غيرة نسرين منها، وأن شيئاً غير ذلك يبدو أكثر خطورة من نظرة حسد أو غيرة منهومة، لا يؤرق الفتاة أو يدفعها إلى التركيز على جزء معين في جسد والدتها بدا من الواضح وبدافع أسباب لا تزال مجهولة، أنها ترغب في محوه من الوجود.

وبالتالي، ترى حنان أنها لا يمكن أن تتحمل الذنب إذا ما تحول إعجاب نسرين بها إلى رغبة في المنافسة ـ كان ذلك أغلب الظن بالنسبة لحنان ـ ثم وعلى حين فجأة يدفعها إحباطها الناتج عن عدم قدرتها على اللحاق بوالدتها إلى الكراهية. كما لا تستطيع أن توضّح أنها ليست مهمة إلى ذلك الحد الذي يؤهلها لأن تكون مصدراً للإحباط لأنها ببساطة ممثلة فحسب تؤدي أدواراً بائسة لتأخذ عليها أجراً توفر به المأكل والمشرب، كما يفعل ذلك ساحب عربة في السوق أو كاتبة في دائرة الضرائب أو منظفة في مستشفى أو حتى عاهر في مبغى، من دون أن يكون لأحد الحق في أن يسألها لماذا تبدو سعيدة وتفخر بكونها ممثلة فاشلة. لأنها ببساطة تعمل لتعيش، ولا تعرف سوى أنها سعيدة وفخورة ولا تعمد إلى تصنع ذلك، وربما ستعرف السبب في حال عثرت عليه

الكاتبة التي تعاني من ألم البواسير، التي هرمت عجيزتها على كرسي بائس في غرفة وضيعة تابعة لدائرة مصلحة الضرائب، وساحب العربة في السوق، والمنظفة في المستشفى، والعاهر في المبغى. ففي النهاية، ومهما كانت مهنة المرء، لا بد أن يكون هناك ما يبعث على السعادة، وعليه لا يمكن لوم النزّاح على سعادته لأنه يجلي خراء السكان.

من أول وهلة، كرهت نسرين طريقة التعامل الجديدة التي بدأت تنتهجها والدتها مؤخراً، فعندما تتعامل الأم بهذه الطريقة مع ابنتها التي بلغت من العمر أربعة عشر عاماً، فتبدو أثناء ذلك كما لو أنها تساير طفلة في الخامسة من عمرها لا تزال تعاني من التبول اللا إرادي، تبدر من تلك الفتاة ردة فعل دائماً ما تكون قاسية، كأن تنهر أمها أو تصرخ بوجهها. فبدلاً من أن تحصل الأبنة على فوطة تحد بها من تدفق دم الحيض، يعمد أحدهم إلى السخرية منها بإلباسها حفاظة أطفال لكي لا تبلل فراشها خلال النوم. وبدلاً من احتواء نسرين بالقدر الذي يسد حاجتها كفتاة مراهقة من المحتمل أنها تعيش حالة حب، إلا أن ثمة ما يزعجها ويقف وراء غرابة أطوارها، كانت حنان تحاول استغبائها والاحتيال على مشاعرها، لا كفتاة طموحة تريد أن تصبح ممثلة مرموقة في المستقبل، فوجدت ان من غير الملائم أن تحتوي تجربة والدتها كل هذا الكم الهائل من الفشل الذي يجعلها عاجزة عن آداء دور محترم عدا أدوار الخادمات والقوادات والمشعوذات، إنما كفتاة ترغب في الوصول إلى شيء ما، إلا أن هناك ما يمنعها دائماً، فتلقي في إثره باللائمة على حنان. كما لو أنها هي التي تقف في طريقها وتمنع يدها من أن تطول ذلك الشيء، تلك الغاية، الهدف الذي تنشده ولا تجد السبيل إليه، عندئذ تلجأ إلى تقريع والدتها التي، وعلى ما يظهر جلياً، أنها ارتكبت

خطأ استدعى من نسرين أن تبحث عن عيوبها الفادحة لتعاقبها بالسخرية، فلم تجد سوى بؤسها وهي تحمل طنجرة أو مكنسة وتؤدي دور الخادمة على خشبة المسرح.

عندما كانت صغيرة، لم تكن نسرين تفهم معنى أن يكون «أمل» أخيها من الرضاعة، وبمرور الأعوام، علمت أن لا شيء يجمعها به سوى اللبن الذي رضعاه من صدر واحد، والذي سيحرم أي ارتباط خارج عن إطار رابط الأخوة. وإلى أن بدأت تفهم هذا الأمر، كانت مشاعرها تجاه «أمل» قد بلغت حداً صار من العسير، وهي الفتاة المراهقة التي عادة ما تحوز مثلها في أغلب الأحيان على شحنة غير طبيعية من الأحاسيس وفرط التعلق، أن تتخلى عن حلمها الذي أخذ ينمو بإطراد منذ بداية الحرب التي أتاحت لها ظروفها فرصة معانقته تحت السلم أثناء القصف، هناك بدأت مشاعرها تأخذ منحى آخر يبدو أكثر تعلقاً، قبل أن يأتي رد «أمل» ويكون بمثابة الحجر الذي فلق رأسها، حجر المحرّم الذي كان أشد وطأة عليها وهي تنتزعه من رأسها لتضغط به على قلبها علّها تسد جوعها الشديد لأمل. لكنها لم تقدر، فراحت تلقي باللائمة على والدتها. كرهتها فجأة كما لو أنها لم تكره أحداً من قبل، وكأنها هي من وضعت ذلك الحكم وأفرغت رصاصاته في قلبها، وستبقى تعتقد بذلك ما دام أن حنان أرضعت «أمل» وبالتالي ستكون هي من أسست لمثل هذا الحكم ومكنته من النفاذ إليها بدءاً من تاريخ المرة الأخيرة التي ألقمت فيها حلمة ثديها لـ «أمل» وصنعت منه أخاً لها.

بدا من الصعب على نسرين تقبل فكرة أن هذا اللبن سيكون قادراً على التحول إلى جليد أبيض صلب لن تنفع معه حرارة مشاعر الحب

الذي تمكن منها منذ أن كانت في الحادية عشرة من عمرها. الحب الذي ربما لن يكون في نظر حنان، إذا ما علمت بذلك، سوى خيطٍ واهٍ لن تجد الفتاة المراهقة ما يعيقها، بينما هي تنسج حوله أحلامها البلهاء بالنوم مع كائن افتراضي أو أحد أولئك الذين يمكن مشاهدتهم في التلفاز، ممثل أو لاعب كرة قدم أو مغنٍ، قبل أن تصادف في طريقها أول شاب حقيقي يكون باستطاعته لفت انتباهها من غمزة واحدة فتقع في غرامه، ثم تبدأ احلامها الحميمة السابقة بالتحول إلى ذكريات سخيفة ومضحكة. وعلى الرغم من أن «أمل» لم يكن كائناً افتراضياً ولا يميل إلى أي من تلك النماذج المسموعة والمرئية التي لن تحاول يد أحدهم أن تطولها إلا واصطدمت بالشاشة، ولم يكن يوماً مثالاً للجنتلمان الذي يشبع نهمة المراهقة لدى الفتيات. إلا أنها لم تشك في أن ابنتها تمر بتلك الحالة الغرامية الوهمية، وأنها سرعان ما ستزول حينما يمر الوقت وتقع عينها على شاب آخر تتوفر فيه إمكانات الحبيب الذي سيلبي تطلعاتها كعاشقة.

كان «أمل» قد وصل في إدمانه حداً بات من السهل عليه توخي الحذر من أي امرأة صار في نيتها اغراؤه. كان مشبعاً بجدوى أن تقتصر ممارسته الجنسية على المشاهدة والاستمناء بتأثير تلك الممارسة، من دون الحاجة إلى ولوج ولمس أو تقبيل. كانت حواسه تجتمع في عينيه دفعة واحدة، فلا يكاد يتحرك منه شيء أثناء ذلك سوى يده التي تؤدي مهمتها على نحو يظهرها كما لو كانت مأمورة بالتوقف لحظة اشتعال الذروة، فتترك عضوه، كأنها بذلك توفر المزيد من وقت المتعة الذي لن يتجاوز في أقصى الحالات الطبيعية بضع دقائق، الأمر الذي طالما كان السبب وراء حالات الاحتقان الشديدة التي صار يعاني منها مؤخراً.

كان «أمل» في تلك الأثناء كمن يداوي الداء بالداء. يستمني لكي يتخلص من الضغط الإغوائي لصورة الأخت بالرضاعة وجسدها النحيل الذي ينخسف عند الخصر بصورة جذابة، ويعود ليتسع بشكل بيضوي عند ردفين مسطحين غير بارزين تماماً بلون النسكافيه الفاتحة، كان يستعين بصور نجمات البورنوغرافيا ليطردها من رأسه:

«اذهبي هيا!».

كان ينهر صورتها كما يفعل مع ذبابة: «هيبي هششش!».

وما أن يوشك على قذف سائله ويبلل الصورة وأحياناً شاشة التلفاز، تقفز صورة نسرين أمامه. يبدأ بعدها بتقريع نفسه، وتبدأ بوادر توبة جديدة يستهلها بالصلاة في جوف الليل. التوبة التي سرعان ما يغتالها خياله باستهتاره الصوري. صور كثيرة، صور مغرية لأجساد لدنة ومتعرقة، بعضها سكرية وأخرى صهباء أو بلون القهوة تتمايل أمامه وتدفعه إلى البكاء. فكر بالهرب، بالكتابة. بالانتحار. فكرته الأخيرة عن الانتحار لم تكن جدية، كذلك فكرة الهرب. أما الكتابة، فقد جربها من قبل، وكان يعيد تجربتها في كل مرة. لكن ماذا عساه أن يكتب ما دام أن الخيال وحده من يملي عليه الكتابة، وخياله هذه الأيام يبدو عاهراً، بذيئاً إلى الحد الذي لم يعد بإمكانه إلا أن يكون تلك الحفرة المليئة بالخراء والتي تسمى خيالاً أيضاً.

وفي يوم من الأيام ١٩٨٣، كان القصف الإيراني في ذلك المساء قد توقف منذ لحظات، وكانت نسرين في وقتها مندسة في فراش «أمل» الذي كان خارج البيت، ربما في زيارة إلى عمته هيلا أو خالته ميساك أو يحتسي العرق برفقة زميلاه، بينما كان والدها في بغداد ووالدتها في

المسرح، سمعت حركة في الجوار، وأصوات سيارات الإسعاف تعوي في صمت الساعة التاسعة. ثمة ديك يصيح في غير أوانه، ربما كان مذعوراً من القصف، أو أن قنبلة ايرانية قتلت دجاجاته. في التلفاز يظهر مقداد مراد مذيع بيانات الانتصارات المزعومة، ببدلته الزرقاء أو الشذرية الفاتحة، تصدح حنجرته بالخسائر التي تكبدها العدو في جبهات القتال. كان الديك المنكوب لا يزال يرسل صياحه بإحساس الفجيعة حين سمعت نسرين صوت «أمل» وهو ينادي عليها. لقد عاد بسرعة: «عاد من أجلي!» تقول في سرها، وثمة ابتسامة خبيئة بين شفتيها لا تكاد تظهر حتى دخل، وكان يلهث على نحو جعلها تخمن أنه قطع المسافة من بيت عمته ميساك إلى البيت راكضاً. «كل هذا من أجلي!» لا زالت تظن.

كان قد اتجه إلى غرفتها فور دخوله البيت، لكنه لم يعثر عليها، فراح يبحث عنها تحت السلم، في غرفة المعيشة، غرفة الاستقبال، في الحمام، قبل أن يخطر له أنها ربما تختبئ في غرفته. فاته ذلك، رغم أنها فعلتها مرات عديدة واقتحمت خصوصيته بفضول دائب. أطلق أُفٍ كادت أن تصل إليها وتلذع وجهها. كانت لا تزال متمددة في فراشه، متلفعة ببطانيته، تنظر إليه بهدوء، باسترخاء مريب، بعيني طفلة هدأت من ذعرها للتو، وانبعثت، من خلال تلك النظرة التي لا تبدو بريئة، البوادر الأولى لألعابها الصبيانية المشينة.

«ماذا تفعلين هنا يا بنت؟» الآن، بعد أن عادت أنفاسه إلى طبيعتها، بدأ ينهرها.

شبكت نسرين أصابع يديها، وقلبت باطنهما ودفعتهما إلى الأعلى

بهدوء، بعد أن انزلقت على السرير، وأظهرت شعورها الزائف بالتثاؤب، فتكشف إبطاها الأملسان الناعمان، وحينما عادت لتسند ظهرها على مؤخرة السرير، ظهر الجزء العلوي من صدرها الصغير القمحي والمشع مثل مصباح مغطى بالمخمل:

«اختبأ!».

قالت، ووضعت يديها اللتين لا زالتا مشبوكتي الأصابع خلف رأسها. كان شعرها منفوشاً كما لو أنها انتهت من مطارحة غرامية مع أحدهم، وليس مع قميص تنبعث منه رائحة جلد ذكوري. تلفعت ببطانيته ونهضت من مكانها، تحمل القميص بيد، بينما تمسك باليد الأخرى طرف البطانية التي كانت ترفعها إلى مستوى صدرها. راحت تخطو باتجاهه بوقار مصطنع، بأنفة غير معهودة، زائفة، غير متوجسة أبداً مما قد يحصل. وقفت أمامه. كان أطول منها بحوالي سبعة سنتميترات. فتحت عينيها على اتساعهما، ولم ترمش إلا قليلاً بينما هي تحدق بعينيه المذعورتين، اللتين كانتا على العكس منها، قاحلتين، وخاليتين من الجسارة التي غلقت حدقتيها، وكانتا ترمشان بإفراط، غائمتين، ضبابيتين، والحدقتان صنميتان واجمتان، ترسلان وميضهما مثل باكَ لايت خلفي لسيارة تشق طريقها في الضباب بصعوبة خشية المفاجآت غير السارة على الإطلاق.

اعتقت نسرين البطانية والقميص في اللحظة نفسها. تلك اللحظة التي كان على «أمل» أن يغمض عينيه ويردد الحوقلة والاستغفار، لكنه كان محنطاً تماماً. شيء ما بدأ يتحرك في وسطه، يتصلب، يبحث عن منفذ، عن هوة ليتنفس، ذلك الشيء اللعين الذي طالما جلب له المتاعب

النفسية، وعذاب الضمير، والشعور بالذنب. وكما لو أنه لم يعد بإمكانه فعل شيء، كأن يصفع نسرين، يزجرها، يمسكها من زنديها ويهزها بعنف، ويلقي بها خارج الغرفة، ظل صامتاً، بعينين ملؤهما البلاهة، وقد بدأ يرتعش، في اللحظة التي امتدت إلى صدره تلك اليد الصغيرة، ذات البشرة التي تشع سمرة كأنما نضجت في قالب حلوى، تلك الأصابع المطلية أظافرها بطلاء قرمزي فاتن، التي راحت تنزع عنه القمصلة الجلدية السوداء، ثم، وعلى مهل، كأنها تتلافى بذلك الحذر الشهي إفزاع عصافير الرغبة المحبوسة بين صدره، بين أضلاعه، راحت تفك أزرار قميصه البندقي الفاتح، وكمن تفتح ستارة لتسمح للشمس أن تغمر مكاناً ظل رطباً لفترة طويلة، أزاحت طرفي القميص، ودنت منه، من صدره، حتى إذا التصقت شفتاها بالزغب الذي بدأ ينمو هناك في فترة متأخرة، قياساً بزغب عانته وإبطيه ولحيته، أغمض «أمل» عينيه وأطلق صوتاً غريباً لا تألفه مثل تلك الأوقات الحميمة، ربما يشبه صوت الديك المفجوع الذي كفّ عن صياحه في تلك اللحظة، وكانت بقية الأصوات هي الأخرى تتلاشى، متحشرجة، مثل ذيل موجة من التصفيق في مسرح مأهول. أشاح «أمل» بوجهه ناحية أخرى، كطفل فعل ذلك لكي لا يرى المضمد وهو يجز بموسه الغلفة الكريهة في عضوه، دون بكاء، دون زعيق، دون أدنى توسل متسربل بالنشيج قد يصدر من مؤمن يتعرض للغواية. وحين فتح عينيه وجد أنهما مسمرتان على صورته المعلقة على الجدار، فرأى نفسه أسداً يحاصر بقوائمه الأربع تلك الضحية الخانعة، المستسلمة، تلك الأخت الغاوية. نعم الغاوية! ـ فكر أمل ـ لو لم تكن كذلك لما تحجرت مثله!

فجأة، شيء ما يبدو مجهولاً، واخزاً، طاعناً أيقظ «أمل» في تلك

اللحظة، فأمسك نسرين من زنديها العاريين المترفين، وبدأ يهزها بعنف، كأنه يريد أن يخرج جنياً منها، أو كما يفعل أحد مع محتضر ليمنعه من الموت: «هشش! هشش!» أراد أن يصفعها، لكنه بدلاً من ذلك، لطم وجهه بتلك القوة التي كانت ستحطم فكّي الفتاة، فقط لو أنه جرب ولطمها. في حين كانت هي مرتعبة، شاحبة، كما لو أن صفار بيض مائع، صفار بيض دجاج العالم بأسره تخثر تحت جلدها الأملس، وقد اتسعت عيناها قليلاً، وبان البُن فيهما ضئيلاً تحت طبقة الدمع التي لا يبدو أن ستسيل، فقد بدت متشبثة، كأنها صارت أكثر كثافة، أكثر لزوجة، وأكثر دلالة على الفزع من أي وقت مضى.

إلا أن نسرين، وبعد فترة من الصمت التقت خلالها عينا الاثنين مرات عديدة قبل أن تشيح أحداهما عن الأخرى أو كليهما معاً لتعود إلى الاصطدام مرة أخرى، انتفضت، انتصبت في وقفتها، وضعت يديها الصغيرتين على خصرها النحيل، ازداد اتساع عينيها لكن على نحو وشى بغضبها، أطبقت شفتيها وطوتهما إلى داخل فمها، وبدت أثناء ذلك، كما لو أنها على وشك ابتلاعهما، وتحولت فحوى نظرتها إلى الحنق، أو ربما اليأس الذي كشف عن تمهيدها للخروج خائبة، خاسرة، وخالية الوفاض. وفعلا، استدارت نسرين بحركة لا تقل تشنجاً وغيظاً، واتجهت بخطوات طفلة صغيرة لم تحصل على مرادها من الحلوى، حتى خيل لـ «أمل» كما لو أنها تريد أن تحطم بلاط الغرفة، فقد كانت تدبك بقوة في كل خطوة، حتى وصلت إلى السرير الذي يبدو أنها كانت تخبئ ثيابها تحته، لباس داخلي سمائي قصير، وروب بناتي وردي بطربوش وأكمام بيض. كانت مستاءة جداً، وتظهر بدون مبالاة سخطها من ردة فعل «أمل» العنيفة، حتى أنها عندما خرجت من الغرفة

لامست ذراعه متعمدة، وأغلقت الباب بقوة شعر أن جدران الغرفة اهتزت معها، وكأنها تقول له: غدا سترى يا فقاعة الإيمان البليدة!

منتصف تلك السنة، توفي جمال والد «أمل» بالتبني في حادث مروري حين كان في طريق عودته من بغداد، بعد مشاركته في إحدى الفعاليات هناك. حدث ذلك مع وازدياد حدة الاعتقالات والإعدامات وملاحقة عناصر الأحزاب والحركات المعارضة، وكانت الأخبار تأتي من خطوط المواجهة، على الحدود العراقية الإيرانية مضمخة برائحة المزيد من الدم والأشلاء. وقد تلقى «أمل» خبر موت والده بتلك الطريقة الغبية على نحو ما يستقبل به الأبناء الحقيقيون الأخبار المفجعة. تأثر ولفترة غير قصيرة بطريقة بات من الواضح أنها تحمل الكثير من الصدق. كان حزنه ظاهراً بشكل جليّ، وهو يستقبل المعزين في سرادق مجلس العزاء ويصافحهم، قد تخنقه العبرة إذا ما رأى الدمع يترقرق في عيني أحدهم، أو يذرف دمعة على أكتاف أصدقاء ابيه المقربين، وكان أغلبهم من أولئك الممثلين الفاشلين الذين سبق وأن رآهم على خشبة المسرح، يؤدون ادوار المهرجين والمرابين والسحرة والأشباح والعسس والأرواح الشريرة في مسرحيات مأساوية وأحياناً في أدوار تراجكوميدية. كان «أمل» وهو الابن المتبنى على أية حال، على العكس من نسرين التي بدت شاردة الذهن في حينها، وربما لا يُظهر شرودها عدم مبالاتها أو صعوبة فهم ما يجري (تلك الصعوبة التي دائماً ما تقود الأنثى على وجه الخصوص إلى الوجوم المرير، في وقت لا زالت الأجواء المليئة بالنعي والبكاء تطالبها بالصراخ أو نتف شعرها أو خمش خديها على طريقة النساء العراقيات البالغات، لا لأجل شيء سوى إظهار مشاعر الافتقاد، حتى وإن كانت تلك من قبيل التصنع) بقدر ما يُظهر أن ثمة

حزناً غائراً لا تجد نسرين الطريقة المناسبة لإظهاره، كما تفعل ذلك أمها حنان التي بلغ جزعها حد الإعياء، فكان يُغمى عليها بين فترة وأخرى، وفي كل مرة تستعيد وعيها تنعى فقيدها على نحو كنَّ قد بلغنه الزوجات والأخوات والأمهات بعد ذلك بفترة قصيرة، حين بلغت الحرب ذروتها المدمرة، وبدأت نعوش القتلى الملفوفة بالعلم العراقي تتقاطر من الخطوط الأمامية التي استعرت في تلك الأثناء بطريقة مجنونة، كأنها تريد أن تدمر كل شيء وتمحق بنيرانها كل كائن لا زال يتنفس الهواء.

ما أن انتهى مجلس العزاء حتى بدأت غيمة من الوجوم، ثقيلة وتبعث على التفتت، تخيم على أجواء الأسرة. وكان الصمت هو السائد في أغلب الأحيان، كما ينبغي تماماً أن يكون عليه، بالنسبة لأسرة فقدت معيلها فجأة، فكان هو الطابع المر الذي بدأ يغلف ببلاهته المعهودة كل زاوية في البيت. وكانت حنان تقوم بواجباتها المنزلية المعتادة أثناء الفترة الشرعية التي تلزم المرأة الأرملة بالاعتكاف، فحبست نفسها في البيت ووارت نفسها عن الأنظار طوال أربعة أشهر وعشرة أيام كانت لا تزال خلالها تكمل ما بدأته فجأة، ومنذ انتهاء مجلس العزاء، حينما دخلت في جو صوفي لا يشغلها خلاله سوى ما تقوم به من تلك الأعمال المنزلية، كالطبخ والغسل والتنظيف، وعدا ذلك لم تكن تسمح لشيء بتلويث الطقس الإيماني خاصتها، حتى أنها بدت في أغلب تلك الأحيان، في نظر «أمل» ونسرين كما لو أنها انسلخت من سيرة حياة لرابعة العدوية.

بدأت العائلة الصغيرة تعاني من ضائقة مالية، وهو ما كان متوقعاً حدوثه بعد فترة قصيرة مضت على وفاة جمال، الذي لم يكن راتبه التقاعدي يكفي

لتلبية احتياجاتهم لمنتصف الشهر. إلا أن هناك ما أخّر دخول الأسرة في تلك الأزمة الاقتصادية، وهو أن جمال كان قد ترك في بنك الرافدين مبلغاً لا بأس به، لكنه بدأ بالانقراض شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق منه سوى نسبة ضئيلة قد تؤمن طعام الأسرة لأسبوعين آخرين. الأمر الذي فكرت حنان في إثره بالعودة إلى العمل في المسرح، لكن على نحو ما تقوم به امرأة احتشمت فجأة، كما يفعلن الأرملات دائماً، وبطريقة لم يكن أحدهم راغباً بضمها إلى عمل يتطلب تلك اللياقة في المظهر التي تبدو عليه الممثلات، الممثلات اللواتي قد يؤدين أدواراً بذيئة طبعاً. عندئذ، اضطرت حنان إلى التخلي عن مسوح التصوف الذي، وعلى ما يبدو، جاء بتأثير الموت المفاجئ لزوجها، فوجدت عزاءها فيه، بتلك الطريقة التي كانت أقرب إلى الدراما منها إلى الحقيقة، أو كردة فعل تجاه، ربما الخوف العارم من الموت، أو فترة ما بعد الموت.

فعادت إلى مزاولة عملها في التمثيل، تقدم أمامها ذريعة إطعام وإكساء وتلبية حاجات شاب يدرس في الجامعة، وفتاة في طريقها إلى أن تصبح امرأة ناضجة، وقد بدأت تضع الأصباغ على وجهها، وتنتف شعر إبطيها وتحلق عانتها وتجز أطراف حاجبيها بالخيوط وتزين عينيها البنيتين الناعستين بالكحل، حتى تبدو في تلك الأثناء كما لو أنها بلغت الخامسة والعشرين.

وقد حظيت حنان بفرص لا بأس بها كانت تزعم أن أصدقاء زوجها حرصوا على توفيرها، لتكون بمأمن من العوز. إلا أنها في المقابل، لم تخرج عن ذلك الإطار الكومبارسي الذي كانت محبوسة في داخله، كمعزة مهمتها إرسال الأصوات الناشزة من أجل تدعيم أحد المشاهد الريفية بالواقعية. ولم يمض وقتاً طويلاً حتى استدعيت لتمثيل أدوار أكثر

رقياً، أو هذا بالضبط ما كانت تظنه لكي لا تشعر أنها لا تزال ممثلة صنمية، ترتدي ثياب خادمة أو قوادة، وتقف على أهبة الاستعداد لتنفيذ الأوامر، مثل كلب حراسة. فمثلت في ذلك العام عدة أدوار منها دور إيراس وهي إحدى وصيفتي كليوباترا. ليونين خادمة ديونيسا في مسرحية بيركليس. كيكلي وصيفة الدكتور كايوس في مسرحية زوجات وندسور المرحات. أرسولا وصيفة هير في مسرحية ضجة فارغة. جاكينات فلاحة في مسرحية عذاب الحب الضائع. فيبير راعية أغنام في مسرحية كما تشاء. دور ساحرة في مسرحية مكبث. كويكلي نادلة في حانة إيست شيب في مسرحية هنري الرابع. وأودري عاهرة ريفية في مسرحية على هواك. وعلى الرغم من تلك الأدوار الغبية الساذجة التي عادت حنان لتأديتها على خشبة المسرح، إلا أن نسرين استمتعت بالتحول الذي طرأ على والدتها، بعد أن رأتها خلال الأشهر الماضية متشحة بالسواد، تهمل نفسها وتترك الشعر ينمو في كل مكان من جسدها، وتؤدي فروضاً دينية بطريقة كاريكاتورية، ذلك أنها لم تكن تعرف سوى تأدية حركات صامتة وأخرى دراماتيكية، أو حسب ما يملي عليها أحد تلك الأدوار الغبية على خشبة المسرح.

في ذلك الحين كانت نسرين تشق طريقها، وتسعى إلى تحقيق طموحها بأن تصبح يوما ممثلة ناجحة، خصوصاً بعد أن دخلت معهد الفنون الجميلة، قسم التمثيل في تلك السنة. ولعل أكثر ما جعلها أقل غضباً، كونها أبنة ممثلة فاشلة هو غياب والدتها المستمر عن البيت بداعي العمل، وهي بذلك إنما أبعدت عنها الشبهة بشأن ميولها اللا شرعية تجاه أخيها من الرضاعة، الذي لم يكن، حتى بعد ذلك الحين، يظهر ولو بعض المرونة في تقبل مشاعرها تجاهه. فبالإضافة إلى دراسته الجامعية، كان منهمكاً، وبشكل يبدو أنه يجبر نفسه عليه أحياناً،

بالقراءة. قرأ جميع أعمال شكسبير التي لم يكن يعني لحنان فيها شيئاً سوى تلك الشخصيات المهملة، الهامشية والمبتذلة، التي كانت تقرأها قبل أن تشرع بتجسيدها على خشبة المسرح، أمام جمهور ضئيل، قياساً بجمهور المسرح التجاري الذي بدأ ينشط في تلك الفترة. ثم قرأ أعمال أجاثا كريستي وكتب الجيب التي كان يقتنيها جمال. وعدا ذلك كان يقضي عزلته البيتية بالتدخين، والسكر، والتعاطي المرضي للمواد الإباحية من صور وأفلام لغيلان ساديين، قذرين، ونساء متهتكات، بوّالات، مازوخيات. فذلك أفضل من مضاجعة فتاة محرمة عليه، أو هكذا يفكر هو، كأنه ينهل من ذلك المد البهيمي مقاومته، ليبدي بالتالي صرامة تجاه مسألة أخلاقية بحتة، تتعلق بشرف اخته من الرضاعة، التي لم تزل تبذل جهدها لاستمالته، تخدمه مثل خادمة، تحضر له الطعام، ترتب غرفته مثل زوجة مطيعة، وتندس في فراشه، تشم ثيابه، وتقرأ هلوساته. تتعرى أمامه، يشعر بالانتصاب، يشيح بوجهه عنها حيث المرآة، حيث صورته المعلقة على الجدار، ليرى نفسه هناك أسداً بقرنين. أسداً حقيراً يسيل اللعاب من طرفي فمه، بينما هو يجثو على فريسته الخانعة، تلك الأخت التي تريد أن تمتص حليب اللبؤة التي أرضعتهما معاً، وتبصقه.

كان «أمل» يعاني، إلى درجة البكاء، بينما هو يقمع رغبته المحرّمة، نزوته الكابوسية، صورة الممنوع المرغوب التي تقض مضجعه، وتجبره على الانتصاب. لن يفكر أن يكون مسيحياً أو يهودياً لمجرد أن هذا التحول سيسلخه مما هو عليه بسبب شعوره الفطري، وبالتالي يكون ذلك باعثاً على تمكنه من النوم معها. إنه يشتهيها وينفر منها في الوقت نفسه. يحبها ويكرهها. يرغب بها ويتمنى لو يقتلها.

«يا إلهي» ينتف شعره ويصرخ في داخله: «لا أريد أن أتحجّر!».

صار يأكل ويقرأ ويدرس كثيراً، ويفرط في الشراب. يدخن مثل معتوه. يكتب بشكل عشوائي. يرسم، يخربش، يتسكع ليلاً، غير عابئ بالقصف وأخبار الحرب الدامية، الدائرة هناك، ليس بعيداً عن المدينة، حيث يمكن سماع دوي الانفجارات أثناء كل هجوم تشنه القوات الإيرانية على الحدود العراقية. كان يشعر أنه أخرق، أهوج، دون وازع ديني أو اخلاقي، متهتك، يمكن أن يضعف في أي لحظة تكون فيها نسرين بحال من تلك الأحوال التي لا يكون عقلها في رأسها، إنما بين فخذيها، أو في البعيد المجهول، الذي دائماً ما يشي بخطر وشيك، بالعار، بالرذيلة.

في الفترة الأخيرة، توسعت مشاركات حنان لتشمل الدراما، فقد ظهرت في مسلسل ديني بدور جارية، ثم في مسلسل خاص بالأطفال أدت فيه دور ساحرة. ثم فجأة، ظهرت على خشبة المسرح مجدداً بدور أم الشهيد. كانت تشد رأسها بعصابة سوداء ووسطها بعباءة، وتردد مجموعة من الأهازيج الوطنية أمام تابوت ملفوف بالعلم العراقي. تزغرد، تردح، وتهتف للوطن والحزب القائد. حين رأتها نسرين على شاشة التلفاز أول مرة، وهي تؤدي ذلك الدور التعبوي، امتقع وجهها وشعرت بالغضب، ولم تذهب إلى المعهد في اليوم التالي. لكنها سرعان ما اعتادت على ذلك بمرور الوقت، خصوصاً وأن أحداً لن يجرؤ على السخرية من ابنة أم الشهيد، الدور الذي ذاع صيته، وراح البعض يردد الأهازيج نفسها التي ترددها تلك الأم فرحاً باستشهاد ولدها في الجبهة دفاعاً عن الوطن، على العكس من الأمهات المرتابات، الندابات، وشقاقات الجيوب. في حين لم يعقب «أمل» على ذلك أبداً، فقد كان يرى حنان كما كانت من قبل، ممثلة بإمكانات محدودة،

وبالتالي لا يمكنها أن تؤدي غير تلك الأدوار الساذجة، وخصوصاً دور أم الشهيد الذي أدر عليها بعض المكرمات السخية، فبدأت تتصرف كما لو أنها كانت كذلك فعلاً، كما هي على المسرح، تردد كلمات أغنية المطربة الكويتية رباب، وتتمنى أمام الأقارب والجيران لو أن لديها من الأبناء مائة، لتقدمهم فداء من أجل الوطن والقائد. وعلاوة على ذلك، رفعت صور الآيات القرآنية والرسوم الشبيهة بالأولياء وصور الأماكن المقدسة من الجدران، وعلقت مكانها صور صدام حسين.

كانت نسرين قد مثلت حتى بداية **١٩٨٤** مسرحيتين لصالح النشاط المدرسي، كما شاركت في أوبريت كنوع من الدعم المعنوي للجيش، وعرض في التلفاز حينذاك، لتُفاجأ بعد فترة قصيرة، عن طريق والدتها، بعرض أحد المطربين الشعبيين المغمورين عليها الظهور في إحدى أغانيه التي سيتم تصويرها في البصرة. رفضت نسرين العرض في البداية، فقد شعرت أنها ستسلك طريق الفشل نفسه الذي سبقتها إليه والدتها. لكنها عادت بعد أيام لتوافق على العرض، في وقت كانت تشعر باليأس، بالإحباط، واللا جدوى من حبها لـ «أمل» الذي فتت حلمها المراهق، المحرّم، عندما بدأ بهجر البيت تدريجياً وراح يتردد على بيت عمته هيلا تارة، وبيت خالته ميساك تارة أخرى، في محاولة، يبدو أنها ستنجح أخيراً، للهروب منها. وهو ما أشعر حنان بالقلق، فراحت تفكر في إمكانية إعادته إلى بيتها، فعرضت عليه فكرة الزواج وتكوين أسرة، لكنه رفضها فوراً، وبدا حينذاك كما لو أنه يرفض عرضاً لإلقائه في بالوعة.

في تلك الأثناء، كان ثمة حرب أديان دعائية تجري بصورة غير مباشرة، وكالعادة فإن «أمل» هو حلقة الوصل بين الجهات الثلاث

المتحاورة على نحو لا يخلو من التحدي والمباهاة، الطعن، القدح، التبرير، التأويل، التهويل، الإنكار، التفنيد، وتبادل الاتهامات التاريخية. ففي الوقت الذي تفخر ميساك بكون الإنجيل كتاباً يدعو إلى السلام والمحبة، وتقارن بينه وبين التوراة الذي لا يخلو من العنف، والدعوة إلى إبادة كل ما هو غير إسرائيلي وفق تعاليم التلمود التي تقول أنها حللت دم المسيحي لاستعماله في الأعياد الدينية، تعمد هيلا في مكان آخر، إلى دحض كل تلك الأقاويل بإيرادها آية السيف في الإنجيل، والتي كان مسيحيو أوربا يرفعون رايتها في حروبهم الصليبية، فضلاً عن إحراق الكثير من اليهود في أوربا ومصادرة أملاكهم وإجبار آخرين على الدخول في المسيحية، وكل ذلك كان يجري تحت راية الأساقفة ووشايات الرهبان. وعدا ذلك، وحسب مفهوم هيلا، فإن كل ما أوردته ميساك من آيات المحبة والسلام، لم يكن في الحقيقة سوى ذلك النوع من الخنوع والذل والعبودية، الذي ينتهجه الإنجيل بداعي الإنسانية. وبينما المرأتان تتباريان على هذا النحو، من أجل جذب أمل، كل إلى جانبها، كانتا في الوقت نفسه تشحذان حنقه على الإسلام من خلال عرض الجانب العنيف في القرآن المتمثل بآيات القتل والجهاد. الأمر الذي دائماً ما يثير استياء حنان، فتتحدى بدورها هيلا وميساك، بدعوتهما إلى إيجاد كلمة سيف واحدة في القرآن، مقابل العدد الهائل للكلمة نفسها، والتي يمكن العثور عليها بسهولة، بين دفتي الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. علاوة على الوثنية والإباحية والتزييف والتحريف الذي من المحتمل أنه شاب الكتابين، وسلخ منه تجلي القداسة، منذ أن قاله الرب أول مرة. كانت حنان تستعين بأحد أقربائها ليزودها بمعلومات سبق وأن تحذلق بها من قبل أمام زملائه في العمل

أو في المقهى، وكاد أن يُعتقل بسببها، في وقت كان يمكن لأي حديث ذي مغزى ديني أن يقود قائله إلى السجن. وإلا فإن حنان لم تكن تعرف من تلك الأمور، إلا بحدود ما كان يصلها من الأحاديث السائدة بشأن التحريف الذي يقال أنه طال التوراة والإنجيل. لكنها، ولكي تكون بموازاة المرأتين هيلا وميساك اللتين تسربلتا بمسوح التبشيريين، اضطلعت هي الأخرى بدور المرشد الديني، فكانت تحشو رأس «أمل» بمزيد من تلك الأفكار التي لم تكن تفهمها بقدر ما كانت تحفظها وتحاول تلقينه إياها على نحو ببغائي، وتناقش بواسطته هيلا وميساك بمسألة أبوة الله ليسوع والعزير، وتجادلهما بشأن عقيدة التثليث والتجسيد وكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً، ناهيك عن قضية الصلب والبعث والقيامة والتجليات الإلهية والأفكار الحلولية، والمختارية وأرض الميعاد المقدسة وغيرها من الأمور المثيرة للجدل.

هنا تحديداً بدأ أمل بالانسلاخ من شعوره الفطري بكونه مسلم، ودخل في دوامة التيه الديني، الذي استمر فترة من الزمن، كان يتخبط خلالها بين ثلاثة كتب، ثلاثة ديانات، ثلاثة خيارات لا يبدو أنه سيختار أحدها، في وقت بلغ سعاره الجنسي وإدمانه على المواد الإباحية حداً مرضياً، علاوة على ازدياد اهتمامه بالقراءة والكتب. قرأ الكتب المقدسة الثلاثة، مغامرات شارلوك هولمز، أوليفر تويست، البؤساء، مدام بوفاري، قبل أن تقع في يده كتب أساتذة اليأس العدميين، والوجوديين، والمثاليين، والإلحاديين، والماركسيين، والعبثيين، والداروينيين، والعلمانيين، والطوباويين. كان يتعثر بالديانات التقليدية، ومادية القرن التاسع عشر الماركسية، والمذهب الإلحادي المأهول بالمفارقات المتراكمة تارة، وتارة أخرى تجده يجتر مقولات لأفلاطون

وهيجل، وفي اليوم التالي يسخر منهما بمقولات أخرى لسارتر وكامو وكيركجارد، وشوبنهاور الذي قاده بالتزامن مع تخرجه في العام التالي من كلية الآداب إلى النموذج العدمي، فراح يقرأ لأبرز كتابه، بيكيت، سيوران، بيرنهارد، كيرتش، ويتمذهب بمذهبهم التشاؤمي، قبل أن يعود إلى تأرجحه السابق وعومه بين الشك والإيمان، بين الديني واللا ديني، ثم يجبر نفسه على أن يكون سوداوياً بما يكفي، لعل ذلك يوفر له الرغبة بالانتحار، تخلصاً من تيهه وسعاره الجنسي الذي ازداد على نحو مهين، إلى أن انتهى به المطاف إلى اللا أدرية، وراح يتنقل بين أنواعها وفئاتها وتصنيفاتها: لا أدري ملحد، لا أدري مؤمن، لا أدري غير مكترث، واقعي، قوي، صارم، منغلق، ثابت، ضعيف، تجريبي، منفتح، مؤقت. لكنه في النهاية لا أدري! ومن جهة أخرى، صار «أمل» يربط مشاهدته للمواد الإباحية بما ينتابه من شعور بالحزن والقلق والملل والغضب، ويلجأ إليها من أجل الحيلولة دون وقوعه تحت عنف الضغط العصبي والشهواني الذي خلفته الصورة الشبقية التي ظهرت عليها نسرين يوماً ما.

في تلك الأثناء، كانت كل من هيلا وميساك قد كفتا عن محاولات اجتذاب «أمل» إلى توجههما الديني، وبدا من الواضح أنهما ستكونان على استعداد دائم لتستأنفا ذلك كلما سنحت الفرصة، أو أظهر «أمل» ميولاً في المستقبل تشي برغبته في اعتناق إحدى الديانتين اللتين تدينان بهما. أما حنان، فقد أصبح كل همهما في النهاية أن لا يغادرها «أمل» فقد كانت تعتبر إرضاعه تلك الكمية الكبيرة من اللبن ستكون كافية لتقف أمام كل محاولة الغاية منها سلخه من أمومتها له. اللبن الذي تغلغل في عروقه ودمه ونخاع عظامه منذ أن كان صغيراً، وإلى حدٍ سيكون من غير

اللائق إنكاره وهو يافع. وهو ما لم يكن بمنأى عن إدراكه، ولكنه برغم ذلك لم يعد يشعر أن ثمة من يمتلك الحق في نسبته إلى نفسه ومعتقده. وإذا كان قد قرر التمسك بحنان كأم، فذلك ما كان وسيظل يمليه عليه أكثر من عقدين ونصف تقريباً من الاعتناء به وتحمل أعباء تربيته. وأما انتماؤه الديني، فلم يبق منه، مع بداية عام ١٩٨٥ وتخرجه في الجامعة، سوى ما يقوله حقل (الديانة) في هوية الأحوال المدنية.

كانت نسرين قد تعرضت إلى حادث أثناء تصوير الأغنية وذهب «أمل» لزيارتها في المستشفى، فرأى هناك، بالإضافة إلى حنان شاب ببشرة بيضاء وسحنة ونبرة أظهرت تميعه منذ الوهلة الأولى، وكان يتصرف كما لو أنه فرد من العائلة، الأمر الذي أزعج «أمل» بينما استغلته نسرين لإغاظته، فراحت تتصرف على نحو أظهرت فيه خبثها دفعة واحدة. حتى عندما أراد ذلك الشاب مغادرة الغرفة ليوفر جواً عائلياً مناسباً للأم وابنتها وابنها المتبنى دعته نسرين للبقاء، وألحت على ذلك بنبرة توسل لا تخلو من دلال مصطنع، ونادته باسمه الدلع نعّومي. ولم يكن ذلك ليثير غيرة «أمل» لكنه في الوقت نفسه شعر بالغضب، وتمنى لو يصفع تلك الفتاة اللعوب، بدلاً من أمنياته لها بالشفاء وطبع قبلة أخوية على جبينها. لكنه كتم غيظه وغادر من دون أن يتعرف على ذلك الشاب الذي ظهر بعد أشهر على شاشة التلفاز في أغنية راجت بين الشبان، وظهرت فيها نسرين بفستان أبيض وشعر طويل وأحمر شفاه غامق. كانت تتكئ على نخلة، وتقطف بتلات وردة جوري بينما هي ترسل نظراتها إلى نعّومي الذي ظهر بثياب غير رسمية، تلك التي كان يرتديها في المستشفى، قميصاً مشجّراً وبنطلوناً وحذاءً أبيضين، وثمة سلسلة تتدلى من رقبته على صدره المشعر، وقد اعتنى بتقليعة شعره

المثبت كخرسانة بكريم لمّاع. وفي مشهد آخر يبدو أنه صُوّر على ضفة شط العرب، كانت نسرين تركض والمغني يركض خلفها، ويحاول الإمساك بها، فتراوغه وتختبئ وراء نخلة، تطل كل حين وملء فمها الكرزي ضحكة مشعة.

عندما شاهد «أمل» كليب الأغنية أحس بالغيرة هذه المرة. لكنه لم يستطع تمييزها، هل كانت غيرة أخ على أخته؟ أم غيرة عاشق على معشوقته المحرمة؟ ففي كلا الحالتين، يبدو أن شعور «أمل» الفطري بكونه مسلماً، والذي بدأ ينمو في داخله منذ الصغر، لا يزال يقف حائلاً دون مواءمة شعوره العاطفي، أو ربما شعوره الشهواني تجاه نسرين، وهو الإنسان اللا أدري الذي من المفترض، وبحكم لا أدريته، أن يضرب التقاليد والأعراف والأحكام الدينية عرض الحائط، ومنها ما حرمه عليه لبن الأم من متعة الارتباط بنسرين، عاطفياً وجسدياً. لكن، مجرد شعوره بالغيرة من النوع الثاني أعطاه انطباعاً واضحاً بشأن رغبته بنسرين، ليس الآن، إنما منذ أن كانت في الحادية عشرة حين جثا فوقها على أربع وراح يزأر مثل أسد، وبعد ذلك أيضاً حين لاذت به هي للمرة الأولى تحت السلم الكونكريتي، أثناء القصف الإيراني في بداية الحرب، الأمر الذي طالما كان يستدعى شعوره الفطري الأول، الذي يستدعي بدوره الشعور بالعار، لأنه ببساطة الأسد الذي يشتهي أخته.

«التحق «أمل» بأحد مراكز التدريب العسكرية في المدينة، تمهيداً لنقله بعد فترة قصيرة إلى خطوط المواجهة مع الإيرانيين على طول الحدود. وبينما هو يقضي أتعس أيام حياته هناك، بين الـ «إستعد» والـ «إسترح» والـ «يس... يم!» والأهازيج التعبوية التي يرددها الجنود وراء ضباط صف قساة وساديين، أثناء الرياضة الصباحية، في ساحة

العرضات، عراة، محبطين، يائسين، ينتابهم الشعور الحيواني الذي يرافق مراسيم سوق قطعان الخراف إلى المسلخ، كانت حنان لا تزال تتنقل من مدينة إلى أخرى، وتؤدي دور أم الشهيد في الأوبريتات التعبوية على خشبة المسرح. وقد بدأت بالاعتياد على غياب «أمل» الذي لم ينكر أمومتها طوال السنوات الماضية، ولم يكن ليقطع الصلة بالبيت الذي نشأ فيه منذ صغره، فقد كان يتردد عليه باستمرار، وقد يأخذه المد النوستاليجي لغرفته ويقرر المبيت ليلة في الأسبوع على الأقل، خصوصاً وأن نسرين كفّت عن محاولاتها الصبيانية، الاستعرائية، لاستمالته، وبدأت علاقتها به تأخذ منحى آخر. ففي الفترة الأخيرة، وخلال الزيارات التي كان يقوم بها «أمل» إلى بيت أمه بالتبني، أظهرت نسرين تجاهه وداً أخوياً، لم تكن لتبديه بسبب إدراكها المتأخر لمعنى أن يكون شخص ما أخوها من الرضاعة، إنما كان ثمة جديد طرأ في حياتها، ودفعها إلى تغيير وجهتها على نحو لم يكن «أمل» يتوقعه، فقد ظهرت نسرين فجأة، منذ أن كانت في الثانية عشرة، كعاشقة مدفوعة بشغف المراهقة التائق إلى الحب، إلى الرغبة، والتهور الغرامي الذي عادة ما يحجب الجانب العقلي لمن هن في عمرها، ويرجح روح المغامرة التي يشحذها المزيد من المشاعر المحمومة، الجارفة، التي يبثها القلب، هذا النابض الدائب، سيد الأعضاء، والمضخة التي تعمل بكد، تكدح ليل نهار، من دون أن يوقفها شيء سوى الموت.

لم تنقطع الصلة بين المطرب الشعبي ونسرين عند الحد الذي انتهيا إليه بعد تصوير الأغنية الشهيرة، إذ لا زال نعّومي يتردد على بيت حنان بين فترة وأخرى، أو كلما سنحت له الفرصة لذلك، حتى أصبح، بمرور الأيام، صديق العائلة المقرب، الظريف، خفيف الظل،

والسخي. فقد أخذ على عاتقه إيصال نسرين بسيارته الفولغسواغن إلى معهد الفنون، وصار يجلب لها الهدايا من عطور وفساتين وحلوى، ويدعوها إلى نزهات نهرية، في حين كانت والدتها تدعوه إلى جلسات الشاي والكعك الصغيرة في بيتها، وتستقبله بحفاوة، وتتودد إليه، من دون أن تجد سبباً يدفعها لطرده، استجابة لإلحاح «أمل» الذي رأى في ذلك الكائن المتميع عنق الزجاجة المكسور الذي تريد نسرين أن تخوزقه به، لا لشيء سوى أنه رفضها. بعد فترة قصيرة تقدم نعّومي لخطبة نسرين، فوافقت هذه شريطة ألا يقف في طريق تحقيق حلمها بأن تصبح ممثلة، وأن يؤجلا زفافهما حتى تنتهي دراستها في المعهد.

«أنتِ لا تحبينه» قال لها «أمل» في المساء الذي سبق سفره إلى بغداد للالتحاق بدورة تدريب خاصة بمنصات إطلاق صواريخ أرض ـ أرض في التاجي، حيث سيتم تأهيله هناك تمهيداً لنقله إلى أحد ألوية الصواريخ: «تفعلين ذلك لإغاضتي».

«وهل حصل ذلك؟» سألته، بينما هي تحاول تطول شفتيه لتقبّله، وفي كل يشيح هو بوجهه عنها تعيده قائلة بخبث: «هل غرت أيها الأسد؟».

«أبداً» يتلعثم «أمل» ويحمر وجهه. كان البيت فارغاً إلا منهما، فقد تأخرت حنان بالعودة إلى البيت من عرض الاوبريت المسائي لتوديعه: «أنتِ تثيرين اشمئزازي يا بنت!».

«لماذا؟» تسأله ساخرة، وهي تنظر إليه بنصف إغماضة متشككة، وهازئة: «لأني أختك أيها الأسد؟» تدنو منه وتجذبه إليها لتهمس في أذنه: «أنا كافرة أيضاً» تطوّق رقبته بذراعيها، تلتصق به: «هل يعجبك هذا؟».

أفلت منها وهرع إلى الباب، لكنها سبقته إلى هناك. وقفت أمامه، وقد نشرت ذراعيها لتمنعه من الخروج، قائلة بنبرة مستميتة، كما لو أنها تؤدي عرضاً مسرحياً:

«كن أسداً مرة ثانية وافعلها!».

لأول مرة، يرى «أمل» نسرين على غير الشاكلة التي كانت عليها قبل تلك اللحظة. لم تكن هي نفسها فتاة الإثنى عشر عاماً، أو الثلاثة عشر عاماً. لم تكن هي نسرين قبل سنتين، ولا حتى نسرين العام الفائت. لقد تغيرت كثيراً. إنها ببساطة نسرين الحاضر التي تقترب من عامها الثامن عشر. وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أنها صارت تعي أن ما تطلبه خطيئة، لكنها في الوقت نفسه صارت تطلبه على نحو أكثر إلحاحاً، أكثر رغبة، أكثر وحشية، أكثر إيغالاً بالطعن في ما تبقى من شعوره الفطري الذي لم تنفع العدمية ولا الماركسية ولا حتى اللا أدرية في محو آثاره، لكنه أيضاً كاد أن يتلاشى في الوقت الذي عانقته:

«هيا تعال.. الآن!».

كان يتخبط وراءها كطفل يتعلم المشي للتو، يائساً، مستسلماً لإرادتها، فرأى صورتهما على أحد جدران الصالة، كان هو شبلاً مبتسماً في العاشرة من عمره، بنتوأين صغيرين على جانبي رأسه. وهي مصاصة لبن في الخامسة من عمرها، تجلس على ركبتيه، تتصنع ابتسامة (كان المصور قد ألمع إلى إطلاقها لكي تكون الصورة حلوة) كشفت عن نابيها الصغيرين اللذين يقطران لعاباً أبيض.

«هيا» تقول له: «الآن أيها الأسد» تفكّ أزرار قميصه: «لن تتحجّر!».

(٥)

كانت الحرب بالنسبة لـ «أمل» أشبه بالكون الذي أشار إليه هايدغر: كون قُذف فيه الإنسان وأُسلم للموت!

بعد ستة أعوام، وتحديداً نهاية كانون الثاني ١٩٩١، بعد أن أفاق من أحد كوابيسه على صوت المذيع الإسرائيلي في القسم العربي في إذاعة صوت إسرائيل من أورشليم القدس، تساءل أمل: ماذا لو لم يغيروا صنفه في الحرب العراقية الإيرانية من الصواريخ إلى صنف المشاة الآلي؟ وألحقوه بعد ذلك بإحدى منصات إطلاق الصواريخ الباليستية في سنجار، ليكون بالتالي أحد أولئك الجنود الذين أطلقوا صواريخ سكود التسعة والثلاثين على إسرائيل؟

تخيل نفسه وهو يضغط على زر الإطلاق، ويرسل صاروخاً فتاكاً إلى تل أبيب، يراوغ صواريخ باتريوت الدفاعية ويفلت منها، لكنه يخطأ هدفه في النهاية، ليسقط على حي مأهول بالسكان. وإذا ما أخذ نظرية خالته ميساك على محمل الجد، وصدق أخيراً أن والده مائير لم يمت في سجون الحرس القومي كما تقول بذلك عمته هيلا، إنما هجر أمه قبل ولادته إلى إسرائيل في عام ١٩٦٣، فربما يصيب الصاروخ بيت الأب الجاحد، الهارب، الذي كأنما قذفه في هذا الكون لا لشيء سوى تسليمه للموت، وغادر إلى أرضه الموعودة، وبدأ هناك حياة جديدة.

أنجب أولاداً، والأولاد أنجبوا أحفاداً. وقد يحدث أن الجميع يعيشون في بيت واحد، أو ربما تقودهم الصدفة السيئة، في تلك الأثناء، إلى الاجتماع في بيت الأب على العشاء، ليأتي الأخ البكر، المنبوذ، المنسي في تلك البقعة التي تكاد تُستأصل من على سطح الأرض، أخاهم غير الشقيق، وعم أطفالهم، ليحيلهم بصاروخ سكود بعيد المدى إلى أشلاء.

لم تكن تلك فكرة مجنونة ـ فكّر أمل ـ ربما هو قدر، ولسبب ما يبدو مجهولاً، حُذف من حياته، لكي لا يتورط بسفك دماء أخوته من أبيه، أو حتى أولئك الذين تصفهم عمته هيلا بأخوة الدين والدم. ومن يعلم، ربما تفادى بذلك قتل إحدى العوائل الفلسطينية من عرب ١٩٤٨، ممن لا زالوا يقطنون في إسرائيل وتصفيتهم بصاروخ عراقي!

كانت الساعة تجاوزت الثانية ليلاً. التيار الكهربائي مقطوع، ثمة دوي لطائرات، واصوات انفجارات يمكن سماعها في ذلك الحين. صوت المذيع الإسرائيلي: هنا إذاعة صوت إسرائيل من أورشليم القدس! كان يعيد أخبار القصف الصاروخي العراقي على المدن الإسرائيلية، وعدد القتلى والجرحى، والأضرار، ومساعي الرئيس بوش إلى تهدئة الوضع وحث الحكومة الإسرائيلية على ضبط النفس، وعدم الرد على الهجوم العراقي.

«وي غماد وي أبيل واسود!» تقول هيلا بصوت خافت مرتعش: «ما قلتولك غاح يعملا!».

كانت لا تزال واقفة، منذ أكثر من ساعة، تضع يديها على خصرها، وتكاد أن تلصق أذنها بمشبك الراديو الموضوع على رف خشبي في الحائط:

«وي غماد!» تُكلِّم «أمل» المستلقي على سريره، غارقاً في أفكاره وتصوّر أقداره المحذوفة: «خلي تشمت لَكَنْ!» كانت تعني بذلك ميساك: «أتمنى هذا ديريح قلبا الحقود!».

هناك فانوس وضِع على الرف بجانب الراديو كان ينشر في الغرفة ضوءاً باهتاً، بالإضافة إلى ضوء شمعة مثبتة في إناء على دولاب صغير بجانب سرير «أمل» الذي كان لا يزال محموماً منذ إصابته بشظايا القنابل العنقودية وهروبه من المستشفى إلى بيت هيلا. خطر له، بينما هو يفكر بشأن الأقدار المحذوفة أن يعيد كتابة تاريخه الشخصي والعائلي وفق السؤال السابق: «ماذا لو؟» ماذا لو لم يغيروا صنفه العسكري؟ ماذا لو لم يُعدم والده وهاجر فعلاً إلى إسرائيل؟ ماذا لو كانت أمه نوفا على قيد الحياة؟ ماذا لو لم يتبناه جمال وحنان؟ ماذا لو لم يرضع من صدر حنان؟ ماذا لو أنه استجاب لرغبة نسرين وكان أسداً في ذلك المساء التشريني من عام ١٩٨٥؟

«لن تتحجّر!».

كانت نسرين قد فكت أزرار قميصه، وراحت تنقر صدره بقبل صغيرة، تجذب الزغب بين شفتيها وتلعقه. في حين كانت صور الأسود تتقافز في ذهنه، تدلع ألسنتها، تزأر ببلادة، وتتخذ أوضاعاً ايروتيكية. فجأة، أحس بوجع في صدره أعتقه من حالة اللا وعي وإفرازاته التصويرية، فقد أطبقت نسرين بأسنانها على ثديه الأيسر، عضّته بشراهة كادت أن تستأصل معها حلمته، لولا أنه أمسكها من شعرها وأبعدها عنه. صفعها، شتمها. صفعها مرة أخرى، أقوى هذه المرة،، إلى درجة أنها وقعت أرضاً وراحت تزحف، مذعورة، على مؤخرتها ويديها إلى الخلف. وبينما هو يقرعها ويلعنها، ينعتها بالكلبة: بعوضة! مصاصة

دماء! فُتح باب الغرفة ودخلت حنان. كانت لا تزال ترتدي ثياب أم الشهيد، فقد خرجت مسرعة فور انتهاء الأوبريت، وهرعت إلى البيت لتوديع أمل. لكنها، وبدلاً من أن تقبّله، وتضع يدها على صدره، تغمض عينيها وتتمتم بدعاء للحفظ، أو آية من القرآن، كما كانت تفعل كلما التحق إلى معسكر التدريب طيلة الفترة الماضية، إذ كانت تشيعه إلى الباب، وفي يدها إناء فيه ماء ترشه خلفه ما أن يخرج، وهي العادة التي لم تفارق الأمهات العراقيات عند توديع أولادهن في الحروب. بدلاً من أن تفعل حنان كل ذلك، طردته.

«أخرج!» كانت تصرخ بوجهه وتشير إلى الباب: «يا خسارة اللبن الذي أرضعتك إياه!».

تتفقد ابنتها المذعورة: «هل آذاكِ؟» تمسح كحلها الغزير الذي اختلط بدموعها تارة، وتتلمس أثر الصفعة على خدها تارة أخرى. تحتضنها، وتنظر من فوق كتفها إلى «أمل» قائلة بذعر وغضب في آن معاً: هل فعل لكِ شيئاً؟».

زرّر «أمل» قميصه وخرج من البيت. كان محبطاً وقد وضع يده على قلبه، على موقع العضّة المباغتة. بالكاد حملته قدميه. فما أن سمع باب البيت يُصفق وراءه بشدة، وصوت حنان يأتي من خلفه، غاضباً مرتعشاً، هيستيرياً: «لا تعد إلى هنا، عد لأصلك!» حتى انهار على ركبتيه وبدأ يتقيأ.

«نغل!» كانت حنان لا تزال تبصق، تلعن، تشتم قائلة: «أنت نغل!».

في تلك الليلة التي قضاها في بيت خالته ميساك، لم ينم «أمل» سوى ساعة واحدة، رأى فيها نسرين بهيأة مصاصات الدماء في الأفلام

المرعبة، تغرز نابيها في ثديه الأيمن، تمصّ حلمتيه بشراهة، تمتص سائلاً لبنياً وتبصقه بوجه حنان التي كانت تقف جانباً، واجمة، وتنظر إلى البعيد بعينين ذاهلتين قانطتين في الوقت نفسه. كان الوقت منتصف الليل حينما أفاق، فزعاً، متعرقاً، يلهث كما لو أنه كان يعدو في رؤياه الكابوسية تلك. تحسس مكان العضة في ثديه، أحسّ بالوجع. ترى ماذا أصاب تلك الفتاة المجنونة لتفعل ذلك؟ تذكر حينما كانت لا تزال في عامها الأول، قبل أن تتعلم المشي، كانت تداعب حلمة ثديه، وتقرصها، وكلها غبطة ومرحاً، تضحك وتكركر، قبل أن تعود لتفعل ذلك مجدداً كلما سنحت لها الفرصة، وكان هو عارياً. وها هي الآن تعضه في الموضع نفسه، كما لو أنها قررت فجأة، أن تشفط اللبن الذي أرضعته إياه والدتها قبلها.

حاول ان ينام مجددا، دسّ وجهه في الوسادة، عصب عينيه، طالع صوراً لنساء عاريات، استمنى، لكن.. لا فائدة! كانت صورة نسرين الكابوسية بنابيها البارزين تلاحقه. لم يكن خائفاً هذه المرة، إنما كان متهيجاً، وثمة حرارة كانت تلذع بلعومه بشدة. ترك سريره وغادر غرفته إلى المطبخ. شرب قدح ماء. لم يفِ بالغرض. قدحين، ثلاثة. غادر بعدها المطبخ إلى المرحاض، ومنه عاد إلى غرفته. وقف أمام المرآة متخصراً. رفع تيشيرته، وراح يتلمس ثديه المعضوض. كانت آثار أسنان نسرين الصغيرة واضحة، وقد ازرقت، وصارت أكثر إغواء. نظر إلى وجهه، تأمله، رأى الأسد نفسه، لكنه يبدو أسداً اسطورياً هذه المرة، بقرنين كبيرين وعينين ساخرتين.

عاد «أمل» إلى سريره، وراح يتقلب في فراشه ما تبقى من الليل حتى شروق الشمس. نهض من فراشه وجهز نفسه للمغادرة. حلق ذقنه، استحم، ارتدى بدلته الكاكية الكريهة وودع خالته ميساك، ثم عمته هيلا

في البصرة القديمة، ومرّ في طريقه على بيت حنان أمه بالتبني، ألقى عليه نظرة من بعيد، فرأى سيارة الفولغسواغن البيضاء واقفة هناك بانتظار نسرين. أطرق برأسه، استأجر سيارة تكسي أقلته إلى محطة القطار، حيث ركب من هناك إلى بغداد، مع مجموعة من الجنود المحالين إلى الصنف نفسه، ووصلوا إليها قبل الغروب. باتوا ليلتهم تلك في نزل رخيص في شارع السعدون، وفي فجر اليوم التالي التحقوا بوحدة التدريب الخاصة بمنصات الصواريخ في التاجي، ليُفاجأ «أمل» بعد ساعات من وصولهم بخبر إحالته إلى صنف الدروع، كونه لا يملك المؤهلات اللازمة لدخوله في صنف الصواريخ، وقد تقرر ذلك، حسب ما أخبره أحد أفراد قلم الوحدة، بناء على المعلومات المدنية الواردة بشأنه.

كان «أمل» من جملة أولئك الذين لا يملكون لأنفسهم، على الرغم من رفضهم الحرب، سوى المضي مع القطيع، محبطين، يائسين، ومسلوبي الإرادة، يقودهم موت وشيك. شيوعيون، إسلاميون، ملحدون، وجوديون، عدميون، لا أدريون، وكل من أقرت بطاقة الأحوال المدنية بعراقيته، بغض النظر عن أصوله وقوميته. فعدا من صُنفوا على أنهم من التبعية الإيرانية، وأُسقطت عنهم الجنسية وسُفروا إلى إيران، كان على البقية من كرد، تركمان، كلدان، آشوريين، سريان، أرمن، مندائيين، شبك، ايزيديين، كاكائيين، أن يحملوا السلاح، ويوجهوا بنادقهم نحو العدو، في حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. وقد رأى «أمل» قبل سنتين كيف انتهت مطاردة أفراد من الانضباط العسكري لأحد الفارين من خدمة العلم بقتله، وسمع بآخرين قُتلوا برصاص فرق الإعدام حين حاولوا الفرار من خطوط المواجهة مع الإيرانيين، فضلاً عن اعتبار من أسروا أنفسهم عمداً لكي لا يقاتلوا

خونة وعملاء للجانب الإيراني، وبالتالي سينعكس ذلك سلباً على أسرهم وأقربائهم. كان يعلم أن ما ينتظره وهو هارب من الجندية، يختبئ في خزانة ثياب أو داخل قن دجاج، ربما يفوق بشاعة ما يمكن أن يحدث، أو ربما لا يحدث، بينما هو يتخندق في حفرة على الحدود في البصرة، أو رابضاً في موضع على جبل من جبال كردستان في الشمال العراقي. لهذا، فضل أن يخوض هذه المغامرة، ويذهب إلى الحرب بنفسه، على أن يسحله الانضباط العسكري بالقوة، فلعله لا يموت تلك الميتة التي سبقه إليها مئات الآلاف من الشبان.

ومنذ البداية، لم يكن «أمل» راغباً بهذا الصنف، فقد كانت كلمة صواريخ لوحدها ترعبه. لكنه يعلم أيضاً أن صنفاً عسكرياً كالدروع سيكون أقرب من غيره إلى خطوط المواجهة المباشرة، وعلى الرغم من ذلك، تقبل أمر تغيير صنفه برحابة، وأحس كما لو أنه برأ بذلك من دم الأرمن واليهود الإيرانيين الذين ربما يطولهم عدد من الصواريخ التي كان سيطلقها بنفسه، في حال أنهم لم يغيروا صنفه. التحق بمعهد الدروع في تكريت ضمن دورة تأهيل معلمي السياقة والإدامة للدبابات، ثم شارك بعد انتهاء الدورة في معسكر مشترك غرب الثرثار، قبل أن يتسلم كتاب نقله إلى البصرة شتاء ١٩٨٦. وكان قد حصل خلال تلك الفترة على عدد من الإجازات الدورية، كان يقضيها في البصرة، بين بيتي هيلا وميساك، من دون أن يفكر بزيارة حنان التي كان يراها على شاشة التلفاز، وهي تدبك وتردح وتنشد وتزغرد لابنها الشهيد الافتراضي. كان يتفقد البيت الذي ترعرع فيه، يفعل ذلك من بعيد، ويغيظه أحياناً وقوف سيارة الفولغسواغن البيضاء أمامه، لكنه يكبح غيظه ما أن يتذكر حجم الألم الذي تسببت به أمه بالتبني، حينما طردته من بيتها في ذلك المساء، فيعدل عن فكرة الاضطلاع بدور الابن والأخ

الغيور، ويقفل عائداً إلى بيت إحدى المرأتين، يعزز أغنوستيته بقراءة ديفيد هيوم وكيركجارد وهكسلي، أو يهدر المزيد من وقت إجازته القليلة بممارسة إدمانه على المواد الإباحية من صور وفيديوهات وبورتريهات عارية، حتى جاء اليوم الذي نُقل فيه إلى أحد الألوية المدرعة في قاطع شرق البصرة، بصفة سائق دبابة. وبينما هو في طريق العودة إلى البصرة بالقطار، ليلتحق بعدها إلى الجبهة، سمع أحد الجنود الثملين يردد كلمات أغنية نعّومي الشهيرة، فلمعت صورة نسرين في مخيلته المعتمة، بفستانها الأبيض وأحمر شفتيها الغامق، وهي تتكئ على جذع نخلة وتقطف بتلات وردة جوري حمراء، وهي تركض على ضفة الشط وتخاتل المغني بين الأشجار، وهي تعانقه في ذلك المساء، وتعضّه وتبصق حلمته، وتصدر فحيحاً يفزع ذاكرته، فحيح الانثى المستذئبة، فحيح مصاصات الدماء في الأفلام المرعبة.

بعد إجازة قصيرة لمدة أربعة أيام، التحق «أمل» إلى وحدته العسكرية في شرق البصرة، وتسلم هناك دبابة طراز ٦٩ صينية الصنع. ورغم أنه لم يقد في حياته سوى دراجة هوائية اشتراها له جمال عندما نجح من السادس الابتدائي إلى المرحلة المتوسطة، ومع أنه أظهر تذمره في معهد الدروع، أثناء الدروس النظرية والعملية التي كان يلقنها نواب ضباط متمرسون لسائقي الدبابات، لكنه لم يجد أمامه، في تلك الأثناء، سوى مواكبة القطيع، وتعلُّم ما يمكن تعلمه، إذ لم تمض سوى فترة قصيرة حتى تمكن من قيادة إحدى دبابات التدريب في المعهد. وعلى هذا النحو صار مؤهلاً لأن يعيش حياة الحرب، وممارسة صنفه العسكري بشكل فعلي، وهو ما حدث بعد تسعة أشهر، عندما بادرت القوات العراقية إلى هجوم مفاجئ لاستعادة منطقة الشلامجة الحدودية التي كان الإيرانيون قد استولوا عليها في وقت سابق.

كانت حنان لا تزال تحشر جسها الممتلئ بثياب أم الشهيد في الأوبريت التعبوي، وتتقصى أخبار «أمل» من بعيد. ونسرين تقضي وقتها بين المعهد والبيت، وتبحث عن انطلاقتها الفعلية نحو عالم التمثيل، وتخرج خفية بصحبة شاب جديد يقود سيارة شيفروليه سوداء. بينما كانت ميساك تنسج المزيد من السجادات ذات المناظر المستوحاة من تاريخ أرمينيا، وتتردد على كنيسة مريم العذراء للأرمن الأرثوذكس في البصرة القديمة وتصلي لـ «أمل»، أما هيلا فكانت هي الأخرى تدعو له أثناء صلاتها اليومية، تستمع إلى أخبار الحرب، وتستقبل زبوناتها من النساء في أيام محددة من الأسبوع.

* * *

كانت السينما هي أكثر أماكن الترفيه قرباً إلى نسرين من النزهات النهرية والتسكع على ضفة الشط، في وقت كان لا يزال هناك نساء يرتدن صالات العروض السينمائية، من دون أن يكون ذلك مدعاة لاستغراب الرجال، ممن لم تفقدهم الحرب وعسكرة المجتمع والثقافة سمات الستينيين والسبعينيين وانفتاحهم. كانت لا تزال مغرمة بكاترين دينوف منذ ان رأتها أول مرة في فيلم حسناء النهار وتمنت أن تكون مثلها في أحد الأيام، ممثلة مرموقة ومشهورة، تبتسم للكاميرات وتترك في دفاتر المعجبين توقيعها اللامع. ومنذ أن تعرفت نسرين على نعّومي وصارت خطيبته وهي ترافقه إلى السينما، في كل مرة يعرض فيلماً جديداً. وعادة ما يذهبان في الأوقات التي تكون المدافع الإيرانية قد كفّت عن القصف فيعود إلى المدينة نشاطها. يجلسان في المقصورة العلوية، على مقعدين من المقاعد المخصصة للعوائل. يعلكان، أو يأكلان الفشّار وبذور عباد الشمس. قد يلكز أحدهما الآخر أثناء المشاهد الحميمة التي دائماً ما تُقتطع من قبل مشغلي الأفلام، مما يثير سخط

المراهقين والجنود في الصالة السفلية، فيبدأون بالصفير ونعت المشغّل بالأعور. نسرين هي الأخرى كانت تبدي امتعاضها من مشغلي الأفلام الذين يعمدون، بخبثهم المعتاد، إلى قطع تلك المشاهد الإيروتيكية، متذرعين بالرقابة وتعليماتها المفروضة عليهم.

«هيييي!» كانت تهتف بصوت خافت كأنما تهمس لنفسها: «الأعور!».

لقد كرهت نسرين جميع العوران في العالم، وخصوصاً مشغل الأفلام في سينما أطلس الذي حرمها رؤية بطلتها وهي تؤدي مشهداً ساخناً. تمنت لو تراه وتبصق بوجهه. تقرّعه، وربما تصفعه. راحت ترسم صورته في مخيلتها: عجوز دميم، قبيح، بشعر أشيب وعين واحدة، شارب كثّ، أسنان مسوسة، ورائحة فم وإبطين زنخة. رأته في منامها بهيأة مارد أسود يغمز لها بطرف عينه المفقوءة، ويتوعدها بالاغتصاب. حاولت أن تنسى أمره، لكنه عاد ليقطع عليها متعتها برؤية ممثلتها المفضلة في فيلم آخر وهي تؤدي مشهداً خليعاً. وفي الليلة نفسها حلمت به مجدداً، وكان بهيأة غول هذه المرة، غول أعور راح يداعب أماكنها الحساسة حتى أوصلها إلى الذروة. وفي أحد الأيام، استأذنت نسرين خطيبها بالذهاب إلى دورة المياه في الأسفل. كانت الصالة العلوية معتمة بطبيعة الحال، والجميع منشغل بمشاهدة أحد أفلام بروسلي الذي لم يرق لها في ذلك الحين. وبينما هي تتلمس طريقها إلى باب الخروج الذي يفضي إلى السلم لفت انتباهها الضوء الساطع، المنبعث من ماكنة العرض في الأعلى، حيث غرفة التشغيل، إلى الشاشة الكبيرة. وبدلاً من النزول إلى دورة المياه، قادها الفضول إلى ارتقاء سلم الممر الوسطي الذي يقسم الصالة العلوية إلى نصفين. لكنها، وقبل أن تصل إلى تلك الغرفة في آخر الممر، بسلمتين أو

ثلاثة، رأت شبح رجلٍ يخرج منها: «لا بد أنه هو!» قالت في سرها وتبعته. رأته يزرر بنطلونه ويرتب هندامه وشعره الأشعث بينما هو يهبط السلم النازل إلى صالة الاستراحة في الأسفل. يدخل إلى المرحاض، يخرج، يشتري سندوتش من الكافيتيريا، يلتهمها بسرعة ويغادر السينما منتشياً. كان طويلاً، بديناً، أعور، ويشبه كثيراً الرجل الذي يلاحقها في كوابيسها الجنسية.

كانت نسرين تعلم أن الذهاب إلى ذلك المكان مغامرة لا تخلو من مخاطرة. وعلى الرغم من ذلك أقدمت عليها مجدداً، لترى المشهد نفسه، حيث الرجل الطويل، البدين، الأعور، يخرج من غرفة التشغيل، فيبدو أثناء ذلك، بينما هو يزرر بنطلونه، ويرتب ثيابه وشعره، كما لو أن خارج لتوه من مضاجعة محمومة. لكنها في المرة الثالثة لم تصادف ذلك الغول في طريقها. انتظرت لدقائق عله يخرج، فحصل أثناء ذلك أن انتبه بعض الشبان إلى وجودها المريب في ذلك المكان، فبدأوا بمغازلتها. لكنها لم تعبأ بهم، حتى وهي تصعد السلمات المتبقية للوصول إلى غرفة التشغيل، وتدخل إليها مدفوعة بالفضول وحب استطلاع صبياني مغامر، وغير مكترث. منذ ذلك اليوم، وفي كل مرة تستغبي نسرين خطيبها وتغادر مقعدها إلى جانبه، بحجة الذهاب إلى دورة المياه، فتقودها قدماها إلى غرفة التشغيل بدلاً من ذلك، يزداد لغط الأشخاص الذين يجلسون في المقاعد الخلفية، ويطلقون هتافهم المعتاد: «هيييي.. الأعور!» الأمر الذي لم يكن بوسعه الاستمرار أكثر من ذلك، فقد انتبه نعّومي إلى أن نسرين تتأخر كثيراً في دورة المياه، أكله الشك، فنزل في إثرها في المرة الأخيرة، ولم يجد لها أثراً، ولا حتى في صالة الانتظار. بحث عنها في كل مكان، باستثناء كابينة التشغيل، وكاد أن يعلن أنها مفقودة، لكنه عاد إلى مكانه في مقصورة

العوائل وانتظرها إلى أن انتهى العرض، لكنها لم تعد، ليُفاجأ بها فيما بعد، عند خروجه من السينما، واقفة على الرصيف المقابل، فلوّح لها بيده لكنها لم تره، أو أنها رأته ولم تعبأ، إذ لم تمضِ سوى لحظات حتى رآها تركب سيارة الشيفروليه السوداء التي يقودها شاب أسمر يرتدي قميصاً بكمين قصيرين جداً، حيث أمكنه رؤية وشم المرساة على زنده تحت أضواء مصابيح واجهة السينما.

في الليلة نفسها، فسخت نسرين خطوبتها من نعّومي وسط ذهول والدتها التي وصفتها بالبلهاء، لأنها أضاعت فرصة الزواج من شخصية مشهورة كانت ستوفر لها الفرصة المناسبة للظهور. إلا أن نسرين لم تكن تعبأ بكل ذلك، فقد أصرت على قرارها ونفذته، وبدأت بمواعدة الشاب الأسمر منذ صباح اليوم التالي، عندما هربت من المعهد وخرجت معه في نزهة نهرية.

«أليس من المفترض أن تكون أعوراً؟» قالت له وأطلقت قهقهة ناعمة.

«لماذا؟ سألها بدوره.

كانا يجلسان في زورق، ابتعد قليلاً حتى إذا صار بمواجهة مبنى سايلو البصرة الضخم على الضفة الأخرى عاد بهما إلى مرسى زوارق النزهة ليس بعيداً عن تمثال السياب.

«لأنك مشغل أفلام» قالت نسرين مبتسمة، وقد أخفت خصلة طائرة من شعرها خلف أذنها.

«وهل من المفترض أن تكون جميع المناديل الورقية كلينكس؟» سألها بينما هو يشعل سيجارة.

«لم أفهم» قالت نسرين بطريقة أظهرت انزعاجها المصطنع من سؤاله المبهم. ولكي يوضح لها الأمر، ترك سيجارته بين شفتيه وقال:

«أنا أقول لكِ» ثم أخرج من جيب بنطلونه الجينز الأزرق الفاتح منديلاً ورقياً وناولها إياه، لتمسح قطرات من ماء الشط بللت وجهها عندما انحنت على حافة الزورق، وراحت تغرف من المياه الصافية بمرح، ثم سألها: «ما هذا؟».

«هذا؟» قالت وهي تمسك المنديل الورقي بطرف سبابتها والإبهام، وبدت كما لو أنها تفعل ذلك هازئة، لتبين له كم هو تافه سؤاله: «وما عساه أن يكون؟ كلينكس طبعاً!».

«هل رأيتِ؟» هتف مشغل الأفلام كما لو أنه اكتشف لغزاً «قلتِ أنه كلينكس».

«نعم وماذا في ذلك؟» سألت نسرين باندهاش، فرمى مشغل الأفلام عقب سيجارته في الشط، وأجابها بينما هو متأبطاً كفيه، شابكاً ذراعيه، متكئاً على حافة الزورق وينظر إليها مبتسماً:

قلتِ أنه كلينكس مع أنه ماركة فاين!».

«حقاً!» صاحت نسرين بمزيد من الدهشة.

«نعم» أشعل الشاب الأسمر سيجارة أخرى قائلاً: «كل ماركات المناديل الورقية، لدينا نحن العراقيين، هي كلينكس! والسبب يعود إلى أسبقية دخول السلع إلينا. فأنا لا أشك مثلاً أن تايد هي أول ماركة لمساحيق الغسيل وصلت إلى العراق. ومنذ ذلك اليوم كل مساحيق الغسيل، على مختلف ماركاتها، هي تايد!».

«يبدو الأمر سحرياً!» قالت نسرين. كانت لا تزال منبهرة من لباقة

مشغل الأفلام الذي تابع كلامه، بينما هو يدعك بإصبعه السبابة راحة يده التي تمسك السيجارة:

«هل تعرفين أصل كلمة تمَّنْ؟».

«لا».

«حسناً» قال الشاب الأسمر النحيل وهو يثب من مقدمة الزورق إلى المرسى الصغير، وقد مد يده لنسرين ليساعدها على العبور، لكنها أفلتتها، ووثبت هي الأخرى بخفة أدهشته: «سأحدثكِ عن التمَّنْ في الطريق».

بعد فترة قصيرة ستعلم حنان بأمر العلاقة بين نسرين ومشغل الأفلام، فتتشاجران، وتبدوان أثناء ذلك كما لو أنهما إختان، وليس الأم وابنتها:

«أعور؟!» تقول الام لابنتها، وهي تنظر إليها بعينين زادت الصدمة من اتساعهما. تلطم خدها وتخمشه بأظافرها في الوقت نفسه من هول ما سمعته: «تتزوجين أعور؟!».

«لن أتزوجه» ردت الابنة بغضب: «كما أنه ليس أعور».

«كيف ذلك؟» سألتها الأم.

«أنا أقول لكِ» قالت نسرين وهي تقضم من خيارة مخللة. كانتا تجلسان إلى مائدة طعام صغيرة، تتناولان الغداء «لكن، عليَّ أن اسألك أولاً».

وضعت حنان ذراعاً فوق الأخرى على المائدة، وراحت تنظر إلى ابنتها بريبة. عندئذ قالت نسرين وهي تغرف بملعقتها من إناء الرز أمامها:

«ما هذا؟

لم تفهم والدتها فحوى السؤال، وما علاقته بحديثهما عن مشغل الأفلام الأعور، لكنها ردت قائلة ببرود:

«تمّنْ».

«هنا المسألة!» قالت نسرين بنبرة اكتشاف: «قلتِ تمّنْ، رغم أني أكاد أجزم من رائحته أنه رز عنبر!».

فكرت حنان ثم قالت وهي ترسل إلى ابنتها نظرة توبيخ صارمة: «لم أفهم! هل تستغبين أمكِ يا بنت؟».

«أبداً» ردت نسرين بهدوء وخبث: «هل تعرفين أصل كلمة تمّنْ؟» قالت لوالدتها.

«لا أعرف» أجابت الأم بنفاد صبر، وقد شبكت أصابع يديها وأسندت عليها حنكها: «أخبريني أنتِ».

«سأخبركِ» قالت نسرين وهي تتجشأ، ثم تابعت بعد أن رشفت بعض الماء من قدح موضوع على المائدة:

«يقال أن أول شحنة رز وصلت إلى البصرة كانت تحمل ماركة «تِن مان» أي عشرة رجال. ولما كان من الصعب على الحمالين المحليين في الميناء لفظ التسمية كما هي في الإنكليزية، وكما هي عادة العراقيين، فقد اختصروها بمفردة هجينة ليس لها أصل في العربية، فقالوا: تِمّنْ. ومنذ ذلك اليوم جميع أنواع الرز، العنبر والبسمتي و«أبو عربانة» والرز التايلندي، هي تمّنْ! كذلك هم مشغلي الأفلام في دور السينما يا أمي العزيزة، جميعهم عوران، لكن في مخيلتنا!» نقرت نسرين بسبابتها على رأسها وهي تلفظ الكلمتين الأخيرتين «هنا.. فقط!».

«من أين تأتين بهذا الكلام؟» قالت بلهجة أخفت ورائها استئناسها بالحكاية الصغيرة: «ماذا تريدين بالضبط؟».

«حسناً» ردت نسرين بنبرة ميكافيلية، وبدت أثناء ذلك كما لو أنها فرغت من تفنيد نظرية وراحت تثبت أخرى: «وليد ليس أعوراً يا أمي. إنه شاب مثقف وطموح مثلي، وليس مثل ذلك المغني الأحمق الذي كسر رجلي» أمسكت بيدي والدتها وراحت تنظر إليها بتوسل: «سأذهب إلى بغداد، هناك سأجد فرصتي» كانت تتوسلها فعلاً: «سيساعدني» الآن بدأت تشد على يدي حنان بحرارة وتجذبهما إليها: «لا تقفي في طريقي.. أرجوكِ».

«لن يحصل هذا» أفلتت حنان يديها بحركة مفاجئة أفزعت نسرين: «لن يحصل هذا أبداً».

منذ ذلك اليوم وعلاقة نسرين بوالدتها متأزمة. حاولت أن تمنعها من مواعدة مشغل الأفلام الا ان نسرين كانت تفلت من مراقبتها بسهولة، فتهرب من المعهد لتلتقي به خفية. تذهب إليه في السينما، أو يلتقيان في كورنيش العشّار. يتسكعان على ضفة الشط. يطعمان الأسماك بقايا ما يأكلانه من ساندويتشات الفلافل. هي تسرح في أحلامها الكبيرة والمخيفة، وهو يتكلم بشأن نيته اصطحابها إلى بغداد. يغنيان، يحلمان، يُلحدان، يتشاجران، يتنزهان في الزوارق، يتبادلان القبل، يتخاصمان، يكفران، يخططان للهرب، يشتم احدهما الآخر، وفي صباح اليوم التالي يتصالحان.

وفي مساء يوم من أيام كانون الأول الباردة، وبينما كانت تؤدي دورها المعتاد، كأم للشهيد، على مسرح بهو الإدارة المحلية، في وقتٍ كان هناك المزيد مما لم تقدمه بعد، أحست حنان بالإعياء وأُغمي عليها

لدقائق، غادرت بعدها إلى البيت، متعبة، مرهقة، لتُفاجئ فور وصولها بخبر مقتل «أمل» الذي حُشر، في ذلك الحين، داخل نعش ولُفّ بالعلم العراقي، وأُرسل على عنوان بيتها في محلة البجاري برفقة مأمورين عسكريين. عندئذ، أكملت ما بدأته في ذلك المساء على خشبة المسرح، ولم تستطع إتمامه بسبب حالة التعب والإعياء الشديدين. أكملت الدور المناط بها منذ سنوات، لكن على نحو مختلف هذه المرة، على طريقة النساء القرويات، اللطامات، النوّاحات، خمّاشات الخدود وشقاقات الجيوب. ألقت بنفسها على النعش، احتضنته، قبّلته، شمته: رائحة دماء! راحت تبحث عن ثغرة فيه علها ترى من خلالها وجهه. شقت ثوبها، نتفت شعرها، لطمت صدرها، خمشت خديها، وسط نساء الجيران اللواتي هرعن لمواساتها، وكن يحاولن تهدئتها، ويبكين لبكائها بينما هي تتوسل بأن ترى ولدها للمرة الأخيرة، قبل أن يوارى جثمانه التراب. فأذعن الجنديان وأزاحا العلم وفتحا غطاء النعش فظهرت جثة «أمل». كان لا يزال في ثيابه العسكرية، وقد غطت الدماء وجهه، وسالت من جراح متفرقة في جسده لم تمضِ سوى ساعات منذ أن أَصيب بها. وما أن رأينه النساء المعزيات، المواسيات حتى تعالت أصوات الصراخ الجنائزي، في حين بدت حنان في تلك اللحظة صامتة، ساهمة، تنظر إليه بعينين لم يعد بإمكانهما ذرف المزيد من الدموع، فقد بدتا جافتين، يائستين، مظلمتين، على نحو كأنها توقفت عنده لتشبع نظرها بذلك المشهد قبل أن تعمى. كان زيقها لا يزال مشقوقاً. جثت على ركبتيها وانحنت على الجثة، فتدلى من صدرها ثديان كبيران ممطوطان. اضطربن النساء، صرخن، لطمن، انتحبن بصوت عالٍ عندما رأين حنان وهي تمسك ثديها الأيمن، تحشر حلمته

بين سبابتها والوسطى، وتدعك بها شفتا «أمل»، وتصدر صوتاً بشفتيها كما يفعلن الأمهات حينما يرغّبن أطفالهن بالرضاعة:

«خذ...» تردد بصوت متحشرج كما لو أن سكيناً اعترضت طريقه: «هيا يا صغيري.. إلقمها.. الآن!».

وسط هذا الضجيج، هذه الفوضى، هذا الجو الجنائزي المحموم، الضاج بالصراخ والنواح، بالعويل واللطم والخمش، وفي لحظة مجنونة من تلك التي عادة ما يغيّر فيها القدر رأيه ويحذف المشهد التالي، ثمة من خطر له أن يعطس، كما لو أنه يقول لهم كفى تمثيلاً يا أعزائي: «تشوووو!» انتهت الحفلة: «تشوووو!» عودوا إلى منازلكم: «تشوووو!».

كأن الأمر أشبه بدعابة، ربما سيكون من الملائم جداً أن تقف حنان عندها، في تلك الأثناء، لتصفع الحرب وتقرّعها، تمسكها من أذنها وتلقي بها في الخارج، قبل أن تشكر المعزيات من نساء الحي، وتدعوهن إلى الانصراف. لكنها ماتت في العطسة الثالثة. تلك العطسة القاضية التي لفحت ثديها بهواء فاسد بنكهة البارود. أما «أمل» فمنذ أن أفاق من غيبوبته وأطلق عطسته الأولى وهو طريح الفراش. وبما إن إحدى الإصابات البليغة كانت في رأسه، فقد أفاق بذهن مشوش، وظل يعاني من فقدان الذاكرة المؤقت طيلة ثلاثة أسابيع كان قد قضاها في المستشفى العسكري، للتداوي من حروقه وجروحه الأخرى التي كانت تملأ جسده، وكانت كل من هيلا وميساك، في تلك الأثناء، تتباريان، كالعادة، فيما بينهما من أجل أن تسبق إحداهما الأخرى إلى ذاكرته، وتمنيان نفسيهما بألا يتذكر أحداً سواهما، وينسى ماضيه الحافل بالتعاسات، ليبدأ بعد ذلك حياته الجديدة. لكنه، في النهاية، أول ما تذكر مرضعته وأمه بالتبني، ثم نسرين اخته من الرضاعة. وفي كل مرة

يسأل عمته وخالته عنهما تكذبان عليه، إلى أن قررتا، بعد خروجه من المستشفى ودخوله فترة نقاهة، إخباره بأمرهما. فحنان ماتت تلك الميتة الكاريكاتورية، وتحديداً بعد العطسة الثالثة، حينما كانت تحاول إرضاعه في ذلك اليوم الذي جيء به من الجبهة، محشوراً في نعش ملفوف بالعلم العراقي ظناً منهم أنه فارق الحياة بعد أن أحرقت دبابته. وأما نسرين، فمنذ تلك الحادثة لم يرَ أحد لها أثراً. اختفت فجأة. كأنما انشقت الأرض وابتلعتها. ماتت هي الأخرى. اختُطفت، أو ربما انتحرت. لا أحد يعلم.

(٦)

كانت نسرين تتسكع بصحبة وليد في سيارته حينما جاؤوا بـ «أمل» في ذلك المساء جثة في تابوت رخيص. وصلت إلى البيت، في وقت كانت والدتها لا تزال تنتحب وتلطم صدرها ناعية ابنها المتبنى. تفعل ذلك بصوت يغرغر في فمها على نحو مأساتي. دخلت. وقفت عند باب الهول، لم ترَ من حنان سوى شعرها المنفوش، وقد أحطنها النساء من كل جانب. هذه تطبطب على كتفها، وتلك تمسح على رأسها، وأخرى ترش وجهها بالماء كلما أُغمي عليها. شعرت أنهن يخنقنها. تمنت لو تطردهن وتعانقها، تواسيها، تبكي على كتفها، لكنها لم تفعل. ظلت واجمة كما لو أن أحداً سمّرها هناك. ترقرقت الدموع في عينيها حين سمعت امرأة معصوبة الرأس تقابل أمها، كانت تنعى ولدها الذي فقدته في إحدى المعارك الطاحنة، تنعاه بصوت حنين ذو بحّة راحت تنخر وجدانها وتستحث دموعها بشكل غزير. تنحت جانباً حين كان عليها أن تفعل ذلك، لتفسح المجال لنساء أخريات مفجوعات بابنائهن سمعن بالخبر المفجع وهرعن لمواساة حنان. جلست على إحدى درجات السلم الصاعد إلى السطح، وضعت رأسها بين ركبتيها، متسائلة عما كان حقيقياً ما تراه، أم أنه الدور السخيف نفسه الذي طالما أخذت أمها على عاتقها تأديته طوال الأعوام الثلاثة الماضية، وها هي الآن تؤديه

على نحو مختلف، بجزع، وحزن لم تكن لتظهرهما حتى عند وفاة زوجها جمال.

لقد أرّق نسرين أنها لم تكن تعرف، في ذلك الحين، إن كان ما ينتابها إزاء وجود جثة «أمل» في نعش لا يبعد عنها سوى أمتار قليلة، هو شعور بالخوف أو الحزن أو الغضب. تصورت في مخيلتها عدة أشكال يمكن أن يكون عليها أخيها من الرضاعة، بينما هو محشور في ذلك التابوت. تذكرت طفولتها معه، عشقها الصبياني المحرّم، صدره الذي طالما لاذ به رأسها أثناء القصف تحت السلم، دفئه، ملمس أصابعه وهو يشبكها بقوة كلما سقطت قنبلة إيرانية في الجوار، نبضات قلبه المتسارعة، قرقرة أمعائه، تمتماته بالأدعية العربية واليهودية والأرمنية، طعم لحمه الذي غرست أسنانها فيه يوماً، رائحة قمصانه، فراشه، خربشاته، وخشخشة الصور الإباحية تحت وسادته.

فجأة، لفت انتباهها لغط النسوة، وتعالي صراخهن. رفعت رأسها، وقفت، رأت والدتها تنحني على جثة «أمل» في التابوت، وسمعتها تردد تلك الكلمات وتتوسله أن يرضع من ثديها: «خذ.. الآن يا صغيري!» لم تحتمل المشهد، حجبت وجهها بيديها وراحت تنتحب، أحست بانقباض قلبها في تلك اللحظات، بارتعاشه، واندفاعه بأقصى ما أمكن لقلب أن يفعل ذلك ويخفق بشكل متسارع مجنون، بينما هي تسحب نفسها نحو باب الخروج بخطى متثاقلة. وإلى أن وصلت إلى سيارة الشوفرليت السوداء أمام البيت كانت قد بلغت حافة الانهيار. سألها وليد عما إذا جلبت ثيابها كما اتفقا على ذلك مسبقاً بعد أن قررا الهرب.

«ما هذا الصراخ؟» أدار مفتح التشغيل فدوّى المحرك، في حين كان الصراخ الآتي من داخل البيت يزداد حدة: «هل هناك مشكلة؟».

«تحرّك!» صرخت نسرين قائلة: «خذني من هنا!».

فانطلقت السيارة.

***

ما أن انتهت فترة نقاهته التي استمرت زهاء ثلاثة أشهر منذ إصابته في معارك شرق البصرة، حتى التحق «أمل» بوحدته العسكرية ضمن أحد الألوية المدرعة التابعة للفرقة السادسة. كانت الإصابة في رأسه لا تزال تشوشه، فحاول استغلال ذلك لصالحه، وبدأ الترويج لمعاملة توفر له فرصة إعفائه من الخدمة العسكرية لأسباب صحية. إلا أن اللجنة الطبية المكلفة باختباره وفحصه قررت في النهاية أن لا شيء يستأهل أن يكون سبباً في إعفائه من الخدمة. وكان أقل من خرج من تلك اللجنة أنها رفعت توصياتها بضرورة إعفائه، بشكل مؤقت في تلك الفترة على الأقل، من ممارسة صنفه كسائق دبابة. حينئذ، راح «أمل» يتنقل بين الصنوف والمهام، فمن جندي مشاة في الخطوط الأمامية، إلى جندي شغل، إلى مخابر، إلى كاتب، ثم جندي إعاشة، قبل أن يُكلف في النهاية بمهمة فرز جثث القتلى وإحصائها وتهيئتها، قبل أن يتم حشرها في التوابيت ولفها بالعلم العراقي وإرسالها إلى الأهالي المنكوبين.

وبينما هو في الخطوط الخلفية، يحصي جثث القتلى، يفرزها، ويؤرشف الأسماء في السجلات. يتأمل وجوههم المدماة، المشوهة حيناً والجامدة حيناً آخر. يفتش في أجسادهم عن أثر الرصاص والشظايا. يتعقب الوحمات التي تحاكي أشكال الفواكه والخضر: باذنجان، توت، تين، موز. يمعن نظره في الأوشام على ظهورهم وأذرعهم وأفخاذهم وأكفهم: أسماء وتواريخ، أشكال مبهمة ومراسٍ، وجوه غريبة، شفاه

متلاصقة، ومجسمات توحي بأوضاع جنسية، بعضها وشِمَ بمهارة والبعض الآخر على نحو عشوائي. كان يقرأ أسمائهم وصنوفهم وزمر دمائهم في الأقراص المعدنية المعلقة في رقابهم، ويفتش في جيوبهم ويقلب الصور: أبناء وآباء وأمهات، خطيبات وزوجات وعشيقات، أصدقاء وغلمان، رسائل غرامية وذكريات، أوراق نقدية ورقية وأخرى معدنية. لكنه لم يكن يأخذ شيئاً من مدخرات أولئك القتلى سوى بعض الصور الخليعة التي قلما يعثر عليها في جيوب العُزّاب، ممن لم يجدوا مانعاً في أن يكبحوا بها سعارهم الشهواني خلال الفترات الطويلة التي يقضونها في الجبهة. بينما هو على هذا الحال، كانت نسرين تعيش في بغداد حياة فناني الدرجة العاشرة، وتسكن مع زوجها وليد في شقة صغيرة. تقضي نهاراتها بالنوم، وفي المساء تؤدي أدواراً هزيلة في مسرحيات شعبية تقدمها فرقة فنون شعبية ناشئة.

«تحبينني؟» يسألها مشغل الأفلام.

«نعم يا حلو» ترد نسرين، ومثل قطة تلعق أصابعه.

«هناك عرض مغري» يبتلع وليد ريقه بصعوبة: «ستكونين نجمة».

«حقاً؟» تقفز نسرين: «ما هو؟».

يقبلها، يعضعض أذنها، يهمس فيها.

يمتقع وجه نسرين، تشزره، تصفعه: «ماذا تظنني؟!».

يشعل وليد سيجارة، ينفث دخانها في وجهها، ويرد عليها بكلمة نابية.

يتشاجران، يتشابكان بالأيدي، يتبادلان البصاق والشتائم. تقذفه بمنفضة السجائر، يطأطئ رأسه، فتكسر المنفضة زجاج النافذة خلفه.

«أنتِ مجنونة!» يصرخ بوجهها.

«نعم مجنونة» تزعق، تنتف شعرها، تطرده: «وأنت قوّاد!».

كان وليد قد عمل مشغل أفلام في عدة دور سينما في بغداد، ثم نادلاً في بار، قبل أن ينتهي به المطاف كقاطع تذاكر في المسرح الوطني. وقد أبدى تفوقه في خداع أفراد الأمن والشرطة والانضباط العسكري بأوراق مزورة أبعدته عن التجنيد الإلزامي منذ بداية الحرب، غير عابئ بما يسمعه عن فرق الإعدام التي تلاحق الفارين من الجندية. وكان قد أقنع نسرين، بالإضافة إلى عملها في المسرح الشعبي، بالمشاركة في أوبريتات الانتصارات المزعومة، والعروض المسرحية التعبوية، مبرراً انخراطها في هذا المجال بداعي جمع المال الكافي الذي سيؤمن سفرهما إلى هوليود وتحقيق حلمها بأن تكون ممثلة مشهورة. فصارت تجسّد دور أم الشهيد الذي كانت تقرع والدتها بسببه، ودور الزوجة التي تبلغ عن زوجها الهارب من خدمة العلم، ودور المقاتلة في صفوف الجيش الشعبي، ودور امرأة ريفية تُدعى «تسواهنّ» إحدى أساطير الحرب، وهي تقاتل الإيرانيين في منطقة شرق دجلة. وفضلاً عن ذلك كانت تشترك في أداء الأغاني الحماسية الداعمة للحرب أثناء المعارك الشرسة في خانقين وشرق البصرة والفاو والجبهة الشمالية، مقابل المزيد من المكرمات والمكافآت التي يمنحها ديوان الرئاسة ووزارة الثقافة والإعلام للفنانين، ممثلين، مغنين، ملحنين، نحاتين، رسامين، رسامي الكاريكاتير، الشعراء، الروائيين، المسرحيين، من أولئك الذين يؤسطرون المعارك ويقدمون دعمهم للمجهود الحربي والحزبي، فكانوا يحولون الهزائم إلى انتصارات، والنملة إلى فيل.

انتهت الحرب وتسرّح «أمل» من الجيش. عاد إلى بيت عائلته بالتبني في محلة البجاري ليعيش فيه حياة العزلة والتقشف، ينهك نفسه بالقراءة وكتابة البحوث والأطروحات الجامعية لطلاب كسالى، مقابل أثمان بالكاد تكفي لشراء المزيد من الكتب والمواد الإباحية التي لا زال مدمناً على اقتنائها وتعقب مصادرها. وكانت كل من هيلا وميساك تتناوبان على زيارته. فكانتا تجلبان له الطعام، وتنظفان البيت، تصنعان له الكعك والحلوى، وتزودانه بالمال بين فترة وأخرى. وكان هو يرد جميلهما هذا بالتردد على بيتهما وقضاء بعض الوقت وتبادل الأحاديث التي عادة ما تنتهي بالشجار.

في تلك الفترة ازداد ولع «أمل» بالكتب على نحو أقرب إلى الهوس. فكان يقرأ لساعات طويلة من دون أن يشعر بالملل. في حين كان يتعاطى المواد الإباحية كما يتعاطى أحدهم المورفين، وبمجرد أن ينتهي مفعوله ويزول الخدر يبدأ شعوره بالخزي، بالوخز الذي طالما رافقه بعد أول عملية استمناء في مراهقته. فكان يحشر نفسه في زاوية ويجلد ذاته، يختلق لها مسرحية الدمار على نحو مازوشي. يشعر أنه كائن عديم الفائدة، بقدمين قد تحملانه إلى كورنيش المدينة كأقصى حد لمكان يمكن أن يصل إليه، ويدين ليس لهما عمل سوى دلك عضوه وتقليب صفحات الكتب. كان يحنّ لأبويه بالتبني، وطالما حملته العاطفة تجاههما إلى تذكرهما بمزيد من الشموع التي كان يشعلها في غرفتهما المهجورة كلما استدعته الذكرى أن يفعل ذلك. في الحين الذي لم تعد محاولاته بالحيلولة دون استعادة ذكرياته مع نسرين تجدي نفعاً، فكان أكثر ما يتذكره منها، وسرعان ما تصوغه المخيلة على طريقتها في ابتداع الصور البهيمية تارة، أو تلك التي تعنى بالسادية، هي صورة مصاصة

الدماء التي غرست نابيها في ثديه يوماً ما، وكانت تدعوه لاهثة: كن أسداً وافعلها!

كان يراها في التلفاز، تمثّل في مسرحيات فاشلة، وتظهر في إعلانات تروّج لمنتوجات رخيصة: معجون طماطم، دبس، كاتشب، مربّى، مخللات، مشروبات غازية والبان. كذلك ظهرت كممثلة كومبارس في فيلم أدت فيه دور طالبة جامعية بضفائر طويلة تتدلى على صدرها، ترتدي الزي الموحّد: قميصاً أبيض وتنورة رصاصية. تضم إلى صدرها حزمة من الكتب، وتمشي بصحبة شاب بوجه أملس يقف إلى جانبها في حدائق الجامعة المستنصرية، يتمشيان خلف بطلي الفيلم اللذين يؤديان مشهد الفراق. انخرطت نسرين بعدها في المسرح التجاري ومثّلت أدواراً رخيصة وبرعت في الرقص، فكانت خشبة المسرح تهتز تحت قدميها الحافيتين المخلخلتين، وسط هتاف وصفير المراهقين والشواذ والجنود والسكارى والغلمان المهووسين بالاستمناء في المقاعد الخلفية بإيحاء من ردفيها اللذين يهتزان على نحو داعر. كل ذلك كان يجري بتدبير من وليد الذي صار أشبه بالمدير الفني لأعمالها، وكان يحاول أن يبدو جاداً وحقيقياً بينما هو يدفعها إلى تلك الأعمال، بداعي تحصيل الفرصة المناسبة لظهورها كنجمة في النهاية. لكنه، وفي كل مرة يعتقد أنه صار حاذقاً في تلك الأمور، تصدمه نسرين بردات فعلها المفاجئة، على الرغم من انصياعها لفكرته الميكافللية، فقد كانت تراه قوّاداً أكثر منه إدارياً أو حتى زوجاً، إذ لا يزال يعرض عليها التمثيل في فيلم إباحي منزلي، وهي ترفض ذلك، وتصفعه، تشتمه، ثم تطرده من الشقة، فيعود إليها بعد أيام، ثملاً، مفلساً، وقذراً، يطلب مغفرتها فتسامحه. يتعانقان، يبكيان، يتعريان، ويتضاجعان بطريقة حيوانية.

وفي أحد الأيام، قبل غزو الكويت بشهرين، بينما كانت نسرين تهز وسطها على إيقاع الزنبور، فوجئت بأفراد الحرس الخاص وهم يدخلون إلى القاعة ويفرغونها من الجمهور، فتوقف العرض واسدلت الستارة وانسحب الممثلون إلى خلف الكواليس. ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى دخل إلى القاعة شاب أسمر طويل وملتحٍ، يرتدي بذلة رسمية زرقاء، يحفّه الحراس الزيتونيون من كل مكان. كانت نسرين في حيتها تراقب المشهد من خلال الثغرة بين نصفي الستارة حين فوجئت بوليد وهو يهمس في أذنها: «ارقصي للاستاذ!».

دقائق وأزيحت الستارة، وانبعث صوت الطبل عالياً مدوياً ومتزامناً مع عزف الأرغن لموسيقى أغنية راقصة، فبدأت نسرين بهزّ كتفيها ووسطها والدوران حول نفسها بخفة. كانت تُبطئ مع إبطاء عازف الزنبور ثم تعود لتردح ثانية في موجة صاخبة من الاهتزازات التي يبدو أنها أبهرت الأستاذ، فكان يصفق لها حيناً ويهمس في أذن أحد المرافقين إلى جانبه حيناً آخر.

في اليوم التالي، كان على وليد إخبار نسرين ما أخبره به أحد مرافقي الأستاذ بشأن الدعوة الموجهة من قبل الأخير لإحياء إحدى حفلاته الخاصة في نادي الصيد. ولم تخفِ نسرين، أثناء ذلك، خوفها من تلك الدعوة، خصوصاً أنها سمعت بشراهة الأستاذ الجنسية، ورعونته، وسكره، وعربداته التي عادة ما تنتهي على نحو طالما انتهى إليه عدداً من الطالبات الجامعيات ممن كان يجبرهن لإشباع نزواته. وكانت قد رأت بعينيها، في أحد أزقة حي الغدير، المحامية لهيب كشمش نعمان التي أمر باعتقالها وعُذبت، قبل أن تنتهي إلى الجنون، بسبب إجبارها من قبل صدام حسين بتسلّم قضية الدفاع عن حارسه الشخصي كامل حنا ججو الذي قتله الأستاذ بداعي أنه كان السبب وراء

زواج والده من سميرة الشاهبندر زوجة صدام الثانية. ازدحم خيال نسرين بعشرات الصور التي ربما ستنتهي إلى أحدها، ورأت أن من العبث الاضطلاع بدور شهرزاديّ أمام شهريار سكّير، بدويّ أهوج مثل الأستاذ، لا يكترث بالحكايات أكثر من اهتمامه بكرة القدم ومعاقبة لاعبي المنتخب الوطني، وهوسه بفضّ عذرية الفتيات الجميلات.

في اليوم التالي، مساء، استقلت نسرين سيارة مرسيدس سوداء طراز ٨٨ مظللة أقلتها إلى نادي الصيد في الجادرية. كان هناك الكثير من النساء وأصدقاء الأستاذ الذي وصل متأخراً، وكان ثملاً، لا يكاد يكفّ عن القهقهة وإرسال الابتسامات كلما همست في أذنه إحدى مفضلاته اللواتي يرتدين ثياب سهرة لا تخفي الكثير من أجسادهنّ، بينما هنّ يحطن به ويرقصن حوله وينظرن بعين الريبة إلى نسرين التي كانت ترقص هي الأخرى، ترقص على أنغام أغنية راح يصدح بها أحد المغنين على المسرح. مضى الوقت، ولم يحصل ما كانت تتوجس منه، بل على العكس، تجاذبت أطراف الحديث مع الأستاذ لدقيقتين بعد الحفلة، ورأت فيه الشخص السلس، الضحوك، الذي يكاد يكون طبيعياً ويسيطر على نفسه ووعيه، على الرغم من إفراطه بالشرب، وعلاوة على ذلك كان قد أوصى حراسه بمنحها مبلغاً محترماً والاعتناء بها في الطريق إلى مسكنها.

ركبت نسرين سيارة المرسيدس السوداء المظللة نفسها، والتي كان من المفترض أن توصلها إلى شقتها في الكمالية. إلا أنها سلكت طريقاً آخر يفضي إلى مكان ناءٍ أشبه بالثكنة يقع وسط أشجار كاليبتوس وحمضيات، حيث كان بانتظارها هناك نحو خمسة أشخاص، ما أن رأوها حتى راحوا يتنابزون بينهم، ويمازحون بعضهم بكلمات نابية، يقهقهون، يبصقون، ويلعنون، ورائحة العرق تضمخ ثياب الحرس

الخاص التي يرتدونها. اقتادوها إلى قاعة فسيحة ومؤثثة بأسرة ودواليب حديدية وشماعات ملابس وصور صدام وخرائط تزين الجدران المطلية بلون زيتونيّ فاتح. طرحوها على أحد الأسرة بعد أن جردوها من ثيابها، ثم تناوبوا على مضاجعتها قسراً لأكثر من ساعة حتى أغمي عليها. وعندما أفاقت بعد نصف ساعة وجدت نفسها في قاعة جرداء يضيئها مصباح يتدلى من السقف. ثمة مزيج من روائح عطنة، دماء، بول، غائط، وصياح ديكة صار بالإمكان سماعه في تلك الساعة من الفجر. عصبوا عينيها واقتادوها إلى سيارة المرسيدس السوداء التي أقلتها إلى بغداد وسط تهديد ووعيد الحراس بقتلها إن هي تفوهت بكلمة واحدة. بالكاد حملتها قدماها إلى شقتها. كانت منهكة، خائرة، تحدوها الرغبة بإكمال طريقها إلى المطبخ وإنهاء حياتها بطعنة سكين، لكنها، ما أن فتح وليد الباب ودلفت إلى الداخل حتى انهارت تماماً. ثمة حرقة بين فخذيها وإليتيها، وآلام في ظهرها أقعدتها لأكثر من شهر كانت تعاني خلالها من تداعيات نفسية وأوجاع لا تطاق في أماكن حساسة، فطور في المستقيم، تعفن في فتحة الشرج، تقرحات والتهابات في المهبل، خدوش في الصدر وتورم في حلمتي الثديين، التهاب في الحلقوم، وتشقق في الشفتين.

بعد حوالي ستين يوما منذ تلك الحادثة، شعرت نسرين ان شيئاً ما بدأ ينمو بين احشاءها. عادت إلى البصرة بصحبة كرومي، في الوقت الذي بدأت القوات الأمريكية بالتدفق إلى الأراضي السعودية، وبلغ حجم تحشداتها العسكرية نحو خمسمائة ألف جندي، تزامناً مع إعلان صدام حسين اعتبار الكويت المحافظة التاسعة عشر.

القسم الثالث

(١)

ما أن اجتاحت وحدات الحرس الجمهوري الكويت في ٢ آب ١٩٩٠، وبدأت القوات الأمريكية بالتدفق إلى الأراضي السعودية حتى أطلقت الحكومة النفير العام، واستدعي في إثره جميع الجنود المسرحين عقب الحرب العراقية الإيرانية. باشرت مفارز الانضباط العسكري والرفاق الحزبيين بتصيد المتخلفين والفارين من خدمة العلم وإرسالهم إلى الجبهة بالقوة. كان «أمل» في البيت يقرأ بانتاليون والزائرات لماريو فاراغاس يوسا حينما طرق الباب على نحو لم يكن يشك في أن الطارق هو أحد الرفاق الحزبيين، جاء ليخطره بضرورة تلبية نداء الوطن والقائد. لكنه لم يجد أحداً في النهاية. ثمة امرأة متلفعة بعباءة تمشي مسرعة وتكاد أن تنعطف يميناً عند آخر الزقاق. ظنّ أنها متسولة، فراح يغذّ السير في إثرها من زقاق إلى آخر، وقد أخرج ورقة نقدية ليعطيها إياها، لكنها اختفت قبل أن يلحق بها. اختلطت بالمارة في شارع المطاعم، وسط نساء أخريات يرتدين العباءات. عاد بعدها إلى البيت، وقضى بقية النهار بقراءة رواية يوسا لكنه لم يكملها. تركها في المنتصف وبدأ في اليوم التالي بمراجعة مديرية التجنيد العامة ليُساق بعدها، مع مئات الآلاف عبر آبار النفط، إلى الجحيم الذي ينتظرهم في الكويت. عمته هيلا وخالته ميساك ودعتاه بالبكاء والصلوات والأدعية.

أحالوه إلى كتيبة دبابات تابعة إلى لواء مدرع ضمن أحد الجحافل المرابطة على الحدود الكويتية السعودية. وتم تسليمه هناك، بصفته سائق درع، دبابة من طراز أسد بابل وهي نسخة عراقية مطورة من الدبابة الروسية (تي ـ ٧٢).

ما إن قرأ «أمل» الاسم أول مرة على بدن تلك الدبابة حتى تذكر الجانب الآخر لقصة أسد بابل الأثري في المخيال الشعبي للجدات. تذكر نسرين، والمرة الأولى التي سحره مشهد الأسد المهيمن على فريسته المطروحة أرضاً، المستسلمة، اليائسة، التي تثني ركبتيها وتمسكه بيدها من الجانب الآخر. تذكر صباه، عندما كان ينكّل بالأسد المزيف في مدخل شارع الوطن انتقاماً لأخته المغتصبة، يرشقه بالقاذورات، يبول على قاعدته، ويستمني عليه. تذكر المرة الأولى التي ثمل فيها وعاد إلى البيت ليجثو فوق نسرين على أربع ويبدأ بالزئير.

«من الحمار الذي أختار هذا الاسم؟» سأل «أمل» أحد الجنود في يوم من أيام تشرين الثاني، قبل شهرين من اندلاع الحرب، وكان يوم جمعة مخصص كالعادة لإدامة الأسلحة والآليات.

«صدام» همس الجندي في أذنه ثم أطلق قهقهة خافتة، فارتبك «أمل» وعضّ لسانه بينما هو يهرس لقمة من صمونة قاسية. لعن حظه، وبصق دماً. سمع جنديين كانا ينظفان سلاحهما على بعد أمتار قليلة:

«يقال أنه سيضرب إسرائيل!».

«لن يفعلها».

«ما أدراك؟».

«إنه جبان».

«أششششش!» يضرب الأخير زميله بمرود البندقية على خوذته: «سيقصون لسانك!».

ينظر الجنديان إلى «أمل» بريبة ويهمس أحدهما للآخر.

مساءً، بعد قصعة العشاء، كان «أمل» في طريقه إلى نقطة الحراسة الليلية، فكر بزيارة دبابته المتخندقة على مقربة من الموضع الذي يتحصن فيه، وقد طليت بالوحل وغُطيت بأغصان كثيفة من شجر الأثل لتظليل الطائرات الأمريكية. كان يرتدي بدلة كاكية وخوذة مشبكة ويعلق على كتفه بندقية كلاشنكوف. اقترب من دبابة أسد بابل، دار حولها بسخرية، مرر يده على بدنها باشمئزاز كما لو أنه يفعل ذلك مع حصان أصيل وقوي لكن اسمه خراء. دعك خصيتيه قائلاً: «اسم غير مناسب يا صديقتي!» التفت وراءه، أنزل سحاب البنطلون وبال على دولاب الدبابة الخلفي:

«خذ أيها الأسد، اشربها.. الآن!».

انصرف إلى موضعه مصفراً، بينما هو ينظر فوقه إلى السماء، حيث يمكن سماع دوي طائرات الاستطلاع الأمريكية.

بدأت الحرب بعد شهرين، وأُصيب «أمل» في الاسبوع الأول منها بشظايا القنابل العنقودية التي أمطرتها الطائرات الأمريكية على الوحدات العسكرية الأمامية طوال الأيام الثلاثة الأولى. نقل في إثرها إلى الكويت العاصمة، ثم إلى المستشفى العسكري في البصرة، حيث رقد هناك ثلاثة أيام قبل أن يهرب إلى بيت عمته في البصرة القديمة ويختبئ هناك بعيداً عن الأنظار. الأمر الذي لم يكن مبعث خوف هيلا ما دام أنها

تسكن لوحدها، وبالتالي سيكون العثور على هارب من الجندية في بيتها آخر ما يمكن أن يفكر به المخبرون والرفاق الحزبيون.

«لا تخف» تقول له هيلا مطمئنة، وقد سخّرت كل خبرتها في الطبابة الشعبية واضطلعت بدور الممرضة: «أنت بأمان هنا».

وخلال يومين، منذ هروبه من المستشفى ساءت حالته إلى حد مخيف. كان يعاني من فرط الحمى وآلام الجروح التي تركتها شظايا القنابل العنقودية في أجزاء من جسده وأعادته إلى ذكرى الإصابة البليغة التي لحقت به في الحرب الأولى. كان يهلوس كثيراً، ويستيقظ فزعاً من كوابيس يرى فيها أسود مفترسة ومصاصات دماء مخيفة. صُلبان، وشمعدانات سباعية وأهِلّة خُضراً. أمه نوفا مرتدية ثياباً بيضاً ومعلقة بحبل المشنقة. نسرين وهي تنهش من ثديي حنان وتبصق لبنها بوجهه. اخوانه من الرضاعة بهيأة طيور جنة بأجنحة مقصوصة وهي تبحث عن دُماها وألعابها في غرفته. عمته هيلا وخالته ميساك وهما تتقاتلان على جثته. وعدا ذلك، كان «أمل» قد رأى نفسه في ملحمة كابوسية وهو يقود دبابته أسد بابل ويواجه بها دبابات أبرامز الأمريكية في الصحراء. يدمر بمدفعه المضاد للدروع ثلاث دبابات ويعطب خمساً أخرى، قبل أن تدمر طائرة أف ـ ١٦ أمريكية أسده المدرع بصاروخ هيل فاير الحراري فيُقتل وتحترق جثته. تصل بطولاته إلى داخل القصر الجمهوري، يأمر صدام بتكريمه، فيقام له تمثالٌ يُضاف إلى مجموعة تماثيل الضباط والجنود البرونزية التي تطرز كورنيش العشار من تمثال السياب وصولاً إلى بوابة القصر الرئاسي. تمثالٌ ضجرٌ متذمرٌ من

جماديته، ووقوفه الممل بإزاء المراكب الراسية أمامه، يكسو ذروق العصافير والنوارس المزعجة رأسه وكتفيه. فجأة، يُزال التمثال بالإضافة إلى التماثيل الأخرى على طول الضفة. تُفصل أجزاءه إلى قطع. يسحل الأولاد رأسه ويخبئونه في ساحة أسد بابل. يراه الأسد الحجري فيترك مكانه على القاعدة وينزل إليه. يثب فوقه. يقف على رأسه. يتثاءب. يرفع إحدى قائمتيه الخلفيتين ويبول عليه.

«خذ.. هيا اشرب!».

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل حين أفاق «أمل» من كابوسه الملحمي. وكالعادة كان فزعاً متعرقاً، لاهثاً. وقد تناهى صوت المذيع المنبعث من الراديو إلى أذنيه بإحساس باعثٍ على الهلع:

«هنا إذاعة صوت إسرائيل من أورشليم القدس!».

(٢)

«بابا!».

سأل الولد أباه، بينما هما في الباص الذي خطف مسرعاً، ليجتاز الحديقة الصغيرة المدورة عند مدخل شارع الوطن، وقد أشار بإصبعه من خلل زجاج النافذة، إلى التمثال الكلسي الأبيض الشاخص هناك منذ عام ١٩٣٧: «ما هذا؟».

«أسد بابل».

قال الأب، تزامناً مع صوت امرأة جاء من المقاعد الخلفية: «نازل!» فترجّل الأب وطفله الذي صار يبكي الآن: «أريد أسداً» كان يصرخ: «اشترِ لي أسداً!» نزل «أمل» في إثرهما أمام دربونة تفضي إلى أزقة محلة البجاري، حيث لا زال يقطن في بيت عائلته بالتبني، في حين أكمل الباص طريقه إلى محطته الأخيرة في الكراج. كان قادماً من المدرسة التي وُظّف فيها بعد حرب الخليج الثانية. وكان قبلها قد سلم نفسه إلى السلطات خلال العفو العام عن الجنود الفارين، والذي أطلقته الحكومة بعد قمع الانتفاضة التي اندلعت مباشرة عقب اعلان وقف إطلاق النار بين العراق من جانب والولايات المتحدة وحلفائها من جانب آخر، ليلتحق بعدها إلى وحدته العسكرية، ويقضي فيها ستة أشهر قبل أن

يتسرح من الخدمة الإلزامية، وينتهي به الأمر مدرساً للغة الإنكليزية في إحدى المدارس المتوسطة في قضاء شط العرب.

وعلى مدى الأعوام الثمانية الماضية، كان «أمل»، إلى جانب عمله في التدريس، قد أفاد من الدروس الخصوصية التي يعطيها لبعض الطلبة الموسورين مقابل مبالغ بالكاد تسد احتياجاته، وعلاوة على ذلك، كان يستغل فترة العطلة الصيفية في بيع وشراء الكتب المستنسخة التي راجت حينذاك على نحو لافت، إذ لم يكن راتبه يكفي لإطعامه مدة خمسة أيام، في وقت كان الحصار الاقتصادي قد بلغ أقسى ما يمكن تصوره، جوع، عوز، فقر، حرمان، موت. خصوصاً في السنوات الخمس الأولى التي كان فيها «أمل» كأغلب العراقيين يعيش أسوأ أيام حياته، فقد جاع كثيراً وتقرّح بلعومه من النخالة وأقراص الشعير الغليظة. مَرِض وبكى وضحك ورأى أحلاماً وكوابيس. فكّر بالهجرة، بالزواج، بالانتحار، بأمه وأبيه، بجمال وحنان ونسرين. بالمدينة، بالوطن بالعالم، بالله. اصيب بالكآبة والبواسير والقولون واحتقان المثانة. وكان هوسه بالمواد الإباحية في تلك الفترة تحديداً قد خفّ إلى درجة كبيرة، في زمن صار الجوع آفة العراقيين المميتة، فضلاً عن الفقر والقمع والتخلف الصحي وحملات التعبئة القسرية. لكنه، ومنذ الانفراج النسبي الذي حصل في عام ١٩٩٦ بعد توقيع مذكرة التفاهم بين العراق والأمم المتحدة ـ النفط مقابل الغذاء والدواء، حتى بدأ بمعاودة نشاطه الإدماني تدريجياً، فقد انتشرت، بعد ذلك بعام، محلات تأجير الأقراص الليزرية، وبدأت المزيد من الكتب المستنسخة والمجلات البورنوغرافية بالتدفق عبر الحدود، مع الحشيشة والويسكي وباقي الممنوعات. ومع تجدد ولعه بالقراءة والمواد الإباحية افتتن «أمل» بممثلة بورنوغرافية

عالمية تُدعى نيتّا ليناريس الملقبة بالمقنعة، رآها أول مرة في مجلة بلاي بوي، وكانت عارية تماماً، وقد كشرت عن نابين اصطناعيين، محاكية بتلك الهيأة مصاصات الدماء.

ما أن وقعت عينيه على تلك الصورة، حتى شعر بالانتصاب وانتابه الإحساس الغليظ، القديم بالعار. تذكر أخته من الرضاعة، نسرين التي، ومنذ عام ١٩٩٠، لم يعد يراها في التلفاز وهي تؤدي أدوارها الرخيصة. كان قد بادر إلى البحث عنها في بغداد في وقت سابق، قبل أربعة أعوام. لكنه لم يجد لها أثراً، لا هي ولا زوجها المزعوم. اختفت مجدداً، وعلى ما يبدو ـ فكّر أمل ـ أن مكروهاً أصابها هذه المرة بشكل فعلي، وإلا كان عليها الاستمرار، على الأقل، بالظهور كنجمة إعلانات تجارية، ومسلسلات محلية. حاول ألا يكترث للأمر ويمضي في حياته، ففي النهاية هي من اختارت مصيرها المجهول هذا. ومن يعلم، ربما تخلت عن حلمها الكبير بالسفر إلى هوليود، وطلقت مشغل الأفلام، ثم اعتزلت لتعيش حياة طبيعية بعيداً عن الأضواء الباهتة التي تحيط بممثلي الدرجة العاشرة. ربما هي الآن زوجة مثالية وصالحة، تمضي وقتاً ممتعاً، تصنع الحلوى، وتخرج للنزهة في نهر دجلة بصحبة زوج غيور وأربعة أطفال يسألونها عن خالهم البائس الذي يعيش في البصرة، يأكل طعاماً بائتاً، ويطالع صورة لمصاصة دماء يظن أنها أمهم. وعلى الرغم من حصوله، خلال الفترة الماضية، على عدد من المجلات الإباحية التي تحفل بكم هائل من الصور العائدة لنجمات البورنوغرافيا، إلا أن «أمل» كان يعود إلى المجلة التي تحتوي على صورة نيتّا المقنعة ومصاصة الدماء المزيفة، فقد شغلت تفكيره على نحو غامض وملحّ منذ أن رآها أول مرة في العام الماضي. كان يشعر بالإثارة كلما وقع بصره

على جسدها القمحي الجذّاب ونهديها الصغيرين اللذين كما لو أنهما برزا من لحاء شجرة بُن، كانا يبعثان فيه رغبة وشيكة بالاستمناء، لكنه وفي كل مرة يصل فيها إلى الذروة، يفشل وينتكس، يشعر بالغضب، ويرمي المجلة تحت السرير أو فوق خزانة الملابس، وأحياناً يخبئها كما يخبئ أحدهم كنزاً، أو يهملها في زاوية وينظر إليها من بعيد. ينساها، يتذكرها، يعود إليها، يسأل من في الصورة: من «أنتِ؟» يكرر المحاولة، يفشل. يشطب على وجهها بقلم الحبر، يعاود المحاولة، لكن دون جدوى. يقص رأسها بموس حلاقة، يغمض عينيه، يدلك عضوه، ، لا فائدة، لا فائدة! كان يقرّع نفسه بقسوة، ويفعل ذلك لمجرد الإحساس الضئيل، الذي قد يستمر للحظات، بأن صاحبة تلك الصورة هي نفسها نسرين. يشعر بالتفاهة، وأحياناً يسخر من نفسه، يضحك، يقهقه كالمجنون عندما يكون بإمكانه حيازة ذلك الوهم المفرح، الناصع، وهم أن ممثلة بورنوغرافية شهيرة يمكن أن تهتم بالرد على رسائل شخص مجهول يسكن في بلد منكوب تكاد الحروب أن تمحوه من خارطة العالم، إذا ما فكر بالكتابة إليها.

وصل «أمل» إلى البيت. كان جائعاً. فتح الثلاجة في المطبخ. أخرج إناء فيه بقايا كبّة طهتها له خالته ميساك في وقت سابق. هناك أيضاً شيش كباب عراقي من مجموع ثلاثة أسياخ كانت عمته هيلا قد أعدته من لحم ضأن كوشر في اليوم الماضي، أكله وهو واقف، وشرب بعده لبناً راكداً متذكراً المرة الأخيرة التي ناكد فيها عمته عندما تناول أمامها اللحم واللبن في الوقت نفسه، الأمر الذي كان يثير سخطها دائماً، فتوبخه وأحياناً تشتمه، وقد تضطر إلى قذفه بطنجرة أو مكنسة إذا ما تجرأ وعمد إلى إشعال النار في بيتها يوم السبت. لكنها سرعان ما تهدأ مذكرة

إياه بالمثل التلمودي القديم القائل: يبقى اليهودي يهودياً حتى لو ارتكب معصية. ثم تروي له قصة الحاخام مايير قطب المعتقد الموسوي الأصيل مع استاذه الهرطوقي أليسحا بن أبيوح.

كان لا يزال يمضغ آخر لقمة حشرها في فمه وقوفاً أمام الثلاجة حينما جلس على الكنبة الوحيدة في الصالة، وأخرج من حقيبته السوداء المتهرئة، التي يحملها معه إلى المدرسة، طبعة جديدة من دون كيشوت، أغمض عينيه وتنشقها كما يفعل أحدهم مع وردة. وكانت تلك عادته، أن يشم ورق الكتب قبل قراءتها. راح يقلب صفحات الرواية، يقرأ نتفاً من هنا وهناك. أخرج بعدها من كيس نايلون أسود مجلة بورنوغرافية حصل عليها من أحد الطلبة مقابل مساعدته في اجتياز اختبار اللغة الإنكليزية، في وقت صار بإمكان الطلاب إرشاء المدرسين بالسجائر والمشروبات الروحية والألبسة والطحين والمواد الغذائية. وكما لو أنه فقد إحساسه بالموجودات من حوله، راح «أمل» يتصفح المجلة ببطء، بعينين تمعنان النظر بذهول، بينما تنتقلان من صفحة إلى أخرى. وفي الوقت نفسه كان يمسك عضوه، وكأنه يخشى عليه أن ينط من مكانه، ولا يتركه إلا حينما يقلب صفحة جديدة، حتى وصل إلى المنتصف. ارتبك، اغمض عينيه. طوى المجلة. لعن حظه. فتحها مرة أخرى. كأنه يريد التأكد إن كان ما رآه حقيقياً أم من شطحات خياله. دقق النظر. شعر بالانتصاب. أغلق المجلة. فكّر. فتحها مجدداً. هرع إلى الحمام. خرج غاضباً. ألقى المجلة على الطاولة أمام الكنبة. دخل غرفته. غير ثيابه وخرج مسرعاً. عاد بعد دقائق. حمل المجلة إلى الغرفة وخبأها تحت وسادته. خرج من البيت على نحو أسرع من ذي قبل. زار خالته ميساك في محلة العزيزية. قدمت له فاكهة. تشاجر معها. غادر بعدها إلى

عمته هيلا في البصرة القديمة. قدمت له كعك وشاي. تشاجر معها. غادرها إلى سوق العشار. تسكع على الكورنيش. راح يقرأ أسماء أصحاب التماثيل البرونزية القائمة على ضفة شط العرب. تذكر كابوسه الملحمي قبل سنوات، حينما رأى نفسه تمثالاً يبول عليه أسد بابل. حل الظلام. عاد إلى البيت. قرأ صفحات من دون كيشوت الجديدة. تذمّر. تركها. أخرج المجلة البورنوغرافية. راح يتصفحها، لكن بسرعة هذه المرة بغية الوصول إلى المنتصف. حاول أن يهرق ماءه. فشل. حاول مجدداً. فشل أيضاً. أحس بالإرهاق، بالغضب، بالعار. قذف المجلة جانباً فارتطمت بالجدار. أجهش بالبكاء حتى نام. استيقظ منتصف الليل. كان جائعاً لكنه لم يأكل. خرج إلى الصالة. جلس على الكنبة نفسها. اخرج من حقيبته أوراقاً وقلماً وشرع يكتب. استمر طوال الليل. يكتب ويمزق، يكتب ويمزق إلى أن توصل إلى صيغة نهائية. وفي صباح اليوم التالي اتجه إلى دائرة البريد، وأودع رسالته التي ذيلها باسم مستعار.

«إلى أمريكا من فضلك» تحدّث إلى موظفة البريد الصادر: «متى ستصل؟».

«خلال أسبوعين» ردت الموظفة الفضولية: «من المرسل إليه؟».

«أختي!».

مطّت الموظفة شفتيها: «اسم غريب!».

عزيزتي نيتّا ليناريس الملقبة بالمقنعة

تحية وبعد

يمكنكِ مناداتي بـ «أسد البصرة» ما دام أني لا أستطيع الإفصاح عن اسمي الرسمي، خصوصاً وأني أكتب إلى نجمة بورنوغرافيا. عمتي

تسميني موشي.. موشي مائير شلومو، وخالتي تسميني خاجيك، ويعني صليب بالأرمنية. بإمكانكِ أنتِ أيضاً مناداتي بهذين الاسمين، ففي كل الأحوال لا أظن أن ثمة من يعرفهما سوى تلكما المرأتين.

أنا من العراق، من مدينة البصرة تحديداً. هل سبق أن سمعتِ بها؟ إنها ببساطة مدينة ستراتيجية والمرفأ العراقي الوحيد المطل على الخليج، ويمكنكِ أيضاً النظر إليها على أنها برميل نفط عملاق. لكن لا تفكري بزيارتها وأنتِ على هذا النحو، تمثلين في أفلام ثقافية. وأود أن أنوه هنا أن الأفلام الثقافية هي التسمية السائدة لأفلام البورنوغرافيا في العراق. هلا تلاحظين ذلك.. هأ هأ! هل أنتِ إسبانية؟ يبدو ذلك من اسمكِ وبعض صورك الفاضحة التي ترتدين فيها قناع زورو وفستان راقصة فلامنغو تضع على عينيها قناعاً أسود. عندما تزورين ديارك في المرة القادمة أرجو أن تأخذي صورة مع سرفانتس العظيم. هل تعرفينه؟ حسناً، ومن لا يعرف ميغيل دي سرفانتس صاحب دون كيشوت؟ خصوصاً أنكِ اسبانية. لقد قرأت هذه الرواية تسع عشرة مرة. هل تصدقين؟ أرجوكِ، خذي صورة معه وأرسليها لي من فضلك. سأبروزها وأعلقها الجدار في غرفتي. قولي له أن لديّ قصة له، وأخبريه أنه سيندم يوماً إن لم يستمع إلى قصة حياتي ويكتبها في رواية.

عموماً، أتمنى ألاّ أزعجكِ بهذه التفاصيل. لقد عثرت على عنوانكِ البريدي بالصدفة في مجلة بنتهاوس الشهيرة، أسفل إحدى صوركِ الخليعة التي تضعين فيها قناعاً على عينيكِ (ترى ما السر وراء ارتدائك ذلك القناع؟) وربطة عنق وغطاء رأس يبرز منه أذني أرنب في إحدى المهرجانات الخلاعية. يمكنكِ اعتباري أحد معجبيك، أو حتى مشتهيك

هأ هأ هل أبدو صفيقاً؟ حسناً، هذا لا يهم الآن. أريد أن أخبركِ بشيء ولا أعلم إن كانت رسالتي هذه ستصل إليكِ وستقرأينها، لكن لا بأس، هنا أنا أبدأ:

هناك أمر طالما أرقني طوال الأشهر السبعة الماضية، فمنذ أن رأيت صورتكِ بهيأة مصاصة دماء في مجلة بلاي بوي وأنا أظن أنكِ ربما تكونين أختي! حسناً، ليس أختي من أبوي البيولوجيين، إنما أختي من الرضاعة، ولا أظنكِ تفهمين معنى الأخت بالرضاعة، كما لا أريد الخوض في هذه المسألة.

حقاً أنا لا أعرف لماذا ينتابني هذا الشعور، أعني شعوري بالعار كلما أردت أن أمارس العادة السرية بإثارة من صورتكِ. ظننتُ في البداية أن هناك سبباً سايكولوجياً، أو عقدة نفسية كان السبب وراءها مشهداً كنتُ قد رأيته، أو خُيّل لي أني رأيته وعشت تفاصيله قبل تسع سنوات. ومنذ ذلك اليوم صرت أراه في منامي، حيث تظهر لي دائماً مصاصة دماء تشبهك كثيراً، لكنها عادة ما تخرق القاعدة والفطرة الوحشية لمصاصي الدماء، فتركزّ على صدري، وتحديداً على ثديَيّ، بدلاً من التوجه إلى جانب عنقي مثلاً لتشفط منه كفايتها من الدماء. لم أكن أراسلك لولا أن الأمر يؤرقني، بل يعذبني. مع أني لا آمل، على أية حال، أن تصلك رسالتي هذه، وإن حدث ووصلت إلى عنوانك البريدي فلا أعتقد ستنتقينها من بين مئات الرسائل التي تتلقينها يومياً من معجبيك. وأنتِ بذلك تشبهين كثيراً بقية المشاهير.

حسناً، وأنا أختم رسالتي هذه لا بد أن أخبركِ شيئاً إضافياً، وهو أني أشعر الآن بالارتياح بعد أن أفشيت لك بسري وما يزعجني. ولا غرابة أن

تكون امرأة مثلك مبعث ارتياح الآخرين، سواء برؤيتكِ عارية أو الكتابة إليك..

تمنياتي لكِ بمزيد من التألق.

أسد البصرة

البصرة / شباط ١٩٩٨

* * *

هناك صورتان معلقتان على أحد الجدران في غرفة المعيشة، إلى جانب الصورة التي تجمع كلاً من حنان وجمال والديه بالتبني، وأسفل صور أخوته من الرضاعة أو طيور الجنة التي لا زالت معلقة في مكانها منذ سنوات طويلة، ولم يجد «أمل» بعد الجرأة الكافية لرفعها. الصورتان الإضافيتان كانتا لأبويه البيولوجيين، مائير ونوفا، كان قد أخذهما من عمته هيلا وخالته ميساك، وبروزهما وعلقهما هناك، وهو أقل ما كان باستطاعته فعله، في وقت لا يزال يجهل مكان قبريهما، أو حتى إن كان لهما قبر أصلاً. كان يراهما في أحلامٍ يبدو أنها كانت تخضع لتأثير الروايتين اللتين لا زالتا كلٌّ من هيلا ومِيساك ترويانها بشأن مصيرهما، لتؤكدا على أن هذا هو بالضبط ما حصل لهما. وطالما كانت نوفا بطلة أحلامه، في حين اقتصرت رؤيته لمائير على مشاهدات عابرة وضبابية أحياناً، عادة ما يكون فيها إما جثة متدلية من حبل مشنقة غليظة، أو رجلاً عجوزاً أنيقاً يجلس في مكان ما في تل أبيب، ويروي لأحفاده عن ذكريات شبابه في البصرة. على العكس من نوفا التي كانت تظهر، حتى فترة قريبة، في أحلام واضحة كأنها مجتزأة من فيلم صُوِّر بإتقان. إلا أن ثمة حلماً كان يتكرر باستمرار، يراها فيه وهي تقف على ضفة أحد

الأنهر، بردائها الأبيض والصليب الصغير المتدلي من رقبتها على صدرها. تنظر إلى البعيد بعينين واجمتين، فتلمح من هناك أضواء القناديل المندائية وهي تسير بمحاذاة النهر على الضفة الأخرى، وأصوات تتناهى إلى أذنيها: «اسم الحيّ.. اسم الكلمة الحيّة منطوقان عليك» تتلمس جيبي ردائها الجانبيين المليئين بالأحجار، بينما هي تتأمل المشهد الشبحي الأبيض على الضفة المقابلة، وتصيخ السمع إلى تراتيل يبدو أنها سريانية: «سود هويلخ»[١] «أسواثه الهيي هويلخ»[٢] ترفع رأسها، تنظر إلى السماء المليئة بالنجوم، تلمح الدب الأكبر. تداعب الصليب الصغير المحشور بين ثدييها بأنامل نحيفة، مرتعشة. وتمرر بيدها الأخرى على بطنها المنتفخة، تتحسس نبض طفلها، تربّت بهدوء كما لو أنها تطمئنه. تعيد نظرها إلى السماء. ترى الدب الأكبر وقد اتخذ شكلاً يخبرها بحلول منتصف الليل. ترتل بصوت خافت صلاتي يا قديسة يا مريم «وأبانا الذي في السماوات» تزامناً مع أصوات المرتلين عبر النهر، الذين انصهرت عواطفهم في طقس أسطوري مهيب: «باسم الحي ليتبارك النور الأول، النور القديم، الإله الخالق نفسه» تواصل صلاتها التي تقطعها تراتيم يرددها أحدهم بصوت عالٍ حيناً، وبصوت يكاد لا يُسمع حيناً آخر. وفي كل مرة يتوقف عن الترنّم يتعالى صوته بالهتاف: «يتمجّد اسمك يا واهب الحياة» تتبعه أصوات المصلين بإحساس شعائري خاشع، مطأطئي الرؤوس، يخفون وجوههم بأيديهم، في الوقت الذي لا تزال هي تحرك شفتيها، تصلي، تترنم، تشم رائحة

---

(١) كن موفقاً.

(٢) بركة الحي عليكم.

خليط فحم وحنطة وسمسم يحترق. أسنان تمضغ. وأفواه تردد: «لينطبع ختم الحي عليك» تتألم. تنزف مزيجاً من دم وسائلاً هلامياً راح يتدفق من وسطها بينما هي تسمع: «أتذكرك يا أواثر فتذكرني أنت أيضاً» ترمي نفسها في النهر. تغرق. تلامس القاع بقدميها الحافيتين. تشعر بشيء ينزلق من بين فخذيها. يتحرر. تحسّ بأيدٍ تجذبها وتصعد بها إلى السطح، كما لو أن يديّ يسوع هما اللتان طوقتاها وراحتا تنتشلانها وتخرجانها إلى الضفة. في حين كانت هي تجر طفلها بواسطة الحبل السري الممتد من رحمها إلى سرّته.

ويكاد «أمل» أن يحفظ الترانيم التي كان يسمعها في حلمه الاسطوري هذا، ويخبر بها خالته ميساك التي تقول دائماً، أن ما يراه ليس إلا رسالة ربانية تؤكد له روايتها بشأن مصير نوفا. إلا أنه «سرعان ما يعود ليشك بهذه الرواية، عندما تعمد هيلا بين فترة وأخرى إلى حشو رأسه بروايتها، فيحلم بنوفا مجدداً بينما هي تُقاد إلى المشنقة بعد ولادته. في كلا الحالتين، لم يكن «أمل» يطمح بأكثر من وجود قبرين لوالديه يكون باستطاعته زيارتهما، كما يفعل ذلك مع والديه بالتبني اللذين، وعلى الرغم من أنهما مدفونان كلٌ في حدة (حنان في مقبرة وادي السلام في النجف، وجمال في مقبرة الزبير في البصرة) لكنه يستطيع زيارة قبريهما على أية حال، وقد فعل ذلك مراراً طوال السنوات الماضية.

بعد ثلاثة أعوام كان قد نسي خلالها رسالته إلى نيتّا المقنعة وقرأ الكثير من الكتب، وحصل على المزيد من المجلات البورنوغرافية، وأكل الكثير من القطائف الحلوة و«التبيت»، وتحديداً في يوم من أيام شباط عام ٢٠٠١ تشاجر «أمل» مع مديره الرفيق الحزبي بعد أن اتهمه

الأخير بالتهرب من الالتحاق بأحد معسكرات تدريب جيش القدس الذي أسسه صدام حسين لتحرير فلسطين، وخرج من المدرسة إلى دائرة البريد مباشرة، ليُفاجأ بوجود رسالة غير متوقعة في صندوقه البريدي أُلصق على مظروفها طابع بريدي يحتفي بالشاعر الأمريكي والت ويتمان. ارتبك، أحس بصعقة تجتاحه من رأسه وتنتهي برأس عضوه. وضعها في جيبه من دون أن يرى اسم وعنوان المرسل في ظهر المظروف، إذ بدا من الواضح جداً من خلال الطابع البريدي أنها واردة من أمريكا. غادر مبنى البريد المركزي على وجه السرعة. حاول ألا يكون عابثاً، فاشترى في طريقه، من ساحة أم البروم، صحيفة وفاكهة قبل أن يكمل طريقه إلى محلة البجاري. وصل إلى البيت. وقبل أن يفعل أي شيء، كأن يفرغ مثانته من البول الذي تجمع فيها على نحو مفاجئ، منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينه على الرسالة، فضّ المظروف، أخرج الرسالة ثم مجموعة من الصور المرفقة وراح يتصفحها ويقرأ الملاحظات التي كتبتها المرسلة بالقلم الأحمر في ظهرها.

الصورة الأولى: هذه أنا في مهرجان كان مع أنجلينا جولي. (رسم قلب).

الصورة الثانية: هنا كنتُ برفقة سلفستر ستالون في مهرجان برلين السينمائي. ملاحظة: ستالون بدأ ممثلاً إباحياً! (رسم وجه غامز).

الصورة الثالثة: أتوسط كلاً من روبين وليامز وجون كاري في حفل جوائز الأوسكار. (رسم قلب يخترقه سهم).

الصورة الرابعة: مع انطونيو باندرياس وكاترينا زيتا جونز. (رسم قلبين يخترقهما سهم واحد).

الصورة الخامسة: مع وسيم هوليود جورج كلوني. (رسم قلب مكسور إلى نصفين).

وضع الصور على الطاولة وتناول الرسالة وشرع بالقراءة:

(عزيزي أسد البصرة

تحية طيبة وأتمنى أن تكون بخير

أرجو المعذرة لأني لم أرد على رسالتك رغم أن أكثر من سنتين مضى على وصولها إليّ. هل تعلم؟ هناك العشرات من الرسائل تصلني شهرياً، لكني، بسبب انشغالاتي الكثيرة، لا أكاد أقرأ منها إلا القليل، في حين أهمل البقية في مكان ما في شقتي، حتى امتلأت بها سلتان كبيرتان. ولولا فترة النقاهة التي أقضيها الآن بعد تماثلي للشفاء من مرض السفلس اللعين الذي نقله إليّ أحدهم، والنصيحة التي قدمها طبيبي المعالج بأن أشغل فراغي بممارسة هوايات غير مجهدة، كقراءة رسائل المعجبين مثلاً، لما استطعت الوصول إلى رسالتك. ربما من حسن الحظ بالنسبة لك، أن تتسلم رداً من ممثلة شهيرة مثلي، فأنا يا صديقي نادراً ما أرد على الرسائل، وإذا حدث وقرأت بعضها في السابق، فتأكد إن ذلك لم يكن إلا من قبيل الفضول في معرفة ما الذي يشعر به متابعي إزاء ما أقوم به من عمل. فبعضهم يشتمني، والبعض الآخر يرسل منيته الكريه مجففاً مع صورتي، أما البقية فلا يعدو كلامهم في الغالب عن كونه أمنيات هزيلة بمضاجعتي، وممارسة ساديتهم أو مازوشيتهم، وأحياناً سادومازوشيتهم القميئة معي. وعدا ذلك، هناك الكثير من الرسائل المضحكة. أما رسالتك، فأقول الحق يا عزيزي أمل

أنها راقت لي. فلم يسبق أن اعترف لي أحد من قبل بعجزه الاستمنائي بسبب ظنه أن صاحبة الصورة التي أثارته ربما أكون أخته!

حقاً أنا لا أعرف لماذا تواجه مثل هذه المشكلة. هل راجعت طبيباً نفسياً؟ أعتقد أنك بحاجة إلى ذلك. ولا يسعني بهذا الصدد سوى أن أتعاطف معك يا صديقي، وأتمنى أن تفك عقدتك قريباً. ربما هذا كل ما أستطيع قوله، ففي النهاية أنا لا أستطيع التحكم بغرائز الآخرين، بقدر ما أكون قادرة على إثارتها، وهذا لا يعني أني لم أستطع إثارتك، إنما ثمة مشكلة تعيق تقدمك بهذا الشأن. وأما بشأن إني إسبانية كما تظن، فيمكنني التأكيد على أنني لست كذلك يا عزيزي. أنا أمريكية، وهذا اسمي المستعار ويعني بالإسبانية الرشيقة الجميلة، وهو تدليع لأسمي جانيتّا وهانريتّا. فأنا أحب الأسماء الإسبانية، لأنها تشعرني بالإثارة، الأكشن، الفرقعة، وأحياناً تشعر، بينما أنت ترطن بها، أنك تقف على غصن شجرة وتغرّد. لهذا فقط اخترته.أما سبب ظهوري بقناع زورو وفستان راقصة فلامنغو فكانت المناسبة حضوري مهرجان برشلونة الدولي لأفلام البالغين، وربما بسبب ذلك ظننت أني إسبانية. أليس كذلك؟ لكني في الوقت نفسه ارتدي القناع بشكل مستمر ويعود ذلك لأسباب شخصية لا أود الإفصاح عنها، فليس كل ما يُعلم يقال.

هل ترغب بالهجرة من العراق؟

حسناً، أشعر بالإعياء. علي أن أخلد للراحة الآن. أرسلت لك بعض الصور التي التقطتها مع ممثلين عالميين، أتمنى أن تعجبك. سأحاول أن اكتب اليك مجدداً إذا وصلني منك رداً على هذه الرسالة.. كن بخير فقط..

ملاحظة: في زيارتي القادمة إلى اسبانيا سأبحث عن ثرفانتس وأحرص على إخباره بما أوصيتني به.. لا تقلق بهذا الشأن.

نيتّا ليناريس

أن واي

كانون الثاني ٢٠٠١

لم يصدق «أمل» ما قرأه. صعقه الأمر. أحسّ أن شيئاً ما على وشك أن ينفلت من رأسه ويطير. يتركه للبلاهة، للجنون، للموت بتلك الطريقة المعيبة التي يمكن تصورها على نحو خبري: العثور على جثة مدرس لغة إنكليزية في بيته غارقاً بالبول والقيء. فنهض من فوره وركض إلى المرحاض. هناك راح يبول ويتقيأ في الوقت نفسه.

لم يخفِ «أمل» انبهاره باللمعان الذي كانت عليه نيتّا ليناريس، وأظهرها، على الرغم من أنها لا تزال مقنعة، كنجمة حقيقية في تلك الصور، أكثر مما يمكن أن تكونه في صورها الخليعة. كانت أجمل بكثير. طبيعية، وجذابة، مع أنها تبدو ممتلئة بعض الشيء، وثمة سحر رافق اللؤم اللذيذ الذي لا بد منه حينما تفكر إحدى الممثلات الشهيرات، اللواتي يمتلكن سحنة لا تخفي الأصباغ الكثير من مكرها، أن تقف أمام الكاميرا. كان يعود إلى صورها، يمعن النظر إليها: «هل هي حقاً؟!» يدقق. يحك بأظفر سبابته على وجهها كما لو أنه يريد التأكد ما إذا كانت الصورة مزيفة. يقرأ الرسالة للمرة المائة: «من قال أن هذه الشيطانة، فتاة الخلاعة الشهيرة ستكتب لي!» يتحقق من الروزنامة: «كنت أظنها كذبة!» يضع أصبعه على مربع الشهر: «خيال داعر ليس

إلا!» يسحبه بشكل مائل إلى أحد المستطيلات في جدول أيام الأسبوع: «تافهة ومختلة!: «يسحبه أفقياً إلى أحد مربعات أرقام الأيام في المنتصف: «كلبة، عاهرة، ومصاصة دماء!».

كان «أمل» قد ركز على سؤال نيتّا عما إذا كان يرغب بالهجرة من العراق، وربط بينه وبين حرفي (Ny) اختصار نيويورك المدينة التي تقيم فيها. استغرب أن تهتم بورنو ستار بمعرفة ما إذا كان يرغب بمغادرة العراق فعلاً، وهل كانت ستقترح مدينة (أن واي) كمكان ملائم يمكنها مساعدته على اللجوء إليه في حال أجابها بـ «نعم عزيزتي، سيكون ذلك من دواعي سروري» ثم فكّر بالسؤال التالي: «لكن، ماذا يمكنني أن أعمل هناك برأيك؟» حكّ رأسه قائلاً بينما هو ينظر إلى إحدى صورها التي تظهر فيها مع ممثلين عالميين: «ماذا تظنينني عزيزتي؟» تصور نفسه ممثلاً إباحياً مريضاً بالسيلان، يقضي فترة نقاهته في مشفى الأمراض الزهرية بقراءة رسائل المعجبات، ويكتب رداً لفتاة كانت قد شكت له عجزها عن أراحة نفسها بالاستمناء تحت الضغط الذي تمارسه ظنونها من أنه أخوها.

في اليوم التالي، كتب أمل:

العزيزة نيتّا

كيف حالك؟ أتمنى أن تكوني بخير وصحة جيدة. أسفت لأنك مريضة وتمنيت لك الشفاء العاجل.

سعدت لاهتمامكِ برسالتي، وشعرت حقاً أني محظوظ لأن شخصية شهيرة مثلك، بغض النظر عن سبب الشهرة، تكرمت، وكلفت نفسها عناء الرد على رسالة شخص مجهول مثلي. كذلك وجدت أنكِ مهتمة،

نوعاً ما، بمعرفة ما إذا كنتُ راغباً بالهجرة من العراق. السؤال الذي لا أملك حياله، وأنا أكتب لك هذه الكلمات، سوى ان أجيبك عليه بكل صدق.

في الحقيقة، نعم لقد فكرتُ بهذا الأمر منذ بداية عقد التسعينات المدمر، لكني لم أقرر حتى الآن، أو أعرف إن كانت رغبتي تلك حقيقية. حقاً أنا لا أعرف، حتى هذه اللحظة، لماذا لم أترك هذا البلد خلال العقد الفائت، خصوصاً في السنوات الخمس الأولى التي شهدت الهجرة الكبيرة للنخب العلمية والفنية والثقافية. وعلى أية حال، ربما أفعل ذلك قريباً، بمساعدة أحدهم طبعاً، أو إحداهن (أقول: إحداهنَّ، وأنا أغمز لكِ بطرفي!) لكن بشرط أن أحصل على عمل محترم، لأن مجرد التفكير باحتمال إصابتي بالسفلس أو الإيدز يشعرني بالغثيان، ويجعلني أفضل الموت في حرب ثالثة على أن أُجنّ أو أهلك بالطريقة نفسها التي انتهى إليها شوبرت وميشيل فوكو.

سأقول لكِ شيئاً، لكن بمزيد من الخجل.

لا زلتُ لا أستطيع فعل ذلك الشيء. مع أنكِ جذابة وتثيرينني على الدوام، لكني لا أقدر. مع أنكِ حلوة إلى درجة كبيرة طالما دفعتني إلى السؤال الفضولي المعتاد، عن السبب الذي يمكن أن يكون كافياً ومقنعاً لانتهاء امرأة جميلة مثلك إلى بالوعة الجنس القذر؟! عذراً للتوصيف، لكني، بقدر ما أشعر بالإثارة تجاهكِ، بقدر ما يكون أسفي عظيماً كلما تذكرت أني، في الوقت الذي أمتع عينيَّ بمفاتنك المبهرة من دون أن أسجل هدفاً في مرماك، فإن هناك الآلاف، مئات الآلاف غيري يفعلون الشيء نفسه في مكان آخر، يمارسون عاداتهم البهيمية ويتمكنون من قذف القذارة بكل اريحية.

أتمنى ألا أبدو تافهاً في هذه الأثناء. وبوسعكِ أن تنسي غمزتي لكِ، تلك الحركة التلميحية البلهاء، التي لم تكن لتأتي جزافاً، إنما جاءت لتعبر عن غبائي وسوء فهمي. آه تذكرت شيئاً. لقد خاب أملي بعض الشيء لأنكِ لستِ إسبانية، وربما لا تعرفين سرفانتس صاحب دون كيشوت. لكن لا بأس، فقد كنت أمزح معك على أية حال، فسرفانتس هذا مات منذ حوالي ٣٨٥ عاماً وعلى الرغم من ذلك يمكنكِ أن تحققي أمنيتي بأخذ صورة معه، ليس معه شخصياً إنما مع أحد تماثيله المنتشرة في عدة أماكن في إسبانيا. وعلى أية حال، لا أظن أن هناك كاتباً في إسبانيا أو غيرها سيكون مهتماً بكتابة قصة حياة شخص تافه ومنسي مثل كاتب هذه الرسالة.

لن أطيل عليك أكثر من ذلك عزيزتي. آمل أن تتوفر لكِ فرصة قراءة هذه الرسالة والتفضل بالرد عليها.

كوني بخير أنتِ أيضاً

أسد البصرة

البصرة

شباط ٢٠٠١

أودع «أمل» رسالته إلى نيتّا ليناريس في الصندوق وغادر مبنى البريد إلى شارع الوطن. أفلت من بعض المفارز الحزبية التي تلتقط المارة في الشارع وتسوقهم إلى معسكرات تدريب جيش القدس لتحرير فلسطين. تبعه شخصان يرتديان ثياب الحزب الزيتونية. راوغهم في درابين سوق حنا الشيخ. خرج إلى الشارع المجانب لنهر العشار مسرعاً. راح يمشي

بمحاذاة المحال والمطاعم الصغيرة باتجاه فلكة أسد بابل. تحاشى النظر إلى تمثال الأسد وانعطف يميناً نحو شارع الوطن وأكمل طريقه إلى سينما أطلس. قطع تذكرة دخول. ابتاع كيس بذور عباد الشمس وجلس على أحد المقاعد الأمامية. كان الفيلم المعروض إيطالياً تضمنته بعض المشاهد الخليعة. التمعت صورة نيتّا المقنعة في ذهنه فجأة: «أي حماقة هذه!» فكّر: «إحداهن تلعب معي» بصق قشور البذور أمامه: «ليست نسرين» يرى أمامه على الشاشة الكبيرة ألسنة تعترك، لعاب، ساق تُرفع، وورك تُدفع: «نسرين ميتة!» ازدحمت الأفكار والهواجس والأسئلة في رأسه دفعة واحدة. عمته هيلا وخالته ميساك: «منذ متى لم أزرهما؟» الحرب: «أي لعنة!» ماريو فارغاس يوسا: «لماذا هو بالذات؟!» مشغل الأفلام: «الأعور! هيبيي!» نيتّا ذات القناع مجدداً: «هل ترغب بالهجرة من العراق؟» تخيّل نفسه يتسكع في شوارع (أن واي) الفارهة، يشرب قهوة بالحليب في كافيه (أن واي) يتنزه في حديقة (أن واي) يحتسي الشمبانيا في حانة (أن واي) يضاجع عاهرة شقراء في مبغى (أن واي) يأكل كنتاكي دجاج في مطعم (أن واي) يشتري صحيفة وعلبة سجائر مارلبورو من كشك ثبت في أعلاه لوحة كتب عليها (أن واي) يقرأ لهنري جيمس، ووليم فوكنر، وارنست همنغواي، بول أوستر، فيليب روث، توني موريسون، والت ويتمان، أدغار آلن بو، تشارلز بوكوفسكي في مكتبة (أن واي). يشاهد فيلم لدينزل واشنطن في سينما (أن واي) يشتري سيارة شوفرليت حمراء يجوب بها جادات (أن واي). السيارة مهربة من المكسيك. تطارده شرطة (أن واي) يمسك به أفراد عصابة مكسيكية. يبرحونه ضرباً بعصي هوكي. يغمى عليه. يفيق. يسأل: أين أنا الآن؟ تجيبه ممرضة سوداء بابتسامة عريضة تكشف عن أسنان

بيضاء براقة: لا تخف عزيزي، أنت في مستشفى (أن واي). ينام. يحلم بـ (أن واي) وهي تُغزى من قبل الفضائيين في حرب نهاية العالم. يفيق. يسأل: «أين وصلنا؟».

«إلى ديالى» يجيبه أحد الأشخاص، ممن حاصرتهم إحدى المفارز الحزبية الجوالة في صالة سينما أطلس في ذلك اليوم، وعبأوا بهم حافلتين، وساقوهم عنوة إلى أحد معسكرات تدريب جيش القدس لتحرير فلسطين: «نحن الآن في ديالى يا أخي، لقد شخرت كثيرا!».

«هل قلت أني شخرت؟».

«نعم يا أخي».

حقاً؟!».

كان «أمل» قد فكر بالهروب والعودة إلى البصرة، لكنه ما أن وصل إلى المعسكر حتى تفاجأ بالحراسة المشددة التي ضربت حوله، تحرزاً لأي عملية فرار قد تحدث. انتكس. استسلم لقدره. شعر بالإحباط، بالكآبة التي رافقته طوال ستين يوماً لم يقرأ خلالها حرفاً في كتاب، ولم يرَ خيالاً لامرأة عارية إلا في مخيلته التي كانت لا تزال مليئة بصور مصاصة الدماء نيتّا. كان حانقاً، كسولاً، متذمراً، لكنه لم يكن ليبدي كل ذلك علناً، في وقت تحتم عليه أن يكرر تدريبات على السلاح والقتال كان قد تعلمها منذ عام ١٩٨٦، أو بينما هو يتقدم أحد الكراديس في استعراض نهاية الدورة التدريبية، ويحمل مع مُساقين آخرين، لافتة بيضاء كُتب عليها: (من أجل تحرير فلسطين العربية من النهر إلى البحر، إما النصر أو الشهادة). كان يفكر بـ نيتّا المقنعة. توقع أن يجد منها رسالة في صندوقه البريدي ما أن يعود إلى البصرة. كتب

رسالتين إلى عمته وخالته يطمئنهما بها، وأرسلها بيد أحد المأمورين كان في طريقه إلى البصرة في أحد الأيام.

انتهت الستون يوماً، وعاد «أمل» إلى البصرة منهكاً، ضامراً، خاملاً لا يلوي على شيء سوى النوم وإصابة بعض الراحة والمأكل الطيب. وكان أول شيء فعله هو تفقّد صندوقه البريدي. كان متلهفاً لاستقبال رسالة جديدة من نيتّا ليناريس تعيد إليه باقي الدم الذي بدأ بالتدفق إلى وجهه خلال اليومين اللذين قضاهما في بيتي هيلا وميساك، فقد أحاطتاه بالرعاية وقدمتا له طعاماً طالما افتقده بينما هو في ديالى، يعرك صمون الجيش القاسي والصلب بأسنانه. كان متلهفاً لتلك اللحظة اللذيذة التي يفتح فيها الصندوق ويخرج الرسالة الموعودة. لكنه لم يجد في النهاية سوى المزيد من الغبار والرسائل والطرود التافهة التي لا زالت ترسلها المؤسسات والشركات السياحية والمتاحف والمكتبات. انتظر شهراً آخر، لكن دون جدوى. كان يراجع دائرة البريد المركزي بشكل يومي، وفي كل مرة لا يجد رسالة من نيتّا المقنعة يشعر بالإحباط، فيعود إلى البيت خائباً محبطاً، يقضي وقته في تصحيح أوراق الامتحانات، والقراءة ومشاهدة التلفاز، يتابع أفلام معادة ومسلسلات مكسيكية وآخر أخبار فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق. يزور عمته هيلا وخالته ميساك، ويبيت في بيتهما أحياناً. وخلال بضعة أشهر، حتى شهر أيلول من تلك السنة، كان «أمل» قد كتب لـ نيتّا ثلاث أو أربع رسائل من دون أن يتلقى رداً واحداً.

وفي أحد الليالي، بينما هو عائم بين الصحو والنوم، في إحدى

الغرف التي خصصتها له ميساك كلما جاء لزيارتها وقرر المبيت، سمع صوتاً راح يردد اسمه الأرمني.

«خاجيك» كانت تلك خالته وهي تحاول إيقاظه على نحو ملح: «انهض بسرعة».

«ماذا هناك؟» قال «أمل» متثائباً متذمراً. بالكاد استطاع النهوض من فراشه وراح يسير مترنحاً، داعكاً عينيه بيديه، وصوت خالته يستحثّه من غرفة المعيشة: «أسرع أسرع!».

جلس على الكنبة، في حين وقفت خالته على مقربة من التلفاز، تشاهد باهتمام لقطات من ارتطام طائرات مدنية بمبنيين عملاقين. تلاشى النعاس من عينيّ «أمل» وراح يمعن النظر إلى شاشة التلفاز بالذهول نفسه الذي ظهر على ميساك، بينما هو يشاهد الانهيار العظيم لمبنيي التجارة العالمية في نيويورك. كان مشهداً هائلاً، مروعاً شحذ خياله بمزيد من الصور التي تظهر فيها نيتّا ليناريس وهي تنهار مثل ناطحة سحاب، تحترق، تذوب، وتتحول إلى ركام فظيع.

لم ينم «أمل» تلك الليلة. كتب رسالة وأرسلها في اليوم التالي:

«عزيزتي نيتّا

هل أنتِ بخير؟

لا أستطيع تفسير ما أشعر به منذ أن سمعت بالخبر. أنا قلق عليك. ترى هل أصابك مكروه؟ كنتُ أتساءل: ما الذي يمكن أن تفعله ممثلة بورنوغرافية في برجي التجارة العالمية؟ وأجيب نفسي: لا شيء يدعوها للذهاب إلى هناك لتموت تلك الميتة البشعة! أليس كذلك؟ أم أن ذلك حصل فعلاً؟

سحقاً! كم هو فظيع أن تكتب لشخص تظن أنه مات في حادث إرهابي!».

لكنها كالعادة، لم ترد.

استمر بالكتابة إليها طوال الأشهر اللاحقة، بمعدل رسالة واحدة كل شهر من دون أن تَرِدَ منها كلمة واحدة. تكهّن أن مكروهاً أصابها، ماتت بالسفلس، جُنّت، انتحرت، اعتزلت، ترهبنت، أو ربما دُفنت تحت أنقاض برجي التجارة العالمية، أو تطوعت في الجيش الأمريكي لتسلية جنود الولايات المتحدة في الحرب على أفغانستان، واقتنصتها بندقية أحد الطالبانيين هناك. وبحلول آذار ٢٠٠٣ حينما بدأت بوادر الحرب على العراق تظهر بشكل جليّ، وجد «أمل» بين مجموعة من الرسائل التي لا تزال تصله بدون طائل رسالة من نيتّا المقنعة:

«عزيزي أسد البصرة

تحياتي وأمنياتي أن تكون بخير

مضت فترة ليست بالقصيرة ولم أكتب لك شيئاً. حسناً، أتمنى أن تأخذ انشغالي وضيق وقتي على محمل من اهتمامك، وتتأكد أن ليس ثمة تعمد من قبلي في إهمال الرد على رسائلك. أنا فقط منشغلة جداً، ولا أجد الوقت لفعل حتى الأشياء الصغيرة. ورغم ذلك ها أنا أكتب لك مجدداً، مع أن هناك الكثير من المعجبين يكتبون لي منذ سنوات عديدة من دون أن يتلقون مني رداً واحداً على الأقل.

في الحقيقة كدت أنساك، لولا الاستعدادات المخيفة للحرب التي ستشن على بلدكم. هل تصدق؟ لقد خرجت في مظاهرة منددة بالحرب وهتفت لأجلك. نعم. تأكد من أني فعلت ذلك لأجلك. عموماً، لم

أذهب إلى إسبانيا بعد. ربما أفعل ذلك خلال الأشهر الثلاثة القادمة. لا تقلق، لم أنس طلبك بشأن كاتبك المفضل.. ما اسمه؟ سأحاول أن أعثر على تمثاله والتقط صورة معه. لكن، أتمنى لو تأخذ التماسك من أحد الكتاب أن يكتب قصة حياتك على محمل الجد، في حال كانت هذه القصة تستأهل الكتابة من قبل كاتب شهير كأن يكون ماريا فاراغاس يوسا، إنه كاتب مشهور حقاً ومعروف في إسبانيا ويعيش فيها. لقد قرأت له بانتاليون والزائرات وأنصحك بقراءتها. إنها رواية ملعونة. اعثر عليها واقرأها أرجوك.

لاحظت أنك أبديت اهتمامك بالكيفية التي وصلت بها إلى حيث أنا الآن. ليكن، فنحن معشر الممثلات البورنوغرافيات، ليس لنا ما نخفيه بصدد حياتنا الماضية. وأود أن أقول لك أولاً، أني لست سعيدة بهذا الأمر كل السعادة، أعني كوني ممثلة إباحية. أبداً، فأنا أشعر أحياناً بالندم الذي قد يجرني إلى الشعور بمد نوستاليجي عادة ما يجرفني هو الآخر إلى طفولتي. عندئذ، أبتدع لنفسي أمنية أخرى أبدأ منها قصة مختلفة، لو حدث وعشتها خلاف ما عشته في قصتي الحقيقية، لكنتُ الآن أحضى بحياة طبيعية. لكن لا أعتقد أن هذا يهم الآن. فكل شيء عشته وأعيشه حتى هذه اللحظة يبدو حقيقياً. وليس هناك إمكانية وإن تكن محدودة للعودة إلى الوراء.

سأخبرك بشيء. هناك أمر حدث في الاسبوع الفائت. لقد مات زوجي! لا تستغرب يا عزيزي، فنحن نتزوج أيضاً، وننجب، ونموت، وتتعفن أجسادنا. نحن آدميون وليس كما يخيل إلى البعض من أننا مجرد صور عارية تتحرك، وتتضاجع فيما بينها، لتصنع الإثارة والرغبة

بالاستمناء. وإذا أردت الحق أقول لك، أنا لا أزعم أني حزنت لفقد هذا الزوج. ربما قليلاً، وبشكل مصطنع يظهرني أمام الآخرين كما لو كنت جزعة. لقد مات بالإيدز. أحد أشد الأمراض إثارة لرعب المشتغلين في هذا المجال. أما لماذا لم أحزن لموته؟ فهذا بالضبط ما ينطوي على أمور دائماً ما تشعرني بالاشمئزاز حينما أتذكرها. ففي البداية، وأقول ذلك صدقاً، لم أكن أطمح إلى أكثر من أن أكون ممثلة. نعم، ممثلة فحسب. ممثلة ناجحة ومحترمة. لكنه ـ زوجي ـ كان يحلم بدلاً عني، يفكر ويخطط ويطمح بدلاً عني. فما كان مني، وأنا أعيش تحت إلحاحه وقوادته وضغوطه الميكافيللية إلا أن أستجيب. فدفعني إلى الإباحية التي كان يشدد على أنها أفضل وسيلة للصعود، للطيران، والتحليق في سماء النجومية. وكان من قبله الشخص الذي من المفترض أنه أخي. أخي الذي اغتصبني لسبب تافه، وضيع، وحيواني جداً. فضّني لا لأجل شيء سوى تعزيز شعوره البهيمي بأنه أسد! هل تصدق؟ هل يوجد أنتن من ذلك على وجه الأرض؟ كنتُ لا أزال طفلة أو في بداية نبوغي حين فعلها. لكني لم أتكلم. أصبت بالخرس. كنتُ خائفة، مرعوبة، ولا أكاد أفعل شيئاً سوى الصراخ وادعاء أني رأيت أسداً يهاجمني في كابوس. في حين ظنت أمي أن الحرقة والألم والنزيف اللعين الذي لطخ فخذيّ كان عائداً للتغيرات الفايزولوجية المبكرة. كانت تظن أني حائض للمرة الأولى في حياتي وأني أهلوس بسبب هذا الشيء. يا للغباء!

حسناً، هذا لا يهم الآن بشيء سوى إثارة ألم الروح. لم أعد أكترث. وبمناسبة النتانة، هناك رائحة غير لطيفة في شقتي. رائحة فطيسة. جثّة تتعفن. ربما هناك جرذ ميت في مكان ما، فقد وضعت له سماً في

الاسبوع الماضي، ربما تلك رائحته. يا للفظاعة! سأختم رسالتي الآن وأرش معطراً.

كن بخير

لا تكن بليداً في المرة القادمة. افعلها.. افعلها فحسب!

نيتّا ليناريس الملقبة بالمقنعة

أن واي

شباط ٢٠٠٣

تذكر «أمل» رواية يوسا التي نصحته نيتّا المقنعة بقراءتها. كان قد قرأ نصفها قبل التحاقه بوحدته العسكرية التي سيق إليها قبل حرب الخليج الثانية، قبل اثني عشر عاماً. تملكه الفضول أن يكمل قراءتها، فذهب إلى بيت عائلته بالتبني في اليوم التالي وبحث عنها في مكتبته، لكنه لم يجدها.

* * *

«موشي!» ارتجف صوت هيلا في أذنيه: «سمعت الخبر؟».

«أش صاغ عمّي؟!» قال متهكماً: «ظهر الماشيح؟».

فردت عمته بغضب مصطنع: «بدأت الحرب!».

كان مستلقاً على سريره، يستمع إلى الأخبار من الراديو، في الغرفة التي كانت هيلا قد أثثتها بشكل لا بأس به بالنسبة لرجل أعزب. لم يكن يخرج إلى الشارع إلا قليلاً أثناء تنقله من بيت هيلا إلى بيت ميساك وبالعكس. يقضي إجازته القسرية، التي بدأت قبل ٢٠ آذار، بالقراءة

ولعب الشطرنج مع نفسه، وتناول المزيد من الشوربة والفطائر والكبة التي تصنعها خالته. الرز والمرق الذي تعده هيلا من بامياء كانت قد جففتها منذ الصيف الماضي لتفطر به بعد صيام يوم الغفران. وعدا ذلك، كان يراقب السماء من خلل النافذة وهي تُضاء بقنابل التنوير التي تطلقها المدفعية البريطانية المرابطة على الحدود مع الكويت. ينام على ضوضاء صفارات الإنذار ودوي الطائرات التي لا تكاد تغادر سماء المدينة، وتوقظه الصواريخ الأمريكية وهي تدمر أهدافها أو تسقط على منازل المدنيين في الجوار. وكانت عمته هيلا وخالته ميساك، في تلك الأثناء، تعملان مثل وكالتي أنباء نشطتين، لكنه قليلاً ما كان يصدق الأخبار التي تنقلانها ويكون أغلبها من حديث الشارع أو ما تسمعانه من أفواه الجيران. لم يكن يعول عليهما بقدر اعتماده على الأخبار التي تبثها إذاعات عالمية مثل إذاعة صوت مونتي كارلو الفرنسية وبي بي سي البريطانية وراديو دويتشه فيله الألماني.

(٣)

الخميس ٢٠ آذار ٢٠٠٣:

ـ انتهاء مهلة الثمانية وأربعين ساعة التي حددها الرئيس الأمريكي جورج بوش للرئيس العراقي صدام حسين للتنحي عن السلطة ومغادرة البلاد مع ولديه.

ـ ضربات صاروخية وجوية أمريكية تستهدف عناصر القيادات العراقية ومقار الرئيس العراقي وقصوره الرئاسية.

ـ الرئيس الأميركي جورج بوش يلقي كلمة إلى الشعب الأميركي في ساعة مبكرة من صباح اليوم أشار فيها إلى أن العمليات قصدت أهدافا منتقاة وتعهد فيها باستخدام القوة الحاسمة لتقصير أمد الحرب.

ـ الرئيس العراقي صدام حسين يظهر في التلفزيون العراقي ليعلن أن أمريكا نفذت تهديداتها للعراق، وأنها ستخسر في حربها ضد العراق.

يستمع «أمل» إلى الأخبار باهتمام. ينام وجهاز الراديو يعمل على مقربة من رأسه على السرير. توقظه أصوات القصف الجوي وعواء

سيارات الإسعاف. ينام مجدداً. يرى أحلاماً فوضوية. وفي صباح اليوم التالي توقظه عمته هيلا.

«أش غاح نعمل؟» تكلمه بنبرة حائرة: «انقطع الماي!».

يحمل جليكان. يحشر جسده بين الأهالي المتزاحمين على إحدى السيارات الحوضية التي توزع الماء. يعود إلى البيت منهكاً. يتناول فطوره ويخرج. يصادف بعض الحزبيين المسلحين في الشارع. يقطع المسافة إلى بيت خالته ميساك في محلة العزيزية راجلاً.

الجمعة ٢١ آذار:

- *وزارة الدفاع الأمريكية تعلن أن الهجوم الكبير على القوات العراقية قد بدأ.*
- *ستة آلاف عنصر من المارينز يدخلون جنوب العراق ويتوغلون مسافة ١٦٠ كم في الأراضي العراقية.*
- *جرح ٣٧ مدنياً عراقياً في القصف الأمريكي الليلي.*
- *قيام القوات الأمريكية والبريطانية بألف طلعة جوية أطلقت خلالها ألف صاروخ على العراق.*
- *انفجارات هائلة في العاصمة العراقية وتصاعد ألسنة اللهب والدخان.*

«إليسمع هذي الأخبار يقول الأمريكان وراء البيت» تقول خالته ميساك بمزيد من القلق.

«أي صدكَ» يقول لها: «شفت واحد أمس».

«أها؟!» تهتف ميساك مشكّكة: «وين؟».

«بالحلم» يجيبها مبتسماً بسخرية.

«لا تصير سخيف» تقول له بينما هي تنكت بطانيته وتطويها، تضعها على سريره، تقبل نحوه، تقف على مقربة منه، تشير إلى رف الكتب على يمينه: «أروح أشوف جارتنا أم حسان، أتمنى تصلح حنفية المغسلة بدل ما تقرأ هذي التفاهات».

يسمعها وهي تحدث نفسها بالأرمنية في المطبخ. تنكت عباءتها. تصفق الباب وراءها، تفتحه مجدداً، تطل برأسها من وراءه وتقول بالتتابع: «سخنت لك الشاي، فطورك بالثلاجة، ولا تنسى الحنفية» تخرج ثانية. يسمع خطواتها في الممر المفضي إلى الباب الرئيسي. يسمع أصوات انفجارات بعيدة، سقسقة عصافير خاملة في الخارج، قرقرة أمعائه.

السبت ٢٢ آذار:

- *مقتل خمسين مدنياً عراقياً في قصف جوي أمريكي بريطاني على بغداد والبصرة.*
- *إصابة ٢٥٠ مدنياً عراقياً في قصف بغداد.*
- *اصطدام مروحيتين بريطانيتين فوق المياه الدولية في الخليج يسفر عن مقتل جميع أفراد الطاقمين السبعة.*
- *صمود ميناء أم قصر الاستراتيجي في وجه القوات الأمريكية البريطانية.*

«يا ربي!» تقول هيلا. تخفق بيضة. تحرك الطنجرة فوق النار بعصبية. تصب شاياً في قدح زجاجي: «أتمنى تعبغ هالحرب بسلام».

تلفت العبارة الأخيرة انتباه «أمل» الجالس إلى مائدة صغيرة في المطبخ، ينتظر فطوره. يستمع إلى الراديو. يتمطى، يتثاءب، يتساءل: كيف تمرق الحرب بسلام ما دام أنها حرباً؟! يخرج إلى غرفة المعيشة. يجلس على الكنبة أمام التلفاز. يشاهد محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام يصف الأمريكان بالعلوج، الكلمة الأكثر إثارة لسخرية العراقيين أثناء الحرب.

«علوج؟» تسأله هيلا بينما هي تضع صينية فيها إناء بيض مقلي وخبز وقدح شاي على المنضدة أمامه: «أش معناة هذا؟».

يتناول فطوره. يغير ثيابه. يخرج من البيت. يتسكع في الجوار. يمر على حي تضررت بعض المنازل فيه من غارة الليلة الفائتة. ثمة صفارات إنذار تدوي في تلك الأثناء. غارة جوية أخرى وأصوات انفجارات تقترب. يكمل طريقه مسرعاً. يصل إلى بيت خالته ميساك. يحادثها لبعض الوقت. يدخل إلى غرفته ولا يخرج منها إلا بحلول المساء. يتقيأ.

الأحد ٢٣ آذار:

- أسر طيارين أمريكيين هبطا اضطرارياً في بغداد.

«ما راح يتركوه هالمرة» تقول ميساك وهي تنشر غسيلها على الحبال في الحديقة. تسأل «أمل» الذي يجلس على كرسي معدني بالقرب من شجرة السدر القائمة هناك منذ ولادته، يقلب موجات الراديو بتذمر: «صدكَ عنده أسلحة نووية؟».

«ما أعرف» يرد «أمل» بانزعاج: «راح أطلع».

«وين؟» تسأله ميساك محتجة وعندما لا تسمع إجابة منه، تطل من

بين شرشفين أبيضين كانت قد نشرتهما قبل قليل، تراه يتلوى: «بيك شي ماماتي».

«نعم» يقول أمل وقد استحالت سحنته إلى الصفرة: «يمكن مريض».

«منين تشكي؟» تسأله ميساك وقد أقبلت نحوه تمسح يديها بثوبها وتضع إحداهما على جبينه: «حرارتك طبيعية».

«بطني منتفخة» يمسد بيده على بطنه. يمتقع وجهه. ينهض متثاقلا ويناولها الراديو: «يمكن تهيّج القولون».

«انتظر» تستبقيه ميساك. تحاول إجلاسه على الكرسي: «راح أحضر لك زعتر يريح بطنك».

«لا» ينهض مرة أخرى: «ما أريد شي خالة».

يغادر، وصوت خالته وراءه: «خلي عمتك الساحرة تحضر لك علاج أعشاب».

الاثنين ٢٤ آذار:

- *العراق يعلن على لسان وزير إعلامها محمد سعيد الصحاف أسر أمريكيين وبريطانيين جدد.*
- *مقتل جنود أمريكيين وفقدان وإصابة آخرين بعضهم حالته خطرة خلال معارك في بلدة الناصرية.*
- *القيادة المركزية الأمريكية تعترف بفقدان مروحية هجومية من نوع أباتشي بعد إعلان العراق إسقاط مروحيتين للقوات الأمريكية.*
- *٨ سفن حربية أمريكية وكندية محملة بالعتاد تعبر قناة السويس.*
- *عاصفة رملية تبطئ تقدم الفرقة الأمريكية ١٠١.* «اشغب هذا» تناوله

هيلا قدح فيه نقيع أصفر حضرته من أعشاب مختلفة: «غاح يخفف عنك».

«من كل عقلك عمّي؟» يقول لها بنبرة اشمئزاز: «يبيّن مثل البول!».

«هو حاغ شوية، أشغبو على دفعات» تقربه من فمه. تلح عليه: «ديلا عزيزي خذلك جرعة» تنزعج من امتناعه وتذمره. تغضب. تشتم ميساك: «ما أعغف أش طعمتك هذيك المجنوني، ما أشك خلتلك شي، تغيد تسحرك!».

«يكفي لواص عمّي» يشم النقيع المر الأصفر. يشرب منه على مضض. يعبر عن تقززه. تنهض هيلا حانقة. تقف عند باب الغرفة. تسمعه يقول: «اثنينكم طيبين» تلتفت نحوه. تراه ينظر إليها بعينين توهجتا على نحو أثار فيها الحنين إلى شقيقها مائير. ودت لو تحتضنه، لكنها غادرت إلى المطبخ وقد اختنقت بعبرة مريرة.

يبصق «أمل» في منديل ورقي. يسحب البطانية. يغطي وجهه. يتذكر نيتّا المقنعة. يشعر بالانتصاب، بالانتفاخ، برغبة في التقيؤ. يزيح البطانية عن وجهه، ينظر إلى الساعة على الجدار: الحادية عشرة ليلاً. يسمع دوي طائرات. قصف في مكان بعيد. قرقعة أواني، ريح، قرقرة، ضرطة.

ينام.

الثلاثاء ٢٥ آذار:

- إلقاء قنابل عنقودية على حي سكني في البصرة يؤدي إلى مقتل وجرح عدد كبير من المدنيين.

- ضابط أمريكي يعلن عن فقدان مروحيتين بلاك هوك وأباتشي خلال عاصفة رملية انعدمت معها الرؤية بصورة كبيرة.

- قصف أجهزة إرسال للتلفزيون العراقي ببغداد.

- مقتل بريطانيين وإصابة آخرين بجروح قرب البصرة في تبادل نار بالخطأ بين دبابتين بريطانيتين.

يتحسس «أمل» أماكن شظايا القنابل العنقودية التي لا يزال بعضها في جسده منذ أصيب بها قبل اثنى عشر عاماً. ظهره وفخذيه وفي إحدى فردتي مؤخرته. ينهض من فراشه متكاسلاً. يدخل إلى المرحاض. يخرج وهو يتلوى. يغسل وجهه. يطلب من ميساك قهوة. يعود إلى غرفته. يشعر بالنحول. تزعجه تقلصات أمعائه. يقلب صفحات كتاب ويفعل ذلك بتذمر. يستلقي على السرير. يسمع لغط الصبية في الخارج وشتائمهم. تدخل ميساك وفي يدها فنجان القهوة.

«افتح ريقك بلقمة؟» تقول له ناصحة: «الأحسن تأكل شي ترا القهوة تزيد الانتفاخ ابني».

«مو جوعان» يرد عليها: «أشعر بتحسن».

يرتشف قهوته ببطء. يصغي لعمته وهي تقول:

«الأحسن تبقى ترتاح هنا يومين ثلاثة».

«ما أكَدر» يرج فنجان القهوة. يرتشف ما تبقى منه ويناولها إياه: «لا تصيرين أنانية خالة، لازم أروح لعمتي هيلا بعد الظهر».

«لا تتكلم معي بهذي اللهجة» تنهره: «أنا هم وحيدة. ما جاي تشوف؟».

«عندك طائفة تهتم بيك وتساعدك» يستلقي على السرير. يشبك يديه ويضعهما تحت رأسه: «أما هي فمقطوعة من شجرة».

«تورس يلير!» (هيا أخرج!) تزعق ميساك بالأرمنية بينما هي تشير إلى الباب: «كنا كو انيدز فادز دزارين كوف» (اذهب إلى شجرتك الملعونة).

«وهو كذلك» ينتفض «أمل» حانقاً «راح أروح» ينفعل. ينهض ويرتدي ثيابه، في الوقت الذي لا زال بإمكانه سماع خالته وهي تهذر في المطبخ دون توقف. يغادر على وجه السرعة. يصفق الباب وراءه بقوة.

الأربعاء ٢٦ آذار:

- ١٤ *قتيلاً مدنياً و٣٠ جريحاً في قصف حي شعبي ببغداد.*
- *الحرس الجمهوري العراقي يخوض أولى معاركه.*
- *أمريكا تعلن عن إرسال فرقة المشاة الرابعة بالجيش الأمريكي إلى الخليج والتي تضم ١٢ ألف مقاتل.*

تدخل هيلا إلى غرفة أمل. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً. ولم يمض الكثير من الوقت منذ أن تناولا الغداء معاً تحت وابل من قصف الطائرات الأمريكية لمواقع ليست بعيدة.

«ما غاح تغوح عليها اليوم؟» تقول له. تجلس على طرف السرير، في حين كان هو يجلس على كرسي أمام منضدة صغيرة: «تأخر الوقت، أبق اليوم هوني».

«لازم أغوح» يقول لها. يطوي ورقة كان قد كتبها مسبقاً بينما هو

يستمع إلى الأخبار ويضعها في كتاب. يضع الكتاب تحت الوسادة. ينهض. يرتدي ثيابه: «دتفتقدني».

«بس هي طردتك!» تصعّد هيلا من لهجتها. تغضب. تحاول استبقاءه: «لا تكون أهبل، أنت قلت هذ بعظمة لسينك».

«أي صحيح» يرد «أمل» بينما هو يرتدي قميصاً رمادياً: «كانت غضباني. اعتقد هسه هديت. هي مغة طيبي يا عمّي، عندا قلب أم مثلكي».

«ميخالف» تقول بنبرة خائبة: «أنت هيكذ تساعدا على اهانتك. هي تعمل هيكذ حتى تغيظني. أنا أعغفا مليح لهاي الحقودي».

«ماكو مشكلة» يدنو منها. يقبلها في جبينها ويغادر البيت: «ارجع الصبح. اتمنى يكون هنوك بعد من مغقة الباميا عمّي».

«أهبل» تصيح وراءه عند الباب: «أهبل وما تعغف مصلحتك!».

الخميس ٢٧ آذار:

- العراق يطلق ٤٤ صاروخاً من نوع الطارق و٧ صواريخ من نوع الرعد على القوات الأمريكية أثناء عمليات الإنزال شمال العراق.

- مقتل وإصابة أكثر من ٥٠ مدنياً في عمليات قصف أمريكية بريطانية على الموصل.

- هانز بليكس كبير مفتشي الأسلحة الدوليين يعلن أن القوات الأمريكية لم تقدم دليلاً على استخدام العراق أسلحة محظورة دولياً.

ـ وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد يعلن أن الحرب لن تتوقف ضد العراق إلا بعد الإطاحة بنظام صدام حسين .

يطفأ «أمل» الراديو. يتجشأ. رائحة باسطرمة، بصل، ثوم. يعاوده الشعور الكريه بالانتفاخ. يلوم نفسه: كان عليّ ألا أتعشى! يفكر ببيت عائلته بالتبني في محلة البجاري. يقرر الذهاب غداً لتفقده. يتجشأ. يلعن أحدهم. يسمع أصوات انفجارات بعيدة وأخرى قريبة، تحته مباشرة. يتقلب في فراشه. غازات فظيعة. صوت التلفاز يأتي من غرفة المعيشة. صوت خالته ميساك تطلب منه أن يصعد إلى سطح الدار لضبط الهوائي علّه يتلقط بث تلفزيون الكويت. تطل عليه من وراء الباب. تنادي. مرة، مرتين، ثلاث. يسمعها ولا يرد. يتصنع النوم. تعود هي إلى غرفة المعيشة. يسمع أغاني تعبوية يبثها تلفزيون بغداد: يا محلى النصر بعون الله، يا ساري بينا للمعالي، صدام اسمك هز أمريكا! يسخر. يضرط. يتجشأ. يشتم. يشعر بالحموضة تطفح إلى صدره، بلعومه، حلقه. يهرع إلى الحمام. يتقيأ.

«نصحتك لا تأكل زايد» صوت خالته يأتي من غرفتها حيث تتهيأ للنوم: «بس شسوي لنفسك الدنيئة!».

يدخل إلى المرحاض. يحاول التغوط. لا شيء. ريح فقط. يشعر بالدوار. يخرج من المرحاض. يغسل وجهه، رأسه. يعود إلى الغرفة. يستلقي على سريره متهالكاً. يئنّ. يتقلب لأكثر من ساعة. أرق، تفكير، غثيان. يبتلع أقراص مهدأة. يغرق في النوم. يغرق في حلم إيروتيكي. يغرق بمنيّه. يستيقظ. يلعن حظه. يحاول تذكر وجه المرأة التي ضاجعها في الحلم. يفشل. تزعجه اللزوجة. يتذكر نيتّا ليناريس: أين هي الآن يا

ترى؟ يلعنها: هل كانت حلم؟ ينهض. يستحم. يعود إلى فراشه. يفكر ثانية: هل كانت كذبة؟ يغمض عينيه. ينام. يشخر.

الجمعة ٢٨ آذار:

- *العراق يعتقل ٣ جواسيس عراقيين تجسسوا لصالح الولايات المتحدة الأمريكية.*

- *العراق يعلن على لسان وزير إعلامه مقتل ٧ مدنيين وجرح ٩٢ آخرين بسبب القصف الأمريكي البريطاني على بغداد.*

- *الجيش البريطاني يعلن أن مدينة البصرة لا تزال بعيدة عن سيطرة القوات البريطانية.*

- *العراق يعلن مقتل ٣٦٤ عراقياً وجرح ١٤٩٥ جنوب العراق منذ بدء الهجوم الأمريكي البريطاني على العراق.*

«الكلاب!» يخفض «أمل» صوت الراديو. يشتم. يركل أمامه بغضب: «ما خلو شي الا بس الكتب».

«زين سويت من تركت هذاك البيت موشي» تقول له عمته، بينما هما يجلسان في غرفة المعيشة: «منو يعغف احتمال يقتلوك!».

«حتى صور الأطفال الميتين كسغو الجامايات مالتا» يردد بيأس: «طيوغ الجنّي!».

«أنصحك ما تغوح هنوك مرة ثانية: «تحذره عمته. تحاول أن تدخل خيطاً في ثقب إبرة. تكح. تتضجر: «صيغ الوضع ما يطمن».

ينهض من على الكنبة أمام التلفاز. يدخل إلى غرفته. يستلقي على السرير. يُخرج من درج الدولاب إلى جانبه كتاباً كان قد جلبه معه من

بيت عائلته بالتبني، وجده بين الكتب المبعثرة هناك. الكتاب رواية لماريو فاراغاس يوسا بعنوان بانتاليون والزائرات كان يقرأ بها قبل التحاقه الأخير إلى الجندية عندما كانت الحرب وشيكة في عام ١٩٩١ لكنه أهملها بعد عودته إلى البيت، ودسّها بين الكتب في أحد الأرفف ونسي أمرها طوال الأعوام الاثنى عشر الماضية، على الرغم من حملات التنظيف وإعادة التصنيف التي كان يقوم بها لمكتبته بين فترة وأخرى، إلى أن ذكره به أحد السراق الذين اقتحموا البيت مؤخراً وبعثروا الكتب في كل مكان.

يفتح «أمل» الكتاب. يُخرج منه ورقة ويشمها. يقرأ محتواها للمرة التاسعة أو العاشرة منذ أن عثر عليها صباح ذلك اليوم مطوية في وسطه:

(أخي العزيز أمل

بعد التحية والسلام ودعائي أن تكون بخير

أعرف أنك مستاء مني، وربما تكرهني. أرجو أن تسامحني، لأني لم أتواصل معك طوال الأعوام الماضية. لم أكن متأكدة قبل الآن أنك ما زلت على قيد الحياة. كان من المفترض أن تكون ميتاً. صحيح أني لم أرَ جثتك في ذلك المساء، لكني كنتُ أشعر أنك هناك فعلاً، محشوراً في ذلك النعش اللعين، بغض النظر عما إذا كنت حياً أو غادرت الحياة حقاً. لقد حزنت كثيراً لأجلك ولأجل أمي. لم أجد أمامي في ذلك الحين سوى الهرب من تلك المدينة القذرة الموبوءة التي آمل أن تتواطأ معي هذه المرة على الأقل، فأخرج منها غير آسفة على ذلك.

لكن، كيف حدث أن عشت؟ كم روحاً تتلبس جسدك أيها الأسد؟!

تدخل عمته هيلا. تلقي عليه قميصا أصلحته حينما كانا يتبادلان أطراف الحديث في غرفة المعيشة.

«عندك هدوم وسخة؟» تسأله. فينظر إليها. لا يجيبها. يقرأ:

أكتب لك تحت القصف العشوائي للجيش الذي يوشك أن ينتزع المدينة من أيدي الثوار. لم يمضِ على عودتي أنا ووليد من بغداد سوى ستة أشهر أو أكثر. لقد استأجرنا شقة وضيعة في أحد الأحياء الفقيرة المتاخمة للعشار. لم أخرج كثيراً، كنتُ حاملاً وأجهضت في الشهر الثالث، بعد عودتي إلى البصرة بشهر. عشت بعدها فترة تعيسة من الكآبة والعزلة. مرضت. كدتُ أُجن. وازدادت حالتي سوءاً حين أُلقي القبض على نعيم بتهمة تزوير وثائق والتهرب من الخدمة الإلزامية في الجيش. لحسن الحظ أنهم أسقطوا عنه تهمة التزوير عندما كان البلد يتأهب لحرب جديدة. حلقوا شعر رأسه للمرة الأولى في حياته ـ كانت كارثة بالنسبة له ـ وسيق بعدها إلى التدريب ثم إلى الجبهة على الحدود العراقية الكويتية. لكنه سرعان ما عاد ليهرب، وزور أوراقاً جديدة تثبت أنه معفى من الخدمة العسكرية لأسباب صحية، أصم هذه المرة.

«مبين الحرب ما غاح تكون طويلي» تقول هيلا. تزيح الستارة عن النافذة. تسمح للهواء بالنفاذ إلى الغرفة. تتابع بصوت خافت بينما هي تشعل عود بخور: «هيم عازمين على خلعو هالمرة!».

يهز «أمل» رأسه موافقاً دونما اكتراث وعيناه على الورقة. يقرأ:

كان نعيم لا يزال مراقباً في تلك الأثناء، فبدأ يخطط للهرب من العراق. وعندما اندلعت الانتفاضة في شهر آذار بعد الحرب حمل السلاح بوجه السلطة. قال أنه يريد أن يثأر لشعره! هل تصدق ذلك؟ شخص مثله

لا يمكن التكهن بتصرفاته. طالما كان غريب الأطوار. فيلسوف قوّاد وطوباوي عاهر يستطيع أن يبدل جلده متى اقتضت الضرورة أن يفعل ذلك. لكني لم أجد في حمله السلاح وخروجه ضد السلطة انتقاماً لشعره سوى نوع من الخرق، أو أنه مجنون في أقل التقديرات. وعدا ذلك، فقد أقحمني هذا المعتوه أنا أيضاً في هذه المغامرة حين اضطلعت بدور المضمدة. لا زالت رائحة دماء الثوار الجرحى عالقة بثيابي. أنا مجبرة على مرافقته. لا أستطيع البقاء هنا. سيشون بي حتماً وأُعدم مثل كلبة!

أصوات طائرات تحلق على علو منخفض. اطلاق نار كثيف من مدافع وقاذفات الدفاع الجوي. هدوء. لغط. أصوات الصبية في الخارج يتشاجرون فيما بينهم على شيء ما. ترتدي هيلا عباءتها. تخرج إلى الشارع. بينما يكمل «أمل» قراءة الورقة:

لم أكن أود العودة إلى البيت. لكننا اضطررنا أنا ووليد إلى الاختباء فيه ريثما تحين الفرصة، ربما اليوم أو غداً، للهرب عبر الحدود العراقية السعودية إلى أحد المعسكرات في منطقة رفحاء يقال أن الأمريكان أقاموها لإيواء العراقيين المشاركين بالتمرد والمهددين بالتصفية من قبل السلطات يمكننا أن نقدم طلباً هناك باللجوء إلى أوربا أو أمريكا. لا أعرف ما إذا كنا سنصل في النهاية. الوضع متأزم للغاية. ربما نُقتل أو حتى ندفن أحياء، خصوصاً أن قوات الحرس الجمهوري تقف الآن على مسافة قصيرة من المدينة. لقد جئت قبل ذلك إلى البيت، لأرى إن كان ثمة من استولى عليه. طرقت الباب لأتأكد من أن أحداً لا يسكنه، لكني وبمجرد أن سمعت خطوات شخص في الداخل كان في طريقه إلى فتح الباب هربت. ثم أحسست به وهو يتعقب أثري في الأزقة ويحاول

اللحاق بي. وعلى الرغم من أني لم ألتفت لكني كنت متأكدة من أنه ليس أنت. لأني كنت متأكدة من أنك متّ.

«باوع!» تفاجئه عمته. تناوله إحدى المنشورات التي ألقتها الطائرات الأمريكية: «**العراق الجديد ينتظركم!** هذا اللي يقولونو. أتمنى يكون هالمرة صحيح».

ينظر «أمل» إلى عمته. لا يعبأ بورقة المنشور في يده. يطعجها. يرميها تحت السرير. يكمل قراءة الورقة:

خلال الأيام الثلاثة الماضية، منذ أن تركنا شقتنا الوضيعة ولجأنا إلى بيت العائلة في محلة البجاري علمتُ أنك لم تمت. هناك بقايا أطعمة فاسدة في الثلاجة، وجرذان متعفنة متسممة تحت السرير، وصورتان إضافيتان معلقتان على الجدار في غرفة المعيشة، إلى جانب صورة والديّ وأسفل صور طيور الجنة الخاملة وراء الزجاج القاسي منذ فترة طويلة. كانت رائحتك تنبعث من فراشك وثيابك المعلقة على شماعة في زاوية من زوايا غرفتك. وكانت صورك البورنوغرافية لا تزال تخشخش تحت وسادتك وبين طيات كتبك العدمية واللا أدرية. كتب الكفار واليائسين من الحياة، كما كانتا قريبتاك تسميانها. تلكما الحيزبونتان، كم هما مقرفتان. ألا زالتا على قيد الحياة؟ كان الأحرى أن تموتا بدلاً من أمك وأبيك المسكينين.

«أنت زين ابن اخوي؟» تسأله هيلا. تغلق النافذة وتسدل الستارة: «دحضغ نفسي للصلاة» يهز «أمل» رأسه من دون أن ينظر إليها، ويكمل:

لا بد أنهم ساقوك هذه المرة أيضاً إلى الجبهة. أنا حزينة لأجل

ذلك، وأتمنى أن تعود سالماً وتقرأ هذه الرسالة. سأضعها في الكتاب الذي لا زال على المنضدة الصغيرة في مكتبتك منذ أن وضعته أنت هناك، يبدو أنه آخر كتاب كنت تقرأه قبل أن تلتحق إلى الجندية ولم تكمله. سأترك رسالتي فيه وبمجرد ان تفتحه ستجدها.

أرجو أن تسامحني على كل شيء.

كن بخير

أختك نسرين ٣ نيسان ١٩٩١

يشرد ذهنه زهاء ساعة. ينتبه. يشعر بالدوار. يغفو ساعة أخرى. يستيقظ. يسمع خطوات عمته وهي تطوف في أرجاء البيت وتشعل أنوار ليلة السبت. تترنم. تدعو: ***يا الله يا ربنا، يا ملك الكون، يا من قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا أن نضيء يوم السبت*** .

السبت ٢٩ آذار:

- سقوط صاروخ عراقي بالقرب من مركز للتسوق بالكويت يصيب شخصين بجروح طفيفة.

- وزارة الدفاع البريطانية تعلن عن مقتل جندي وإصابة ٤ آخرين بنيران ربما تكون صديقة بالقرب من البصرة.

- عبور ٦ سفن حربية أمريكية بينها ٤ غواصات هجومية نووية قناة السويس باتجاه البحر المتوسط.

- عملية انتحارية لضابط عراقي على حاجز أمريكي تقتل ٥ جنود أمريكيين.

«هذي الحرب ماكو جوع» تقول ميساك بينما هي تلتقط الشوائب من صينية فيها رز: «الوضع مختلف عن قبل من صارت حرب الكويت. أذكر أكلنا رز منتهي الصلاحية. نخالة وطحين مخلوط برمل، وسمن كانوا التجار الجشعين يخلطونه ببتيتة مهروسة الملاعين. لولا لطف الله وعناية الكنيسة جا متنا جوع.. تذكر؟».

يتذمر «أمل» الجالس على الكنبة نفسها في غرفة المعيشة. لا يجيب على سؤال خالته عما إذا كان جائعاً.

«الغداء يتأخر شوي» تقول له: «لهّي نفسك بشي لحد ما يجي الغدا، بس لا تقرأ. راح تعمي القراءة عويناتك، ما أعرف شنو اللذة من هذي الهرطقات اللي تقرأها!».

«وشنو أسوي مثلاً خالة؟» ينطق «أمل» أخيراً: «الحياة معطلة. من بداية الحرب واحنا نأكل ونشرب ونخرّي وننام. ما لنا شغل غير هذا».

ينهض. يدخل إلى غرفته. يفكر بالخروج. يغير ملابسه. يسمع دوي طائرات تحلق منخفضة وتفتح مجال الصوت. ترتعب خالته. تهرع مع صينية الرز إلى غرفته. تسأله عما إذا يفكر الأمريكان بقصفهم. يطمئنها ويغير نيته بالخروج.

الأحد ٣٠ آذار:

يخرج «أمل» من بيت ميساك متأخراً. يسمع أصوات انفجارات بعيدة، وطائرات تحوم عشية ذلك اليوم.

«كيف لم أنتبه لذلك؟» يحدث نفسه في الطريق. يقبض على رسالة نسرين في جيبه بقوة. يبصق أمامه: «كان من المفترض أن أكمل قراءة ذلك الكتاب اللعين!».

يصل إلى بيت هيلا. يطرق الباب. تفتح له عمته.

«تأخرت كثيغ» تنهره: «أقلقتُ عليك، كان لازم على الأقل تقلي دتتأخر أبيت هاي الحقودي».

«أترجاكي عمّي» يدخل مسرعاً: «لا تبدين» يتأفف: «ما هسه».

يغير ثيابه ويتجه إلى الحمام. يستحم. يخرج. يجلس في غرفة المعيشة. ينقطع التيار الكهربائي. تأتي هيلا حاملة معها فانوس.

«اليوم قصفوا بيت ويحد طبيب» تقول مستنكرة: «المسكين قتلو كل عائلتو!».

يفتح «أمل» الراديو. يقلب الموجات:

- القيادة المركزية الأمريكية تعلن عن مقتل جنديين أمريكيين في حادثتين منفصلتين.

- بيان عسكري أمريكي يعلن أن ١٠ - ١٥ جندي أمريكي أصيبوا عندما صدمتهم شاحنة في الكويت.

- ثلاث مدمرات أمريكية وفرقاطة بريطانية دخلت قناة السويس في طريقها للخليج العربي.

- العراق يعلن عن تفجير مروحية أمريكية من طراز «هارير» وإسقاط مروحية هجومية من طراز «أباتشي» ومقتل طياريها.

- وزارة الدفاع الأمريكية تعلن ع ن مقتل ٣ عسكريين أمريكيين وجرح آخر في حادث تحطم مروحية من طراز «هوري يو ايتش ١» جنوب العراق.

- *العراق يعلن إسقاط ٥ طائرات معادية وتدمير دبابتين و٩ ناقلات جند.*

- *وزارة الدفاع البريطانية تعلن عن مقتل جندي بريطاني وإصابة آخرين بجروح خلال معارك بمحافظة البصرة.*

- *وزير الدفاع الأمريكي رونالد رامسفيلد يعلن عن أسابيع من الحرب الجوية ضد العراق.*

الاثنين ٣١ آذار:

- *قصف أمريكي على مزرعة قرب بغداد يقتل ٢٠ مدنياً عراقياً بينهم «طفلاً».*

- *مواجهة برية كبيرة بين الفرقة الثالثة للمشاة الأمريكية وقوات الحرس الجمهوري العراقية قرب مدينة النجف هي الأولى من نوعها.*

- *تبادل قصف مدفعي بين مشاة البحرية الأمريكية وقوات عراقية جنوب شرق بغداد.أمريكا تعلن قصف وزارة الإعلام العراقية بصاروخ آخر للحد من قدرات القيادة والسيطرة على نظام صدام حسين.*

- *نصف سكان البصرة ـ كبرى مدن الجنوب ـ يعانون من نقص شديد في المياه بسبب الحصار الأمريكي البريطاني لها.*

«اليوم رحت للكنيسة» تقول ميساك وهي تقشر بطاطا للعشاء في المطبخ: «يقول الشماس لازم نكون حذرين. الأمريكان مو ثقة. يمكن يتكرر اللي صار بعد حرب الكويت ويشيلون ايديهم بالنهاية. احسن لك

تغلق حلكَك. التشوفه العين أصدق من التسمعه الأذن. هالشكل قالوا أسلافنا. فاهمني أبني؟».

يهزّ «أمل» رأسه موافقاً، وكأنه يبعد نفسه عن الدخول في جدال مع خالته بهذا الشأن. يسألها عن الوقت، فتقول أنها الرابعة. يخرج بعدها إلى الحديقة. يشم رائحة صيف وشيك. يخرج إلى الشارع. يرى هناك بعض الصبية يلعبون الكرة وآخرين يتهامسون فيما بينهم. يتذكر صباه في محلة البجاري. يسمع الصوت المزعج لصفارة الانذار. يتفرق الأولاد إلى بيوتهم. يرفع رأسه ويظلل عينيه بكفه. يرى سماء صافية وراء خطوط دخانية بيضاء خلفتها الطائرات الأمريكية. يدخل هو الآخر إلى البيت. يستلقي على سريره. يخرج رسالة نسرين. تكاد أن تتهرأ على كثرة ما قرأها وحملها في جيبه. يتساءل في نفسه إن كانت ميتة الآن أو أنها تنعم بحياة مختلفة في أوربا أو أمريكا، حيث كانت تمني نفسها دائماً بالوصول إلى هوليود وتحقيق حلمها الكبير بأن تصبح ممثلة مرموقة وشهيرة. أو أنها هاجرت إلى إحدى الدول التي قبلت اللجوء السياسي والإنساني للاجئين العراقيين في معسكر رفحاء وأرطاوية في السعودية ومنحتهم الجنسية. بعضهم بدأ بإرسال الرسائل إلى ذويهم منذ نهاية التسعينات. لو كانت نسرين بينهم ـ فكر أمل ـ لأرسلت على الأقل رسالة واحدة تخبره فيها أنها لا زالت على قيد الحياة.

الثلاثاء ١ نيسان:

ـ معارك عنيفة بين قوات التحالف الأمريكي البريطاني والقوات العراقية في منطقة البصرة جنوب العراق.

- تعرض مجمع القصر الجمهوري وسط بغداد للقصف لليوم التالي على التوالي.
- مقتل ١٥ عراقياً من عائلة واحدة في انفجار صاروخ أطلقته مروحية أباتشي أمريكية على بلدة الحيدرة جنوب بغداد.
- العراق يعلن عن استشهاد ٣٣ مدنياً عراقياً وجرح ٣١٠ آخرين في قصف القوات الغازية لمدينة الحلة في محافظة بابل جنوب العراق.
- جنود أمريكيون يطلقون النار على سيارة عند حاجز للجيش الأمريكي أدى إلى قتل سبعة من النساء والأطفال العراقيين.
- طائرة أمريكية تقصف حافلتين تقلان دروعاً بشرية بينهم أمريكيون على طريق (بغداد - عمان) يسفر عن سقوط جرحى.
- مسؤولون أمريكيون وكويتيون يعلنون عن إطلاق نار بالخطأ من جانب جنود أمريكيين على آلية عسكرية كويتية.

«الجغيذي الملعون!» تقول هيلا غاضبة وهي تحاول إخراج جرذ ميت من تحت الخزانة في غرفتها، كانت قد وضعت له سماً في سمكة صغيرة. يسمعها «أمل» الجالس في المطبخ إلى الطاولة يتناول غداءه: «أتمنى ما يصيبنا الطاعون!».

يتذكر نيتّا ليناريس وشكواها من الرائحة الكريهة في شقتها، وإمكانية أن يكون هناك جرذ ميت. خطرت له فكرة كتابة رسالة إليها وإرجاء إرسالها حتى تنتهي الحرب. كاد أن يفعل ذلك عندما انصرف إلى غرفته وأخرج ورقة وقلماً لولا أنه سمع صرخة ندت من عمته هيلا.

«جغيذي!» كانت لا تزال تصرخ مذعورة حين هرع إليها: «ابدالك موشي أكو جغيذي ثاني ملعون!».

الأربعاء ٢ نيسان:

- تقارير ميدانية تتحدث عن بدء المرحلة الأولى من الهجوم الشامل لاجتياح بغداد.
- الرئيس العراقي صدام حسين يدعو العراقيين إلى التصدي لـ(المعتدين)، ويعدهم مجددا بـ(النصر). ويقول أن العراق لم يقحم في المعارك سوى ثلث قواته.
- القيادة الوسطى الأميركية تؤكد تدمير (فرقة بغداد) للحرس الجمهوري العراقي في مدينة الكوت.
- منظمة العفو الدولية تطلب إجراء تحقيق (مستقل وكامل) حول إطلاق النار الذي أسفر عن مقتل سبع نساء وأطفال عراقيين عند حاجز أميركي قرب النجف.
- الضحايا المعترف بهم: العراقيون، مقتل ما بين ٤٤٥ إلى ٨١٧، وجرح ما بين ٤٢٠٦ إلى ٥٨٠١ آخرين. الأميركيون، مقتل ٤٦ جنديا، سقط ٣٨ منهم في ساحة المعركة، و٨ في حوادث. والبريطانيون، مقتل ٢٧، منهم ٦ في المعركة و١٦ في حوادث، و٥ بـ(نيران صديقة).
- البحرية الأميركية تعلن إنقاذ طاقم طائرة مقاتلة من طراز (اف ـ ١٤ أي تومكات) تحطمت في العراق. والقيادة الوسطى تؤكد إنقاذ أسيرة كانت محتجزة في مستشفى في الناصرية.

«تظن أنها ماتت؟» تسأل ميساك «أمل» بعد أن سلمته رسالة نسرين التي نسيها في جيب قميصه، فعثرت عليها بينما هي تقوم بغسل ثيابه: «احسنلك تنساها ابني».

«صعب انساها» يجيبها «أمل» بنبرة حزينة: «ربينا سوية بنفس البيت. كانت المفروض تعيش حياة طبيعية لولا أحلامها المستحيلة. دمرت مستقبلها بيديها».

«لحد الآن تعتقد أنها أختك؟» تسأله ميساك: «هم شعرت بالعار لأنها هربت مع ذاك الرجل؟ شنو كنت راح تسوي لو كانت اختك الحقيقية؟ تقتلها مثل ما يسوي العربان ببناتهم؟».

«أنا مو قاتل» يجيبها. يجهش بالبكاء. يغطي وجهه بيديه وينتحب. تواسيه ميساك. تضمه إليها. تسأله: «صدكَ كانت تحبك؟».

الخميس ٣ نيسان:

- *القوات الأميركية والبريطانية تقترب إلى نحو ١٥ كيلومترا من بغداد وتقف على مشارف مطارها الدولي.*
- *القيادة الوسطى الأميركية تعلن أن صاروخا عراقيا أرض ـ جو أسقط مقاتلة أميركية من طراز (إف.إيه ـ ١٨) وإسقاط مروحية أميركية ومقتل سبعة من ركابها وإصابة أربعة آخرين.*
- *جيف هون وزير الدفاع البريطاني يعلن أن القوات البريطانية تحتجز تسعة آلاف أسير عراقي.*
- *ناجي صبري وزير الخارجية العراقي يقدم تقديرات جديدة تقول إن الغزو أدى إلى مقتل أكثر من ١٢٥٠ مدنيا وإصابة خمسة آلاف في كل أنحاء البلاد منذ بداية الحرب.*
- *القوات البريطانية في محيط البصرة تكتشف أول غرفة تعذيب في قسم شرطة عراقي.*

ـ منظمة العفو الدولية تستنكر استخدام القوات الأميركية القنابل العنقودية في القتال.

«الأخبار مو زينة؟» تسأل هيلا ابن أخيها: «مو؟».

«ما كثيغ» يجيبها «أمل» يبتلع لقمة. يشرب ماء. يتجشأ: «يحكون عن عراق جديد وحكومة جديدي ودولة ديموقراطية».

«مبين هيكذ» تقول هيلا: «ما أصدق أنم وصلوا بغداد بهذي السرعة!».

«صدقي» ينهض «أمل» يغسل يديه ويعود ليجلس إلى المائدة الصغيرة في المطبخ: «والعجيب أن هذي المدينة لهسة تقاوم!».

«أي» تضع هيلا أبريق الشاي على نار الطباخ الغازي «عجيبة!».

«الناس بدت تتذمر» يقول «أمل» بينما هو ينبش أسنانه بعود خشبي: «أكثرم يتمنون يسقطونو لصدام».

«وأنت؟» تضع هيلا قدح شاي ساخن أمامه على الطاولة. تجلس قبالته.

يرتشف «أمل» من قدح الشاي. يتلمس ظهره: «بعدا شظايا القنابل العنقودية تحت جلدي».

«اش تتمنى؟» تسأله مجدداً.

«أن أعيش بسلام» يجيبها.

الجمعة ٤ نيسان:

ـ توني بلير رئيس الوزراء البريطاني يتعهد في خطاب مفتوح إلى

العراقيين: (فور سقوط نظام صدام حسين سيبدأ العمل على بناء عراق جديد حر وموحد..

- خمسة من كبار المراجع الشيعية في النجف، يفتون بوجوب (دفاع) العراقيين عن وطنهم ضد قوات التحالف.

- مجلس النواب الأميركي يقر قانونا يستبعد فرنسا وألمانيا وروسيا وسورية من عقود إعادة إعمار العراق.

«أتمنى تنتهي هذي المحنة عن قريب» تقول ميساك. تصم أذنيها عندما تفتح طائرة أمريكية مجال الصوت: «والله تعبنا».

يغير «أمل» الموجة في الراديو. يطلب من خالته الانصات:

- الكونغرس الأميركي يصوت على زيادة حوالي ٨٠ مليار دولار على الموازنة لتمويل الحرب.

«عندي قريب انقتل بالحرب مع إيران وواحد ثاني تأسر قبل نهايتها» ينقطع التيار الكهربائي. يأتي صوت ميساك من العتمة بارداً، مرتعشاً: «هاكوب تعرفه؟ المسكين، رجع من الأسر حاله حال الباقين بنص عقل بعد اسبوع من غزو صدام للكويت. شكَد حظه سيء هاكوب أوهانيس هذا».

يغير «أمل» الموجة من جديد. تنهض ميساك. تأتي من المطبخ بشمعة. تضعها على الطاولة الصغيرة في غرفة المعيشة حيث يجلسان.

- الرئيس صدام حسين يؤكد (صمود بغداد في وجه الغزاة) ويدعو العراقيين لقتالهم حتى (يتراجعوا مهزومين).

«هراء!» يهتف «أمل».

«اششش» تحذره ميساك وتعض سبابتها قائلة بالأرمنية: «باديره آغانتش اولين!» (للحيطان آذان!)

السبت ٥ نيسان:

«يا الله بارك أرضنا واجعلها مثمرة وكثّر نتاجها».

تنهي هيلا دعاءها. بينما «أمل» في غرفته يستمع إلى الأخبار:

- الرئيس العراقي صدام حسين يدعو العراقيين إلى المقاومة لتخفيف الضغط على بغداد.

- الفرقة ١٠١ أل أميركية المجوقلة تبدأ هجوما للاستيلاء على كربلاء وتخوض حرب شوارع عنيفة في وسط المدينة.

- القوات البريطانية تشن حملات توغل في البصرة دون أن تصل مع ذلك إلى وسط المدينة وتعرض على المقاومين المساعدة للاستسلام.

يسمع عمته تناديه من المطبخ. ينهض. يتوجه إلى هناك والراديو بيده. يجلس إلى المائدة. تضع هيلا أمامه طبق «التبيت» وهي أكلة يوم السبت التقليدية اعتادت أن تعدها يوم الجمعة وتتركها على نار هادئة شبه نائمة حتى موعد غداء اليوم التالي. وهي عبارة عن دجاجة تطهى مع الرز، وتحشى بين الجلد واللحم بلحم ضأن مفروم وتوابل.

«احتمال ديدخلون اليوم» تقول له هيلا. تجتزئ أحد فخذي الدجاجة وتضعها في إناء فيه رز أمامه على المائدة: «كُل، محد يعغف اش ديصيغ باجر».

«ما جوعان» يقول لها. يطفأ الراديو وينهض: «دطلع هسه».

«إلى وين؟» تمسكه من ذراعه وتجلسه: «لا تصيغ متهور الوضع مو زين برا، انتظر دنشوف اش يصيغ باجر».

الأحد ٦ نيسان:

- *القيادة الوسطى الأميركية تؤكد مقتل ستة جنود أميركيين في تحطم مروحيتهم من نوع (بلاك هوك) التي أسقطت الأربعاء الماضي في وسط العراق.*

- *القوات البريطانية تشن هجوما ثانيا على مركز مدينة البصرة حيث تحركت من الجنوب لتبلغ حافة المدينة في أعقاب هجوم شنته من الغرب في وقت سابق من اليوم.*

«شفت دبابات بريطانية وأنا بطريقي لهنا» يقول «أمل» مؤكداً. يغير ثيابه ويطلب من ميساك قهوة: «أنتِ زينة خالة؟ وجهك أصفر مثل الكركم».

«نعم أنا بخير» ترد ميساك. ترتدي عباءة وتخرج. تقف عند الباب. تطل من ورائه علّها ترى شيئاً. يتبعها أمل: «سمعت صاير فرهود من الصبح.. صحيح؟».

«نعم» يرد «أمل» «شفت بنك مكسور وجاي ينهبونه».

يدخل إلى البيت. يتوجه إلى غرفته. يدور فيها. يفكر. يخرج المفكرة من الدولاب الصغير. يكتب فيها شيئاً. يعيدها. يفتح الراديو. الأخبار نفسها. يستلقي على السرير. يسمع صوت إطلاق نار. يهرع إلى الخارج. يرى خالته تقف مع نساء الجيران على مقربة من البيت. يدخل مجدداً. يشغل التلفاز. محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي ينفي خبر احتلال البصرة. يعفط «أمل» يطفئ التلفاز. يرتدي ثيابه. يخرج إلى

الشارع الرئيسي. تتبعه خالته. يقفان على رصيف الشارع وسط أناس تجمعوا هناك مندهشين من رؤية جوق موسيقي يتقدم كتيبة جند اسكتلنديين بوجوه صهباء وشعر أشقر وعيون زرق. مجنزرات عملاقة ترفع العلم البريطاني، مجندات شقراوات، جنود سود، فوهات مدافع، بنادق وبساطيل نظيفة تطأ شارع الاستقلال في العشار.

الاثنين ٧ نيسان:

- *عربات عسكرية أميركية تدخل القصر الجمهوري في بغداد، حيث دارت معارك ضارية. ومحمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي ينفي سقوط القصر.*
- *المعارض العراقي احمد الجلبي يصل إلى بلدة الناصرية في جنوب العراق على رأس ٧٠٠ مقاتل انضموا إلى الحملة العسكرية الأميركية.*

يغير «أمل» ثيابه ويخرج من البيت وسط احتجاج ميساك التي كانت لا تزال متوجسة من الأوضاع، رغم أنها رأت بعينيها بالأمس القافلة البريطانية بمجنزراتها وآلياتها وجنودها وهي تتجه نحو مجمع القصور الرئاسية عبر شارع الاستقلال. يصادف في طريقه بعض الأهالي وهم ينهبون ممتلكات وأثاث ومحتويات الدوائر الحكومية ومخازن المؤن والمصارف والمدارس ومقار الفرق الحزبية ومراكز الشرطة وثكنات الجيش والدوائر الأمنية. يشعر بالاستياء. يغذّ السير باتجاه البصرة القديمة. يشاهد بعض الأشخاص يزيلون صور وجداريات صدام أمام المباني الحكومية وفي الساحات العامة. جثث لحزبيين قُتلوا في الليلة الفائتة. بعض دوريات بريطانية راجلة تجوب شوارع المدينة. مجندات

حسناوات يلاطفن صبية الأحياء الشعبية، وجنود في مؤخرة سيارة عسكرية يرمون لهم علب البسكويت وأطعمة معلبة وسجائر. يتشاجر بعضهم على عبوة مياه معدنية، يتبادلون الشتائم والبصاق. يكتشفون أن محتوى العبوة بولاً. يركضون في إثر السيارة ويرشقونها بالحجارة. يشعر «أمل» بالحنق. يصل إلى بيت عمته. يطرق الباب. تفتح له هيلا.

«أنتِ بخير عمّي؟».

الثلاثاء ٨ نيسان:

يستيقظ «أمل» من النوم على صوت إطلاق أعيرة نارية قريبة. يدعك عينيه. يشغل الراديو. تطن في أذنيه أصوات الجموع الناعقة: **«منصورة يا بغداد»** يغير الموجة: **«هذا وصرح ناطق عسكري....»** يغير الموجة:

- *جون كيغن المؤرخ البريطاني يقول أن الخطة الدفاعية التي وضعها الرئيس صدام حسين لمواجهة القوات الأميركية ـ البريطانية، كانت إحدى أسوأ الخطط التي وضعت في التاريخ.*
- *القوات الأميركية تحكم الطوق حول بغداد وتخوض عمليات اقتحام متفرقة وتصل بدباباتها إلى مركز المدينة بعد احتلال مواقع رئيسية فيها.*
- *محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي يؤكد أن العراق لن يستسلم لقوات التحالف وانه على هذه القوات أن تستسلم.*

«نهبوا المصرف اللي بالجهة المقابلة» تقول هيلا. تزيح الستارة. تفتح النافذة: «تقول جارتي ام حسان انو الانكليز نفسم كسغوا المصرف وفتحوا المجال للحغامي حتى ينهبون!».

يغادر «أمل» فراشه. يشعر بالجوع. يغسل وجهه. يجلس إلى المائدة

في المطبخ. يستعيد في ذهنه أحداث اليوم الفائت. يتساءل: هل حقاً حدث كل ذلك؟ يسمع عمته تقول:

«هذولي الحغامي يذكروني بفرهود سنة ١٩٤١ كان عمغي عش سنين بوقتا. كان جارنا عاليمين ايراني يشتغل نسّاج، وجارنا عاليسار عطار هندي عندو محل عطارية بسوق الهنود. سمعت بعدين كن سافروا مع عوائلم بنهاية السبعينات وبداية الثمانينات لانم من التبعية الايراني والهندي. اتذكر من غادو مجموعة من الملثمين ينهبون بيتنا بهذيك السني، وقف جارنا المسلم (ابو علي) المقابيل بيتنا قدامم وبيدو شومي من الخشب الجاوي. وكلما يهددونو ويطلبون منو يتخغ حتى يشتغلون شغلم يصيح بوجم: على جثتي!».

«منو هذولي عمّي؟» يسألها «أمل» بينما هو يشعل سيجارة.

«ما أعغف» تجيبه هيلا وهي تقشر حبات هيل وتضعها في إبريق الشاي: «محد يعغف» تضع خبزاً على المائدة وإناء فيه قيمر وآخر فيه مربى جزر: «يقولون أنم اراذل السكان بالمدينة، واكو يقولون أن عراقيين نازيين وقوميين، يساعدوهم بهذا بعض العروبيين من السوريين والفلسطينيين الغاضبين. واذا صح القول وكانت للوكالة اليهودي واللوبي الصهيوني اليد الطويلي بكل اللي صار، الا كانت هذي اسوء طريقة يفكرون بيها الصهاينة حتى يجذبون اليهود العراقيين إلى فلسطين»!

«ليش ما غحتي انتي هم؟» يسألها. يسحق عقب سيجارته في المنفضة. يغمس قطعة من الخبز بالقيمر ويمرغها بمربى الجزر: «كل هذا الشي لخاطغ عظام خطيبكي؟».

«كنتو اعتقد هذا الشي بالبداية».

«اش صاغ لَكَنْ؟».

«ما اعغف» تصب هيلا الشاي في قدح زجاجي وتدفعه باتجاه أمل: «بس، إذا سألتني أشقد غاح من الوقت على آخر مرة زرتي بيها قبغ خطيبكي القتيل، غاح تفهم اني كنتو موهومة بينو».

«صدق؟» ينبري «أمل» يرتشف من قدح الشاي. يشعل سيجارة أخرى: «أشقد عمّي؟».

«أثنعش سنة» تجيبه بحسرة بينما هي تهزّ رأسها بأسف.

«غاح ترغوحين إذا صارلك فغصة؟» يسألها.

«أي أغوح» تصم هيلا أصابع يدها وتبرز السبابة لتنقر بها على سطح المائدة مؤكدة: «هذا البلد ما عاد ألنا ابن اخوي!».

الأربعاء ٩ نيسان:

- *القوات الأميركية تدخل أنحاء مختلفة من بغداد، والمبتهجون بسقوط النظام يساعدون في الإطاحة برموز السلطة، ويسقطون تمثال صدام في ساحة الفردوس.*
- *القيادة الوسطى الأميركية تقول أن الحشود (المبتهجة في بغداد تعلم أن النظام انتهى ولن يعود أبداً بالشكل نفسه).*
- *إسرائيل تعرب عن أملها في أن (يستخلص (الفلسطينيون) العبر المناسبة) من سقوط نظام صدام حسين في العراق. وجون بولتن نائب وزير الخارجية الأميركي يقول أن على سورية أن تستخلص العبرة من العراق.*
- *هانز بليكس كبير مفتشي الأمم المتحدة يقول (الولايات المتحدة*

شنت الحرب عندما بدأ العراق التعاون مع الأمم المتحدة، وان الحرب كان مخططاً لها منذ زمن بعيد).

- منظمة (الحملة من أجل نزع السلاح النووي) البريطانية تعلن أنها ستطلب من المحكمة الجنائية الدولية البت في إمكان توجيه تهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية إلى رئيس الوزراء توني بلير ووزيري الخارجية جاك سترو والدفاع جيف هون.

«سمعت بالخبر المفجع؟!» تقول ميساك بنبرة لا تخلو من ذهول عادة ما يخلفه سماع الأخبار الصادمة: «الله يلعن الأمريكان!».

«سمعت» يتمطى «أمل» في فراشه كأن الأمر لا يعنيه: «سقطت بغداد!».

«لا» ترد ميساك نافية بحزن: «أقصد غير شي».

«جا شصاير؟» يسألها «أمل» باهتمام هذه المرة: «شكو خالة شنو الخبر؟».

يريد أن يترك فراشه ويذهب إلى الحمام. يمنعه انتصاب عضوه الإجباري. ذلك الانتصاب الكريه الذي لا علاقة له بالشهوة، التصلب المزعج الذي سيفضحه أمام خالته التي لا يبدو أنها ستغادر الغرفة ما لم تفرغ مناحتها على عائلة أرمنية كانت قد سمعت خبر تعرضها لنيران المارينز أثناء اشتباكهم مع عناصر من الحرس الجمهوري يوم أمس في شرق بغداد، مما أدى إلى مقتل ثلاثة من أفرادها وجرح امرأتين، الأم وابنتها.

تراود «أمل» فكرة مجنونة في تلك الأثناء. فكرة أن يكتب رسالة مستعجلة إلى نيتّا المقنعة الماجنة. لكن عليه أن ينتظر أولاً حتى يخمل

عضوه، ثم ينهض ويذهب إلى الحمام. يغتسل ويتناول فطوره قبل أن يبدأ بالكتابة.

(عزيزتي نسرين

لم تكن طريقتك بالتخفي على هذا النحو ناجحة تماماً. ربما كانت كذلك في الرسالة الأولى. لكني، فيما بعد، لم أعد أشك أن نيتّا ليناريس المقنعة هي نفسها أنتِ في نموذجكِ المعيب الداعي إلى شعوري بالعار ـ ما دام أننا رضعنا من الصدر نفسه ـ وأنا أراكِ بتلك الأشكال الفضائحية التي إن دلت فإنها تدل على أنكِ، ومنذ كنتِ في الثانية عشرة ـ مجرد فتاة لعوب وداعر بالقدر الذي وفر لكِ أخيراً، ومن دون أدنى مراعاة لمشاعري الأخوية، إمكانية أن تكوني ممثلة بورنوغرافية رخيصة. طبعاً، بعد أن فشلتِ في بلوغ هدفكِ وتحقيق أمنيتكِ بأن تكوني ممثلة ذات شأن رفيع. لكن، وللأسف الشديد ها أنتِ تتمرغين بوحل حياتكِ التي اخترتِها.

حسنٌ أني كشفتكِ على حقيقتكِ في الوقت المناسب، ولم تنطلِ عليّ لعبتك القذرة بالتنكر. طالما اعتبرتكِ ميتة، حتى وأنا أكلف نفسي عناء البحث عنكِ في بغداد، كنت أشعر أني أبحث عن جثة في مكان ما. جثة فحسب. لقد ضحكت من اتهامك لي وادعائك من أني اعتديت عليك في تلك الليلة. هكذا إذن، وصلت بك الوقاحة إلى اتهام الآخرين باغتصابك لا لشيء سوى تبرير ما أنتِ عليه الآن من ضحالة وسقوط. وعلى الرغم من ذلك، لا استغرب منكِ هذا الادعاء السخيف، فهكذا أنتنّ دائماً معشر الممثلات الإباحيات، تبحثن عن أردأ التبريرات ومنها

ما تتوهمنه يقع عليكن من جور الدنيا وظلم الأزواج والأشقاء والأقارب.)

عدا ذلك، كان «أمل» قد ملأ خمسة أوراق بالشتائم والبصاق. لكنه اضطر في النهاية إلى اختصارها إلى ورقة واحدة خاصة بمنظمة الصليب الأحمر الدولية التي كانت النافذة الوحيدة لنقل الرسائل إلى الخارج. في وقت كانت الخدمات البريدية معطلة، ودائرة بريد العشار المركزي لا تزال تقفل أبوابها بعد تعرضها للنهب كحال بقية الدوائر والمؤسسات الحكومية منذ دخول البريطانيين إلى المدينة.

وبينما هو في طريق عودته يصادف «أمل» عند أحد تقاطعات الطرق، صبية يبيعون مشروبات كحولية وأقراص CD لأفلام خليعة. يشتري واحداً منها ويقفل عائداً إلى بيت عمته هيلا.

الخميس ١٠ نيسان:

يحكم «أمل» غلق باب غرفته والنافذة. يطفئ النور. يضع قرص الفيلم الخلاعي في مكانه ويدفع لسان محرك الأقراص إلى الداخل. يشغل الراديو ليظلل عمته هيلا ويوهمها أنه يستمع إلى الأخبار:

- *جورج بوش وتوني بلير يوجهان رسالة مشتركة إلى الشعب العراقي يقولان فيها: إن العراق الجديد لن تحكمه أمريكا أو بريطانيا، بل سيحكمه الشعب العراقي. وأن أموال النفط هي أموالكم وستسخر لتوفير الرخاء والعيش الكريم لكم ولأسركم.*

«**فروم ماي آز!**» تدلع الممثلة الإباحية في الفيلم الخليع لسانها. تبرز مؤخرتها. تبصق في يدها وتمرغ إستها: «**أوووه ماي كَاد!**».

(٤)

بعد فترة قصيرة مضت على دخول القوات البريطانية إلى البصرة، باشر «أمل» عمله في التدريس. وكان قبلها قد عاد إلى السكن في بيت عائلته بالتبني في محلة البجاري، من دون أن يعبأ باعتراض قريبتيه هيلا وميساك اللتين كانتا تفضلان أن يسكن معهما. اشترى كتباً جديدة وقطع أثاث مستعملة، ثلاجة، مكيف هواء، خزانة ملابس، كنبة، وسرير. في وقت بدأت السلع على مختلف أنواعها بالتدفق من الكويت والسعودية وإيران. كان يقضي وقته بين البيت والمدرسة. يزور عمته وخالته. يتسكع. يشاهد الدمار الذي حل بالمدينة، ويراقب التغيرات التي بدأت تطرأ عليها منذ دخول البريطانيين في ٦ نيسان. يقرأ كثيراً، يأكل كثيراً، ويدخن كثيراً. يشاهد التلفاز، أفلام وثائقية، ثقافية، علمية، أفلام إباحية رخيصة يشتريها من أصحاب الأكشاك الصغيرة في سوق البصرة القديمة. يستمع إلى الراديو: رسائل صدام حسين الصوتية التي يسجلها في نفق ما تحت الأرض ويدعو فيها العراقيين إلى مقاومة الاحتلال الانكلوسكسوني. تصريحات الرئيس الامريكي جورج بوش وهو يقول أن الرب قال له:

«جورج.. ضع حداً للتسلط في العراق وهذا ما فعلته. وفّر

للفلسطينيين دولة وللإسرائيليين أمناً وأقم السلام في الشرق الأوسط، وهذا ما سأفعله».

«فروم ماي آزا» يعقب «أمل» يعفط.

يزور مكتبات. يقرأ صحفاً. يرتاد مقهى إنترنت افتتح مؤخراً في العشار. يتصفح مواقع خبرية. مواقع فنية. سياحية، ثقافية، بيئية، إباحية. منتديات، كَروبات. يشاهد صوراً. يقرأ إعلانات ونكات عراقية بذيئة وقصص جنسية ونوادر. يتتبع الأخبار، أخبار البصرة، العراق، العالم.

- *مقتل ١٠٠ عراقي في أسوء هجومين دمويين أمريكيين في العراق منذ بدأ العمليات العسكرية.*

- *استخراج أكبر جمجمة كاملة لديناصور من قبل مزارع في الولايات المتحدة الأمريكية.*

- *أدريان برودي ونيكول كيدمان يحصلان على أوسكار أفضل ممثل وممثلة.*

- *البصرة أقذر مدينة في العالم!*

- *استمرار النزاع القضائي بين الروائي الشهير غابرييل غارسيا ماركيز ميغويل ريس بالينسيا، وهو شخص كولومبي يدعي أن الحائز على جائزة نوبل استخدم قصة حياته كمحور رئيسي في قصته الشهيرة قصة موت معلن.*

تظهر صورة نيتّا المقنعة في أحد المواقع الإباحية ترتدي ثياب سنو وايت ويحيط بها مجموعة من الأقزام البشعين العراة. يلعن حظه. يلعن نسرين. يبصق على الشاشة. يشعر بالانتصاب.

كنسل!

يعود إلى البيت. ينام وهو حانق. يحلم بسبعة أقزام قبيحين يطاردونه في غابة. توقظه أصوات جلبة في الخارج. إطلاق نار. صياح ديكة. آذان الفجر. يحدق بالروزنامة المثبتة على الحائط. ١/٦/٢٠٠٣. اليوم الأول من العطلة الصيفية. يعود إلى السرير. ينام. يحلم. المزيد من الأقزام الوقحين يتقافزون على سريره. يستيقظ بعد الظهر. يتناول غداءه في أحد مطاعم العشار. رز وفاصوليا. يرتاد مقهى الإنترنت. يتصفح مفضلاته من المواقع والمنتديات. يتتبع الأخبار:

- *مقتل ستة جنود بريطانيين وجرح ثمانية آخرين في هجومين منفصلين جنوب العراق.*
- *صحيفة أمريكية تكشف قصة اقتحام ستة عشر جندياً أمريكياً الطابق السفلي لمبنى الاستخبارات العراقية في بغداد والاستيلاء على الأرشيف اليهودي العراقي الذي يعود إلى أزمنة سحيقة، وتهريبه إلى الولايات المتحدة الأمريكية تمهيداً لترحيله إلى إسرائيل.*
- *الإعلان عن ميلاد أول بغل مستنسخ في العالم.*
- *تعلن شركة الجناح الذهبي عن سفرة سياحية إلى مصر.*
- *عشرة ملايين لغم أرضي وبحري في البصرة جونب العراق.*

كنسل!

يعود إلى البيت. يزور خالته ميساك عصراً. يجدها منكبة على أوراق وصور وذكريات ومنهمكة بكتابة شيء ما. يقترب ليسألها ماذا تكتب. تتوجس منه. تخفي أوراقها. تدعوه لتناول عصير ليمون أعدته مسبقاً. يغادرها إلى الكورنيش. يحزنه دمار متحف التاريخ الطبيعي، البنك

المركزي، فندق بصرة شيراتون. يعود إلى البيت. يتناول عشاءه. يقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل. ينام. يوقظه الحر في اليوم التالي. يستحم. يستمني. يرتدي ثيابه ويخرج. يزور عمته هيلا. يجدها منهمكة بالكتابة هي الأخرى. تجفل من وجوده المفاجئ. تخفي أوراقها: ماذا أصاب هاتين العجوزتين؟! يتساءل. يتناول فطوره ويخرج. تعترض طريقه أحد الاشتباكات بين البريطانيين والجماعات الإسلامية المسلحة. يسلك طريقاً آخر حتى يصل إلى البيت. يخرج عصراً. يرتاد مقهى الإنترنت. يتصفح موقعاً إباحياً. يضع اسم نيتّا ليناريس في مستطيل البحث. تظهر لها مجموعة من الصور الخليعة. يدعك عضوه. ينزعج. يشعر بالعار.

كنسل!

يتصفح مفضلاته. يتابع اخباراً ويقرأ تقارير وريبورتاجات مصورة.

- *جنرال فرنسي متقاعد يصرح لقناة التلفزيون ٥ الفرنسية أنه يوجد في العراق قرابة ١٥٠ جندياً إسرائيلياً في مهمة محددة وهي اغتيال نحو ٥٠٠ عالماً عراقياً.*
- *اكتشاف جين وراثيّ في خصوبة الذكور يتيح للعلماء انتاج حبوب منع الحمل للرجال.*
- *سيدة عراقية تلد سبعة توائم.*
- *أطفال البصرة الأكثر عرضة للإصابة باللوكيميا بسبب الإشعاعات.*

كنسل!

يغادر إلى البيت. يشتري في طريقه صحيفة وسندوتشات. يأكل. يقرأ. يشاهد التلفاز. ينام مبكراً. لا أحلام. يستيقظ على أصوات إطلاق نار. أحدهم يقرع باب البيت بعنف.

«من هناك؟».

يسمع جلبة في الخارج. لغط. كلمات نابية بالإنكليزية. وفجأة، يُكسر الباب. يقتحم البيت مجموعة من الجنود البريطانيين. يحاصرونه في إحدى الزوايا. يصادرون بعض الأوراق. أقراص ليزرية. وحقيبته. يوثقون يديه. يحشرون رأسه في كيس من الخيش. يقتادونه إلى مقر القيادة البريطانية في مجمع القصور. هيلا وميساك تحاولان زيارته لكن دون جدوى. يُطلق سراحه بعد عدة أيام. اشتباه بالاسم.

«كل ظني ماكو واحد بالعالم أسمه أمل غيري بس أمل دنقل» يلوك قطعة خبز ساخن ممرغة بسوب دجاج أعدته خالته ميساك له في اليوم الأول بعد إطلاق سراحه.

«منو امل دنقل هذا؟» تسأله ميساك.

«لا عليك» يرد عليها. يأكل بشراهة. باسطرمة. سمبوسة. لحم بعجين. يغصّ. تضرب على قفاه. تناوله قدح ماء. يتجشأ. يلعن.

مساء، يلبي دعوة عمته هيلا لتناول العشاء مساء ذلك اليوم. لكنه لا يأكل سوى حلوى القطايف.

«ضربوك ابن اخوي؟» تسأله بقلق: «عملوا بيك شي هالملاعين؟».

«لا عمّي» يجيبها. يطلب شاياً. يدخن سيجارة: «بالعكس. بعد ما تأكدوا أنو مالي علاقة وشافوني قوي بالإنكليزي عرضوا عليّ اشتغل معاهم، بس رفضت».

«مليح هيكذ ابن اخوي» تقول هيلا مشجعة. تصب له شاياً في قدح وتضعه على المائدة الصغيرة أمامه: «الاسبوع الفات سمعت أنهم قتلوا مترجم يشتغل وي الانكليز بمحلة الطويسة!».

يغادر «أمل» بيت هيلا. يصل إلى بيته متعباً. يستحم. يقرأ قليلاً. يغط في نوم عميق. يستيقظ بعد ظهر اليوم التالي. حرّ. رطوبة. التيار الكهربائي مقطوع. يستحم. يخرج. يتناول غداءه في أحد الأكشاك في شارع المطاعم. كبّة أبو صباح المصلاوي. يرتاد مقهى الإنترنت. تقفز صورة نيتّا المقنعة في ذهنه. يتجاهلها. يتصفح مفضلاته:

- *ديك هراتي عراقي ينقر عين جندي أمريكي ويقتلعها أثناء التقاط صورة تذكارية معه، بعد تغلبه على ديك آخر في إحدى حلبات مهارشة الديكة في سوق الغزل.*
- *صور تُظهر عملية اغتصاب نساء عراقيات من قبل جنود أمريكيين تثير جدلاً في المواقع والمنتديات العربية على الشبكة العنكبوتية.*
- *اكتشاف أدلة جديدة على وجود حياة على سطح المريخ.*
- *تدشين أول قطار فائق السرعة يسير بالطفو المغناطيسي في الصين.*
- *دار نشر أوربية تبتكر طريقة جديدة في الطباعة تتيح للقارئ إحراق الكتاب في حال لم يعجبه.*

يلفت انتباه «أمل» خبر اغتصاب الجنود الأمريكان لنساء عراقيات. يدفعه الفضول إلى البحث عن تلك الصور. يفتح أحد الموقع الإسلامية اسمه (وا معتصماه!) يتبع رابط نُوّه في أعلاه (18+ لا يصلح لأصحاب القلوب الضعيفة) ينقر على الرابط، تظهر له مجموعة من الصور كُتب في أعلاها: (أنظر بعينك ماذا يفعل الأمريكان الكفرة بأعراض المسلمات!) يرى في الصورة الأولى جنود يرتدون ثياب المارينز يقتادون اربع نساء بعباءات سود حُشرت رؤوسهن في أكياس من الخيش. يقلب الصور الأخرى التي تظهر فيها تلك النساء وهن يغتصبن

على مقربة من تمثال أسد بابل في مدينة الحلة. يقع بصره على صورة لامرأة تبدو في الخامسة والثلاثين من عمرها. يوخزه قلبه. يراها في صورة أخرى على نحو أوضح. يقشعر بدنه. يكبر الصورة. يرتعش. يقف شعر رأسه. يكبر الصورة أكثر.

«لا يمكن أن تكون هي» يصرخ. يجذب انتباه مرتادي المقهى. ينهار. ينتف شعره. يلطم: «ليس هذه المرة!».

يطلب من صاحب المقهى أن يستنسخ الصورة. يأخذها معه إلى البيت. يصارع هواجسه. شكوكه. وساوسه، قبل أن يتأكد من أنها هي. نسرين بلحمها ودمها. يتخيل نفسه مقاتلاً ثورياً يحمل قاذفة صواريخ ويوجهها نحو دبابة أمريكية، أو أحد أولئك السيافين المقنعين يحتز بسيفه رؤوس الجنود المغتصبين. يحتجز نفسه في البيت ثلاثة أيام لا يخرج خلالها إلا مرتين لشراء السجائر. تفتقده هيلا وميساك. تتفقدانه في البيت. يعلمهما بالأمر. تريان الصورة. تُذهلان. تُصدمان. تواسيانه. يسمع في الراديو أن أحد الجهات المناوئة للوجود الأمريكي تنظم تظاهرة. يركب إحدى الحافلات المتجهة إلى بغداد. ينظم إلى المتظاهرين. يقف في مقدمتهم أمام مقر قيادة القوات الأمريكية في فندق فلسطين ميرديان، رافعاً صورتها، منددا بتعرضها للاغتصاب على أيدي الجنود الأمريكان. يهتف: داون.. داون بوش! يجذب انتباه الصحفيين الأجانب فيجرون معه لقاءات. يصورونه وهو يحمل تلك الصورة ويردد شعارات مناهضة للولايات المتحدة الأمريكية. يعود إلى البصرة. يواصل حياته الروتينية الكئيبة بمزيد من الحزن، الإحباط، الغضب. ثمة رغبة انتقامية غير معهودة تنمو في ذاته على نحو يدفعه إلى التفكير بحمل السلاح ضد

الوجود الأجنبي في العراق. يشعر كما لو أنه يتجرع سماً قاتلاً كلما تذكر أو رأى صور الاغتصاب الفظيعة التي تناقلتها بعض وسائل الإعلام وانتشرت في المواقع الالكترونية والمنتديات العربية والإسلامية على الشبكة العنكبوتية. يبكي. يشعر بالندم: لقد ظلمتها! يقول. يبصق بكفه ويلطشها في جبينه. يركل الطاولة الصغيرة أمامه في غرفة المعيشة. يستحم. يستمني بينما هو يجهش بالبكاء. تنزلق قدمه في الحمام. يقع على الأرضية بعنف. يرتطم رأسه بالجدار. يغمى عليه. يفيق. يستلقي على السرير منهكاً، شاعراً بالدوار. يمضي نحو ثلاث ساعات، عار، لا يكاد يفعل شيئاً سوى التنفس والتحديق الممل في السقف. ينام. يوقظه الحر الشديد وطرق خفيف متواصل على الباب في ساعة متأخرة من الليل. الكهرباء مقطوعة. يحمل فانوساً بضوء ضئيل ويتجه نحو الباب.

«من هناك؟» يقول متوجساً.

«أنا» يأتي الجواب واهناً من وراء الباب.

«من أنت؟».

لا جواب هذه المرة. فقط أنفاس متلاحقة، لاهثة.

بعد دقائق من التردد يفتح «أمل» الباب. لا يرى أحداً هناك. الزقاق مظلم. يمعن النظر. يرى على بعد خطوات سوادة على الأرض. يقترب منها. يقلبها: امرأة! يتفحص وجهها المتضغن على ضوء الفانوس. يخفق قلبه بشدة. يجس نبضها. ينظر يميناً. يساراً. إلى فوق. يشعر أن ثمة من يتجسس عليه في تلك الأثناء. يحملها إلى الداخل. يضعها على سريره. يرش على وجهها ماء بارداً. يمسد يديها. قدميها. يكشف شعرها. يضع أذنه على صدرها. تتحرك. تأن. تتقيأ. يغسل وجهها. يمرر بيده على

جبينها ورقبتها: حرارتها مرتفعة! يعمل لها كمادات. ومع حلول الفجر تنخفض حرارتها. تتحسن. تفتح عينيها. تبتسم له. تكح. تغط في النوم. يراقبها بعينين ناعستين متعبتين كأنما حُشيتا بالرمل. يشعر بالإنهاك. يستلقي على الأرض. يغافله النوم. يشخر. يحلم. يستيقظ بعد ثلاث ساعات. توقظه نسرين. لا يصدق عينيه. يدعكهما: «هل حقاً هي؟ يسأل نفسه. تبتسم له. يراها في ضوء النهار المتسلل من النافذة وهي جالسة على حافة السرير. تنظر إليه بعينين خائرتين مخذولتين. لقد تغيرت كثيراً. صارت عبارة عن كتلة خاملة من العظام المكسو بلجد ولحم بليدين. بوجه ممتص وملامح هزيلة. أظافر طويلة وقذرة. شعر أشعث يتخلله شيب في المفرق.

«أين كنتِ؟!» يسألها بصوت بالكاد خرج من فمه متسربلاً بعبرة تكاد أن تخنقه: «ما الذي جاء بكِ الآن؟ ظننتكِ ميتة».

«لقد متّ بالفعل!» تقول نسرين بصوت مرتعش، مرتبك، ممرغ بغصة مريرة، وقد شبكت يديها ودستهما بين ركبتيها: «مت أكثر من مرة».

تريد أن تبدأ بالحديث. يمنعها أمل.

«ليس الآن؟» ينهض بهمة: «سأجلب طعاماً وبعض الحاجيات. يمكنك الاستحمام حتى أعود».

«ألا أزعجك؟» تسأله.

«لا تقولي هذا الكلام» يرد عليها: «لن أتأخر، هذا بيتك».

بعد ساعة يتناول الاثنان إفطارهما، ثم تبدأ نسرين برواية محنتها:

«كان موتاً أكثر حقيقة من الموت العضوي، ذاك الذي ذقته أول مرة

منتصف عام ١٩٩٠، والموت الثاني في عام ١٩٩١، والموت الأخير الذي جاء بعد اثنى عشرة سنة، وتحديداً بعد سقوط بغداد في عام ٢٠٠٣. لكني سأبدأ من ذلك اليوم الذي كتبتُ فيه رسالة لك وتركتها هنا. هل عثرت عليها؟».

يهز «أمل» رأسه موافقاً، لكنه لا يخبرها أنه عثر على تلك الرسالة قبل أقل من ثلاثة أشهر فقط من الآن. يتركها تسترسل:

«كان من المفترض أن ننفذ بعدها بيوم أو يومين خطة خلاصنا الوحيدة بالهروب عبر الحدود إلى معسكر اللاجئين في السعودية. إلا أن ثمة ما حدث فجأة وأفسد علينا كل شيء عندما خرج وليد في اليوم التالي بحثاً عن طعام. لكنه لم يعد. لم أكن متأكدة في ذلك الحين ما إذا كان قد قُتل أو أنه تركني وهرب لوحده. لكني في حينها لم أسمع عنه شيئاً. بقيت وحدي في البيت طوال اليومين التاليين. كنت يائسة، مخذولة، خائفة، جائعة قبل أن يدخل الجيش إلى المدينة وينتزعها من قبضة الثوار. وفي اليوم الثالث، ربما بوشاية من أحد الجيران كان قد لاحظ وجودنا المريب في البيت، فضلاً عن المظهر الذي كان عليه وليد وهو متنكب بندقيته الكلاشنكوف أثناء دخوله وخروجه، اعتُقلت من قبل فرق التفتيش الأمنية والحزبية التي باشرت منذ الساعات الأولى حملات دهم واعتقالات عشوائية بين صفوف السكان. احتُجزت في مكان قذر وموبوء تحت الأرض مع نساء أخريات وأطفال. كنتُ أسمع صراخ بعضهن في غرفة التحقيق المجاورة. وإلى أن حان دوري كنتُ قد عزمت على الاعتراف بأني ضمدتُ بعض جرحى الثوار. وعلى الرغم من ذلك، فقد عُذِّبت بطريقة بشعة تمنيت الموت معها. اقتلعت أظافري.

قصوا شعري. أجلسوني على أشياء حادة وجارحة. صعقوني بالكهرباء، وفعلوا أشياء أخرى اخجل أن أتحدث بها».

هنا بدأت نسرين تنتحب. و«أمل» ينظر إليها بعينين احمرتا مؤخراً بينما هو يحاول أن يمسك دموعه بصرامة مزيفة. كانا جالسين على الكنبة في غرفة المعيشة. مسحت نسرين دموعها وطلبت سيجارة قبل أن تعود لتكمل ما بدأته قائلة بصوت مبحوح يتخلله نشيج متقطع:

«كانوا ينادونني الغوغائية. وهي كلمة أقل ما يمكن أن تُنعت بها امرأة خائنة للوطن والمبادئ، قياساً بنعوت وشتائم أخرى مثل قحبة، قوّادة، أم كذا، بلاّعة كذا إلخ من الكلمات النابية التي تعرفها ويمكن أن يتبادلها صبيان في الشارع، والتي كان وقعها في السجن، على بعض النساء، أمرّ من إطفاء أعقاب السجائر في أردافهن وأفخاذهن وحتى في فروجهن.

لن أطيل عليك بهذا الشأن حتى لا أجرح مشاعرك الاخوية. فبعد فترة من الزمن، جيء بضابط تحقيق جديد كان أقل عنفاً من الضابط السابق. أو أنه أصبح كذلك بمجرد أن رآني. كان كأغلب الضباط الاستخباراتيين الذي يلقون علينا قيئهم وبرازهم، يتكلم بلهجة المنطقة الغربية. لكنه، وبعد فترة قصيرة، بدا أكثر إنسانية منهم. فقد تركنا نتنفس بشكل أفضل. نقلنا إلى مكان أقل وساخة. سمح لنا بالاستحمام والتشمس، والتخلص من قمل الشعر والعانة والآباط. كان يرسل في طلب امرأة تلو أخرى ويحقق معها بهدوء، ويسألهن عني، عن أخلاقي وما إذا كنت أتلفظ بكلمات خادشة. أصبح أسلوبه مختلفاً تماماً عما ألفناه من الذين كانوا قبله طوال شهرين من التعذيب والصعق بالكهرباء

وقلع الأظافر. وكان يقضي معي في التحقيق وقتاً أطول. يمعن النظر إلى وجهي بشكل طالما بعث الريبة في نفسي. لن تصدق إن قلت لك أن خوفي منه كان أكبر من ذاك الذي كنت أشعر به بينما أتلقى التعذيب من أولئك الكلاب الساديين. لم يكن يحقق معي بقدر ما كان يسألني أسئلة شخصية: هل أنتِ متزوجة؟ أين تسكنين؟ هل انتهكوا شرفك في السجن؟ من الذي اعتدى عليك؟ كان يلح على نفسه ليتذكر أين رآني من قبل. لم أقل له أني كنتُ أعمل ممثلة. قلت له أني مقطوعة من شجرة، وحيدة أبوان ماتا في طفولتي، وأني تزوجت في سن مبكرة، وأجهل حتى الآن مصير زوجي منذ أن خرج ليجلب طعاماً في ذلك اليوم؟

«هل كان زوجك غوغائياً؟

سألني ذات مرة. وقلت له أنه شارك فعلاً في الأحداث الأخيرة، لكنه لم يطلق من بندقيته رصاصة واحدة. بعد أيام فقط فاجأني ذلك الضابط بقائمة صادرة من مديرية أمن البصرة، تحتوي على أسماء مجموعة من الأشخاص تم تصفيتهم عرفياً، ودفنوا عشوائياً ي حفرة واحدة. قرأت اسم وليد بينهم وأجهشت بالبكاء.

«ها أنتِ الآن أرملة».

سمعت الضابط يقول وثمة ابتسامة خبيثة ارتسمت على شفتيه.

بعد حوالي أربعة أشهر صدرت الأحكام القضائية بحق النساء المعتقلات. أعدموا نصفهن، وبعضهن سُفرن إلى بغداد ليقضين هناك فترة محكوميتهن. وسعيدات الحظ من ثبتت براءتهنّ، أما هؤلاء فكنّ قلة قليلة. أما أنا فقد كنتُ من ضمن ثلاث نساء أجلت محاكمتهن لشهر

إضافي. علمت حينها أن لضابط التحقيق الجديد يد في الأمر، وإلا فإن قرار الإعدام شنقاً هو أقل ما يمكن أن يصدر بحقي، فقد قال لي فيما بعد أن باستطاعته تبرئتي من التهمة الموجهة لي مقابل شيء عليّ أن أهبه إياه عرفاناً بالجميل الذي سيقدمه لي. تساءلت في البداية إن كان أحدهم بحاجة، لكي ينام مع امرأة في السجن وفي بلد دكتاتوري مثل بلدنا، إلى كل هذا التذلل من أجل الحصول على إذن السجينة ليفعل ذلك في النهاية. قبل أن أفهم فيما بعد، حين تكلم بشكل أوضح، أنه يريد الزواج مني مقابل إطلاق سراحي. لم يكن أمامي حينذاك سوى قبول عرضه، وإن يكن ذلك على مضض، أو أذهب إلى الجحيم.

كان هوس ضابط التحقيق بي يزداد يوماً بعد آخر، خصوصاً وأن الكثير من الدم، وبفضل الطعام الخاص الذي كان يرسله لي، قد عاد إلى وجهي الذي امتصه التعذيب، وأصبح بإمكاني أن أبدو أكثر جمالاً في تلك الأثناء. لم أعرف السر وراء كل ذلك إلا بعد أن تزوجني وانتقلت للعيش في بيته الكائن في الفلوجة. وكما يحدث في الأفلام، أصبح وجودي مبرراً في ذلك المكان (رغم رفض الوسط الاجتماعي في تلك البقعة لوجود امرأة مثلي) بداعي أني أكثر النساء شبهاً بزوجته المعشوقة الميتة. بل رأيتني نسخة طبق الأصل منها، إلى درجة أني صرت أشك ما إذا كانت صاحبة الصورة المعلقة على الجدار في غرفته هي أنا لكن في مكان آخر.

يمكن للأمور أن تجري بهذه الطريقة الغريبة والمصادفات العجيبة، والتي نظن أحياناً أنها لا يمكن أن تحدث إلا في التمثيل.

لا أخفيك أمراً، أني وجدتُ في تلك الحياة ما جعلني أحاول نسيان

الماضي والبدء من جديد. اضطلع بدور الزوجة التي ماتت، وأكون لذلك الرجل كما كانت هي بالنسبة له قبل أن تغادر. وأعيش الحياة كما لو أنها مقدرة لي، من دون الخوض في مغامرات خاسرة من أجل الوصول إلى مكان سيء السمعة مثل هوليود. لا أحد يعلم إن كنتُ، في حال أني هربت مع وليد إلى معسكر اللاجئين في رفحاء وتم قبولنا كلاجئين في أمريكا مثلاً، سأحقق حلمي الكبير والمخيف هناك. ربما أفشل مثل أمي. ربما اتحول إلى فتاة استعراض في إحدى صالات التعري الأمريكية، قبل أن أموت بالسفلس.

يا للبشاعة! هل ترى ذلك؟

دوام الحال من المحال يا عزيزي. لا شيء يمكن أن يبقى اليوم على ما كان عليه بالأمس. ففي ليلة وضحاها انتهى كل شيء. ولا تقل لي كيف، لأني ساروي لك ما حدث بعدها. والآن استأذنك قليلاً. سأذهب إلى الحمام».

تنهض نسرين. يكاد «أمل» أن يسمع طقطقة عظامها وهي تفعل ذلك بتثاقل، مثل امرأة عجوز بدأ تكالب الأعوام ينخر جسدها. انتظرها حتى عادت. طلبت سيجارة أخرى، وشرعت تروي من النقطة التي انتهت إليها قبل أن تذهب إلى الحمام:

«أين وصلنا؟ آه نعم..

عندما بدأت الحرب الأخيرة، كان زوجي في عمله، في بغداد تحديداً. كان يتسنم وقتها منصباً مهماً في الاستخبارات العراقية. وقد عاد إلى الفلوجة في اليوم نفسه الذي دخلت فيه القوات الأمريكية إلى بغداد. كان غاضباً ويشعر بالألم والخيبة في آن معاً. ولم تمضِ فترة طويلة حتى

وصل الأمريكان إلى الرمادي ومنها إلى الفلوجة. عندئذ لم ينتظر زوجي المزيد من الوقت حتى انخرط في إحدى الفصائل المسلحة المقاومة. وبعد فترة قصيرة، كان من ضمن المائة شخص الذين قتلهم الجيش الأمريكي رداً على العمليات التعرضية التي قامت بها فصائل المقاومة وقتل فيها عدد من الجنود الامريكان.

لم يكفهم أنهم أبادوا نحو مائة شخص، إنما عمدوا إلى القيام بعمليات دهم واعتقال عدد كبير من الرجال والنساء. وكنت أنا من بينهم، كوني زوجة ضابط استخبارات سابق ومسؤول أحد الفصائل المسلحة المقاومة. سُفرت بعدها إلى بغداد، ومنها إلى بابل مع ثلاث نساء أخريات. هناك فعلوا فعلتهم وحدث ما حدث».

طفقت نسرين تبكي.

كان أمل يجلس إلى جانبها على الكنبة. يدخن بشراهة. وكان العرق يتصبب منه على نحو غزير:

«إحدى النساء ماتت بعد ساعات. تلقت ضربة على رأسها بمؤخرة بندقية عندما بصقت بوجه أحد المغتصبين. وكان من المفترض أن نُقتل نحن الأخريات. لكنهم أطلقوا سراحنا فجأة في صفقة مع الأمريكيين مقابل إخلاء أحد الفصائل المسلحة سبيل مقاول أمريكي كان محتجزاً لديهم. لجأت بعدها إلى دار رعاية اجتماعية تابعة لإحدى مؤسسات المجتمع المدني التي تأسست بعد الحرب مباشرة. كان الوضع سيئاً هناك. مرضت وصرت أبصق دماً. كنت أظن أني أصبت بالسل، وتوقعت موتاً وشيكاً. فكرت بالانتحار. طلبت من الطبيب المعالج في دار الرعاية أن ينهي حياتي بطريقته الخاصة. حقنة أو جرعة دواء زائدة

تضع حداً لهذه المهزلة التي تسمى حياتي. لكنه رفض بشدة. قال أنه طبيب وليس جلاداً، وأن هناك ألف طريقة للعيش، فقط لو أراد أحد أن يعيش وتكون له الرغبة بذلك. شجعني وقال أن هناك متسعاً من الوقت للبدء من جديد».

«وانا أقول ذلك أيضاً» يقول «أمل» بينما هو يمسح العرق عن جبينه ووجهه بيديه: «ما زال هناك متسعاً من الحياة».

«حقاً؟» تلتفت نسرين: «هل لا يزال هناك ما يستحق العيش لأجله؟ لقد خسرت الكثير. لا أشك أني لا زلت أتنفس، لكن في الوقت نفسه صار الناس يلوكون سمعتي في كل مكان. أنت تعرف أن في مثل هذه الظروف لا تختلف نظرة اثنين إلى الضحية عن نظرتهم إلى الجلاد. لو تعرف إليَّ أحدهم الآن ستفهم ما اعنيه. سترى أنه يشفق عليَّ، وربما يبكي لأجلي ويفكر بالانتقام لي، لكنه في مكان آخر، سيتمنى موتي. وربما يفكر بقتلي ليطمس عاره. وعلى الرغم من ذلك، سأنظر إلى الجانب الذي يمكن وأتوقع أن يضيء في حياتي المقبلة، إذا ما أرادت لي الاقدار ان أكمل حياتي وأعيش بسلام.

هل تساعدني؟».

«نعم، مؤكد» يطفِئ «أمل» عقب سيجارته الأخيرة في المنفضة. ينفض رأسه من العرق، ويشرع بالبكاء. يسألها بينما هو ينتحب: «هل فَعلْتُها حقاً؟».

تصمت نسرين. تنكس رأسها وتقول بصوت منقوع بعبرة مرة وغائرة: «نعم للأسف» ثم تستدرك بعد ذلك على نحو حاولت فيه أن

تبلسم وجع «أمل» الذي أحست كما لو أنه راح ينخر كل عظم فيه، وبمزيد من الندم:

«لا بأس عليك يا أخي، لم تكن بوعيك في ليلتها. أعلم جيداً أنك لم تتعمد إيذائي، لكن حصل ما حصل، وليس بوسعي محاكمة الماضي. لقد مرّ عليّ ما هو أكثر إيلاماً من ذلك. ولولا أني أخجل منك، لرويت لك ما حدث في عام ١٩٩٠ لكي يهون عليك ما فعلته في وقت كانت الخمرة قد طيرت عقلك، عدا أنك كنت فتى طائشاً بعمر السادسة عشرة».

«ماذا حدث في عام ١٩٩٠؟» يخرج صوت «أمل» مشوباً ببحة وبقايا بكاء.

«دعك من هذا الآن» تجيبه نسرين بنبرة مازحة لكنها في الوقت نفسه لا تخلو من لؤم: «تعال قل لي هل ما زلت ترغب أن تصبح أسداً؟» تربّت على ظهره. تنهض. تدلف إلى المطبخ. يأتي صوتها من هناك: «لن تأكل في المطاعم بعد الآن. سأطهو لك. لقد أصبحت ربة بيت جيدة في الأعوام الماضية».

يصدح آذان الظهر من منارة أحد الجوامع القريبة.

«هل ما زلتِ لا تؤمنين؟» يسألها. لا تجيب. تخرج من المطبخ، وقد رفعت كَمّي ثوبها، وكان ماء الوضوء لا يزال سائحاً من ذراعيها إلى أصابعها ويتقاطر على الأرض.

«ماذا ترى؟» تسأله وتبتسم.

يمضي أسبوع لا يتردد «أمل» خلاله على مقهى الإنترنت سوى مرة واحدة على وجه السرعة. كان يقضي وقته بالتسوق، والتسكع،

والقراءة، وتذوق طعام نسرين التي لم تخرج أو حتى تطل من وراء الباب. تزوره كل من هيلا وميساك، تشعران بالريبة من وجودها. تحذرانه منها. تعاملانها بجفاء. تقولان له أنها امرأة لعوب، وستجلب له المتاعب.

«دعوف هالمكان وتعال اقعد معاي» تقول له هيلا بإلحاح: «لك ابني أنا صغت عجوز، متشوف؟ احتاجك أكثغ من هذيك مغت الثعلب» «لا تصيغين هيكذ قاسيي عمّي» يقول «أمل» ممتعضاً: «صاغت بغاسا. خطيي اش ذنبا صاغ بيها هيكذ وبهالبشاعه. عتفهمين هالشي؟».

«ماكان ديصيغ بيها هيكذ لو كن احترمت نفسا وما انهزمت» تقول هيلا بصوت هامس. تنهض. تهم بالمغادرة: «لو غيغ وحدي كان هسه متزوجي وعندا اولاد وعندا بيت».

طوال الأيام السبعة الماضية، يراقب «أمل» نسرين. حركاتها. سكناتها. يمعن النظر إليها. وهي تطبخ، تنظف، تأكل، وهي نائمة، وهي تمشط، أو تقرأ أو تضحك. تكح. تعطس. يسترق السمع إلى دندنتها بينما هي تستحم. إلى صوت ارتطام بولها في مقعد المرحاض. وقع أقدامها. شخيرها. تلاوتها وهي تصلي. بكائها وهي تتهجد منتصف الليل. يفكّر: لا بد أن ذلك حدث لها بالفعل! ينفعل بينما هو يسمع قول خالته ميساك بأنها امرأة متمردة، لن تصبر على حياة البيوت المغلقة، وأن قصتها ربما تكون ملفقة. تسترق نسرين السمع من وراء باب المطبخ لكنها لا تفهم شيئاً فقد كانت ميساك تتحدث بالأرمنية:

«لسيه انتيين أو يغور هيدس، اسديبفادز تشبس هيده منالو، هنى غاتن اوكود تشوني، كاني فور هافادك تشونيس» (اسمع من خالتك

وتعال معي. لست مجبراً على البقاء معها. حتى اللبن الذي رضعتما منه لم يعد ساري المفعول ما دام أن لا شغل لك مع الدين).

تغادر ميساك غاضبة. يترك هو نسرين تحضر للعشاء. توصيه أن يجلب معه خبزاً ولبناً وحاجيات أخرى. يمر من أمام مقهى الإنترنت. لا زال هناك المزيد من الوقت. يدخل. يتصفح مفضلاته. يتحاشى الدخول إلى الموقع الرسمي لـ نيتّا ليناريس ذات القناع. يقرأ أخباراً. يفتح موقع (وا معتصماه!) يلعن. يشتم. يكون قبضة ويضرب فخذه. لا زال الأمر يثير جدلاً. يتصفح مواقع القنوات الإخبارية العالمية. يقرأ خبراً تورده بي بي سي:

- يوسا في زيارة مفاجئة إلى العراق.

٢٨ يونيو/ حزيران ٢٠٠٣

علمت بي بي سي من مصادر في بغداد أن الروائي البيروفي ماريو فارغاس يوسا يقوم حاليا، ومنذ الخامس والعشرين من الشهر الجاري، بزيارة إلى العراق. وتأتي هذه الزيارة الغير مسبوقة التي ستستمر لغاية السادس من الشهر المقبل يوليو/ تموز في إطار سعي الروائي الشهير لكتابة يوميات عن عراق ما بعد الدكتاتورية من المؤمل أن تُنشر في صحيفة البايس الإسبانية ذائعة الصيت.

ومن المعروف أن يوسا حاصل على عدة جوائز عالمية منها ....

يبتسم «أمل» بينما هو يقرأ خبر زيارة كاتبه المفضل إلى العراق. يتذكر حينما كتب لـ نيتّا ليناريس يوصيها بأن تبحث عن سرفانتس وتخبره أن قصة عظيمة تنتظر أن يكتبها في العراق: «حماقة!» يردد. يضع اسم

نيئًا في محرك البحث غوغل. يفتح موقعها الرسمي. كالعادة، تظهر مقنعة في صورها الخليعة: «مجرد حماقة، كذبة. خيال. وهم!».

كنسل!

يتصفح موقع سي أن أن. يقرأ:

- *تقرير للأمم المتحدة يشير إلى احتمال وصول أكثر من نصف الشعب العراقي إلى ما دون حافة الفقر بسبب الاحتلال وتردي الأوضاع الاقتصادية.*

- *وزير خارجية بريطانيا جاك سترو يعترف بعدم وجود أي دليل مادي لأسلحة الدمار الشاملة في العراق.*

- *مصادر عن وكالة الاستخبارات العسكرية الأمريكية تنفي تعرض نساء عراقيات إلى الاغتصاب من قبل جنود أمركيين، وتقول أن الصور التي تداولتها بعض الصحف والمواقع الإلكترونية ووسائل الإعلام وتظهر مشاهد اغتصاب لنساء عراقيات في مدينة بابل كانت مجتزأة من فيلم إباحي بعنوان (جنس في الحرب) أنتجته هوليود وصُورت مشاهده في العراق بشكل سريّ ومن دون علم سلطة الائتلاف المؤقت والجهات العراقية الرسمية. وأن النساء اللائي ظهرن في مشاهد الاغتصاب لسن في الحقيقة سوى ممثلات إباحيات .*

يقرأ «أمل» الخبر مرة واحدة. يده على ماوس التحكم ترتجف. يتعرق. يشعر بالغثيان. بالدوار. يبصق. يشيح بوجهه ناحية أخرى وينخرط في ضحك مرير. يلفت انتباه المرتادين، بينما هو يقهقه على

نحو هيستيري، كأنه يريد أن يموت، ويرغب بالضحك للمرة الأخيرة من كل قلبه.

كنسل!

يخرج من المقهى. لا زال يضحك. الأحرى أنه يبتسم، لكن على نحو أظهره كما لو أنه أحد أولئك البُلْه الذين يعطون بابتسامتهم للآخرين الانطباع الأول عن بلاهتهم. يتسكع على غير هدى، دونما هدف أو وجهة. يشعر بالغضب. بالخرق. برغبة وشيكة بالتقيؤ. يتعرق بشكل مفرط يمكن للمرء أن يظن معه، حينما يراه على تلك الحال، أنه خارج لتوه من النهر. «غبي!» يقول لنفسه: «نسيت أنها ممثلة؟» يكون قبضتين. تنغرس أظافره في باطن كفيه. يتألم. يرخي أصابعه. يبصق. يشتم. يدخن. يعود إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل. «لا بد أنها نائمة الآن» يفكّر. يطرق الباب. لا جواب. يفتحه بنسخة المفتاح خاصته. يدخل بهدوء. يتجه إلى المطبخ. يشرب ماء من عبوة معدنية في الثلاجة. يجلس هناك أكثر من نصف ساعة لا يفعل شيئاً. تذبل عيناه. يشعر بالإنهاك. يخرج من المطبخ ويتجه إلى غرفة نسرين. يضع أذنه على الباب. يسمع شخيرها. ينصرف إلى غرفته. يستلقي على سريره. ينام فوراً. يحلم. يرى ماريو فاراغاس يوسا في مؤتمر صحفي يتحدث عن روايته الجديدة ويقول، بينما هو يشير إليه:

«قال لي الرب اذهب إلى العراق يا ماريو واكتب قصة هذا الرجل!».

يرى نيتّا المقنعة وهي تضاجع أسداً. تصرخ: **«فروم ماي آز!»**.

يستفيق في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. حرّ. رطوبة. عفونة. لا يجد نسرين في غرفتها. ليست في المطبخ. ولا في الحمام. ليست في

البيت. ليست في المدينة ربما. ليست في أي بقعة من هذا البلد ولا في بلد آخر. ليست في الوجود.

يشعر «أمل» بالدوار. يغفو ثانية. يغط في النوم. يشخر. يستيقظ عصراً. يجمع بعض الثياب والكتب ويضعها في حقيبة. يغادر إلى بيت عمته هيلا. يحبس نفسه في غرفته هناك. يقرأ، يأكل، يبكي. يقرر الذهاب إلى بغداد للقاء ماريو فارغاس يوسا، ويبدأ تمرينه في التحدث إليه. تسمعه عمته وهو يكلم نفسه. تنادي من وراء الباب:

«أنت بخير عزيزي؟».

لا يرد.

وطوال ثلاثة أيام لا تراه إلا أثناء وجبات الطعام. تطلب منه الذهاب معها إلى إسرائيل. تلح. تغضب. تشتمه عندما يقابل طلبها بالعناد قائلاً:

«أغوح على ماريو هو الوحيد يفهمني!».

«غوح على جهنم!».

«أي، أغوح على جهنم...» يرد عليها بمزيد من الغضب: «هذا أحسن من ما أغوح على إسرائيل!».

الفهرس

هذا الكتاب

«أنا أعرف أنك صديقاً حميماً للإسرائيليين. هل تعلم يا سيد ماريو؟ كنت أحتفظ بصورك التي تظهر فيها وأنت تتسلم جائزة القدس في تل أبيب، وصور أخرى جمعتك مع شمعون بيريز كانت عمتي هيلا قد أزاحتها عن الجدار في غرفتي حيث كنت ألصقها هناك مع صور أخرى متفرقة التُقطت لك في مناسبات عديدة. ثم قامت بتمزيقها قبل أن تلقي بها في سلة النفايات. ولك أن تتصور امرأة يهودية تعيش في بلد مثل العراق وتقع عينها على صورة لشمعون بيريز معلقة على أحد جدران بيتها، في الوقت الذي كان صدام حسين يبحث عن قطعة أرض مجاورة لاسرائيل ليتمكن من إحراقها...».

رسمة الغلاف: أرنولد كوموردينتسي



